جامعة الأزهر

جامعة بريجهام يانج
الولايات المتحدة الأمريكية

مركز صالح كامل
للاقتصاد الإسلامي

رابطة الجامعات
الإسلامية

نـــدوة

الفلسفة الإسلامية كمدخل للحوار بين الإسلام والغرب

يوم الإثنين ١٣ صفر ١٤٢٢هـ الموافق ٧ مايو ٢٠٠١م

برعايـــة

معالى الأستاذ الدكتور محمود حمدى زقزوق

وزير الأوقاف

وضيف الشرف

الأستاذ الدكتور أسامة الباز

مستشار السيد رئيس الجمهورية

وبرئاسة

فضيلة أ.د أحمد عمر هاشم

رئيس جامعة الأزهر

جمهورية مصر العربية

و

أ.د. ميرل باتمان

رئيس جامعة بريجهام يانج

بالولايات المتحدة الأمريكية

مقررا الندوة

أ.د. جيمس تورنتو

أستاذ الدراسات الإسلامية

بجامعة بريجهام يانج

أ.د/ محمد عبد الحليم عمر

مدير مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامى

بجامعة الأزهر

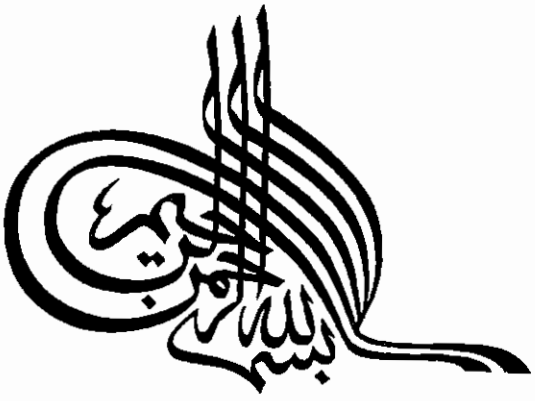
بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة بريجهام يانج
الولايات المتحدة الأمريكية

مركز صالح كامل
للاقتصاد الإسلامي

رابطة الجامعات
الإسلامية

كلمة الأستاذ الدكتور محمد عبد الحليم عمر

مدير مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامي – جامعة الأزهر

في افتتاح ندوة :

الفلسفة الإسلامية كمدخل للحوار بين الإسلام والغرب

١٣ صفر ١٤٢٢هـ الموافق ٧ مايو ٢٠٠١م

بســـم اللَّه الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وعلى جميع الأنبياء والمرسلين .. أمين

السادة العلماء الأفاضل

السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته .. وبعد

فإن فكرة عقد هذه الندوة جاءت بمبادرة من جامعة بريجهام يانج عرضت على سعادة الأستاذ الدكتور أسامة الباز الذى خاطب معـــالى الأستاذ الدكتور محمود حمدى زقزوق في شأنها فأيد هذه

عقد المؤتمر بالتعاون المشترك بين مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامي وبالتنسيق مع رابطة الجامعات الإسلامية وبعرض الموضوع على فضيلة الأستاذ الدكتور أحمد عمر هاشم رئيس الجامعة وافق فضيلته على عقدها ويقف وراء عقد هذه الندوة عدة عوامل منها ما يلي:

أولا: لقد عقدت الأمم المتحدة العام الحالي ٢٠٠١ عاما للحوار الحضاري بناء على مبادرة قدمتها منظمة المؤتمر الإسلامي بعد أن مرت الفكرة بمناقشات هامة في جلسات عمل ومندوبات مستمرة ساهمت فيها دول إسلامية عديدة منها مصر والسعودية وإيران.

ثانيا: إن المرتكز الأساسي للإسلام في العلاقات مع الغير هو التعارف المستفاد من قول الله سبحانه وتعالى في خطاب شامل لكل الناس ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات ١٣] والتعارف أساسه الحوار المتواصل.

ثالثا: إن التوجيه النبوي لسيدنا رسول الله ﷺ عملا وقولا يؤكد الاتصال بالآخرين من غير المسلمين وتنظيم العلاقة معهم لصالح الجميع. ويتمثل هذا التوجيه في عدة مبادرات عملية سجلها أول هجرة للمسلمين من مكة طلبا للحماية كانت الى

الحبشـــة وفي كنف ملكها النجاشي وهو نصراني حيث قال الرسول ﷺ لاتباعه «اذهبوا إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلـم أحـد عنده، وكذا معاهدة النبي ﷺ مع اليهود في المدينة وتسجيل ذلك في وثيقة تعتبر بحق أول وثيقة لحقوق الإنسان، وفي قول جامع للتواصل مع الآخرين أخذا وعطاءً بقـول الرسول ﷺ «الحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها كان أحق بها»

رابعا: إن الحضارة الإسلامية في فترة ازدهارها كانت منفتحة على العالم كله أخذا وعطاءً وحافظت على الحضارة الإنسانية في اتصـال بيـن السـابق عليها واللاحق لها، حيث تمت أكبر حركة في النقل والترجمة من اليونانية والفارسية إلى العربية ولـم يكن الأمر مجرد نقل وإنما كان انتقاء وإضافة وتعديلا وتنبـيهاً علـى الغـث منها، ويكفى فخرا لذلك أن التراث اليونانى بقى لدى أوروبا عشر قرون لم يستفيدوا منه وجاء المسـلمون وفي سنوات قليلة درسوا هذا التراث وقدموه مع أعمـالهم الخاصة للعالم كله وكانت ذلك هى بذرة الحضارة الغربية المعاصرة مع ملاحظة أن الحضارة الإسلامية وهى فـي عنفوانها لم تتبع أسلوب الغطرسة والاستعلاء واشعار الآخريـن بالدونـية مثلما هو حادث الآن مع نظرة الغرب للمسلمين.

خامساً: إن العولمة وآلياتها المتعددة ممثلة في الثورة العلمية والعملية في مجال الاتصالات والمواصلات جعلت العالم أشبه ما يكون بالمدينة الواحدة كما جعلت مصالح دول العالم متشابكة في جميع المجالات اقتصادية وسياسية واجتماعية، وما لم يعزز ذلك بتفاهم مشترك وحوار موضوعي وهادف فإن مصالح جميع الشعوب تتعرض لمشكلات عديدة ومخاطر متنوعة.

سادساً: إن العلاقة الراهنة بين العالم الإسلامي والغرب يشوبها التوتر الذى ينعكس سلباً على المصالح المشتركة بينهما، ومن أسباب هذا التوتر هو المعلومات المغلوطة لدى الغرب عن الإسلام والمسلمين ونظرة الاستعلاء والغطرسة من الغرب للعالم الإسلامي، وهذا ما يظهر تحديداً في تصوير المفكرين الغربيين العلاقة بين دول العالم بأنها علاقة صراع حسم نهائياً لصالح الحضارة الغربية بما يعنى انكار الآخرين (فوكو ياما في كتابه نهاية التاريخ)، كما يذهب آخرون إلى أن العدو الجديد للحضارة الغربية بعد انهيار الشيوعية هم المسلمون والهندوس (صمويل هنتجنتون في كتابه صراع الحضارات) هذا فضلاً على ما يؤكدونه من أن العولمة هى الأمركة والتى تعمل على الغزو الثقافى الأمريكى لدول

العـــالم (توماس فريدمان فى كتابه: السيارة ليكساس وشجرة الزيتون).

لكل ما سبق .. وحيث أن الجامعات هى معقل الفكر والعلم، وقاطرة التقدم والرقى الإنسانى .... تم الاتفاق بين كل من:

جامعة الأزهر معقل العلوم الإسلامية وقبلة طلاب العلم الإسلامي

ورابطـــة الجامعـــات الإســـلامية التى تحتضنها جامعة الأزهر في دارها

وجامعة بريجهام يانج الشهيرة والتى تعمل على تجسيد القيم والمثل العلـــيا التى نادى بها الإسلام وتجعل من ضمن برامج الدراسة بها الدراسات الإسلامية والعربية.

علـــى عقد هذه الندوة من أجل العمل على التقارب الفكرى والـــتفاهم المشترك بين العالم الإسلامي والغرب في صورة حوار موضوعى بين نخبة منتقاه من المفكرين من مدخل فلسفى، حيث أن الفلســـفة هى حب الحكمة، والمسلمون يحبون الحكمة ويسعون لها استجابة لقول رسولهم الكريم ﷺ «الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها كان أحق بها».

فـــي نهايـــة كلمتى أشكركم على الاستجابة لدعوتنا وأرحب بحضراتكم وأدعو اللَّه عز وجل أن يجعل عملنا هذا علماً نافعاً إنه سميع الدعاء

والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته

كلمة فضيلة الأستاذ الدكتور محمود حمدى زقزوق

وزير الأوقاف

الحوار أصبح فى عصرنا الحاضر ضرورة من ضرورات العصر وعواصم العالم المختلفة تشهد منذ سنوات مؤتمرات عديدة للحوار بين الأديان أو بين الحضارات لأن العالم قد أدرك أننا نعيش الآن فى قرية كونية كبيرة يعتمد كل منا على الآخر بشكل أو بآخر، ومن هنا فلابد من التفاهم والحوار فالحوار لغة العصر وليس كما نراه قريبا منا لغة الدبابات والصواريخ ولكن الحوار الحضارى المتحضر هو اللغة التى تليق بالإنسان الذى جعله الله خليفة فى الأرض.

وحينما أخبرت بالمبادرة التى قدمتها جامعة بريجهام يانج لعقد هذه الندوة فى القاهرة ثم ندوة فى عمان وأخرى فى دمشق فرحبنا كل الترحيب بهذه المبادرة، والأمر الجدير بالتقدير هنا ان المبادرة تأتى من موطن دعوة عرفها العالم منذ عام ١٩٩٣ وهى دعوة صموئيل هانتنجتن فى صراع الحضارات وبالذات الصراع بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية.

ونحن من جانبنا كمسلمين لا نغلق بابا للحوار ولا نرد طالبا للحوار ولكننا نفتح الأبواب على مصراعيها لكل من يريد الحوار

حوار الأديان أو حوار الحضارات و الثقافات.

واسمحوا لي أن أعرض باختصار شديد علاقة الإسلام بالغرب فهي علاقة قديمة جدا قبل أن يلتقى المسلمون بالغربيين وجها لوجه وقد يكون ذلك أمراً مثيراً للدهشة، ولكن لنرجع معا إلى القرآن الكريم الذى يخبرنا أن هناك حربا فى عهد الرسول ﷺ وقعت بين الفرس والروم وهذه الحرب لم يكن للمسلمين فيها ناقة ولا جمل ومع ذلك حزن المسلمون لهزيمة الروم، وكانوا يتمنون أن ينتصر الروم المسيحيون على الفرس الوثنيين وفرح مشركوا مكة بهزيمة الروم وحزن المسلمون ولكن اللَّه سبحانه وتعالى أنزل قرءانا في ذلك يبشر المسلمين بأن الروم سينتصرون بعد بضع سنين وذلك فى قوله تعالى فى سورة الروم والسورة اسمها سورة الروم والروم هنا يمثلون الغرب المسيحى ﴿الم۞ غُلِبَتِ الرُّومُ۞ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وهُمْ مِنْ بعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ۞ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾[الروم: ١-٤] وتم ذلك بالفعل وكانت هذه نبوءة إلهية تحققت، فإذا العلاقة بين الإسلام والغرب المسيحى علاقة قديمة قبل أن يلتقوا وجها لوجه.

والإسلام فى مبادئه وتعاليمه دعوة للحوار بين البشر جميعا بصرف النظر عن أجناسهم ومعتقداتهم واتجاهاتهم لذلك يقول

القـرآن الكـريم ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣].

أى أن الموقف الأساسى للإسلام هو أن الناس جميعا مختلفون وهذا شئ طبيعى فنحن نعلم أنه لا يوجد اثنان فى هذا العالم يتفقان فـى بصـمة إبهامهما وإذا كان الأمر كذلك فالناس مختلفون وهذه حقـيقة واقعـة لابـد أن نعرفها، لكن القرآن يبين لنا أنه مع هذا الاختلاف لا يجوز لنا بأى حال من الأحوال أن يكون هذا الاختلاف مـنطلقا للـنزاع والشـقاق، ولكن ينبغى أن يكون منطلقا للحوار والتعارف والتفاهم والتآلف والتعاون فالتعارف فى الآية الكريمة هو البداية الحقيقية للتآلف والتعاون على جميع المستويات.

فهـذا هـو الموقف المبدئى للإسلام ولذلك نحن نرفض تماما الدعوة التى أطلقها صموئيل هانتجنتن فى صراع الحضارات.

فالأصـل مـن وجهـة الـنظر الإسلامية هو الحوار وليس الصراع، وإذا كان الإسلام قد دعا إلى الحوار فقد تحقق ذلك عمليا فالنـبى ﷺ بعد أن هاجر إلى المدينة واستقبل الوفود من كل أنحاء الجزيـرة العربـية جاءه وفد من نصارى نجران مكون من خمسة عشـر عضـوا برئاسة أسقفهم أبو الحارث ودخل هذا الوفد على رسول اللَّه ﷺ فى مسجده وقام بعمل شئ استفز صحابة رسول اللَّه

ﷺ فقد اتخذوا لهم ركنا فى مسجد رسول اللّه وبدأوا يصلون صلاتهم فكان فى ذلك استفزازا للصحابة ولكن الرسول قال لهم اتركوهم حتى يفرغوا من صلاتهم وتركوهم فصلوا فى هدوء ثم بدأ حوار بين النبى ﷺ وبين هذا الوفد حوار على مستوى حضارى عرض هذا الوفد ما لديهم من عقيدة وعرض النبى ﷺ ما لديه من عقيدة الإسلام وتعاليم هذا الدين الجديد ثم انصرفوا وعادوا إلى بلادهم، وبعد ذلك بدأ الواحد تلو الآخر يأتون النبى ﷺ ليعلنوا إسلامهم وهذه مسألة أخرى لكن الحوار الذى تم كان حوارا مثاليا يحترم فيه كل طرف الطرف الآخر ليس فيه إرغام من طرف للطرف الآخر كانت فيه الرغبة فى تعرف كل طرف عما لدى الطرف الآخر وتوضيح كل طرف ما لديه للآخر.

ولذلك فالحوار الدينى يعد أساسا راسخا لأى حوار آخر على أى مستوى من المستويات، وأذكر عبارة لأحد علماء اللاهوت الألمان حيث قال إن السلام لن يتحقق فى هذا العالم إلا إذا كان هناك سلام بين الأديان، ولن يتحقق السلام بين الأديان إلا إذا كان هناك حوار بين الأديان فالحوار هو الأساس، ولذلك حينما نتحدث عن الحوار فلابد أن يكون للحوار أساس يرتكز عليه هذا الأساس الذى نركز عليه ونؤكده يتمثل فى عنصرين أساسيين:

العنصر الأول: حوار على مستوى دينى.

العنصر الثانى: حوار على مستوى ثقافى حضارى.

وكل منهما متصل بالآخر فليس هناك انفصالية على الإطلاق لأننا نعلم والتاريخ يعلمنا أيضا أن الدين أى دين جاء مقوما رئيسيا لقيام أى حضارة من الحضارات التى عرفها تاريخ العالم، ونحن هنا فى مصر نعلم أن قدماء المصريين وما تركوه لنا من آثار شهدت على ذلك لها معنى دينى معين فالدين مكون أساسى من مكونات أى حضارة بالإضافة إلى الثقافة والتاريخ واللغة، ومن جانب آخر الثقافة فنحن نعلم من خلال تاريخ الإسلام أنه كان هناك حوار صامت بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية حينما بدأ المسلمون يكونون حضارتهم أقول حوار صامت لأنه لم يكن حوارا وجها لوجه ولكن حوار على مستوى ثقافى حينما بدأ المسلمون يترجمون الثقافة اليونانية إلى اللغة العربية وتفلسفوا واستفادوا من كل الثقافات التى كانت قائمة فى ذلك الوقت سواء كانت ثقافة الفرس أو الروم أو غيرهما من ثقافات أخرى مستأنسين بالحديث الشريف الذى يقول فيه النبى ﷺ «الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها» ولذلك ذهبت هذه العبارة مثلاً (اطلبوا العلم ولو فى الصين) أى ولو كان فى أبعد مكان فى الدنيا أو لو كان عند من

يدينون بغير دينكم فالعلم لا وطن له ولا دين له ولا جنسية له ولكنه مشترك بين الناس جميعا، هذا الحوار الصامت الذى دار بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية ثم مثله فى العصور الوسطى حينما بدأ الأوروبيون يترجمون الثقافة الإسلامية إلى اللغة اللاتينية، وبدأ ذلك فى القرن الحادى عشر إلى القرن الثالث عشر ففى هذين القرنين تم ترجمة كل ما عرفه الغرب عن الحضارة الإسلامية واللغة اللاتينية كانت هى لغة الثقافة فى العصور الوسطى كما كانت اللغة العربية هى لغة الثقافة فى العالم الإسلامى كله.

إذاً فالحوار إما أن يكون وجها لوجه كما حدث مع النبى ﷺ ووفد نصارى نجران أو يكون حوارا صامتا هادئا عن طريق التعرف على الحضارة والثقافة الأخرى من خلال الدراسات والكتب المعتمدة، فالحوار كان قائما ولم ينقطع وفى الوقت الذى كانت فيه حروب سميت خطأ حروب صليبية كان فيه فى نفس الوقت حوار ثقافى لم ينقطع على الإطلاق ونحن نعلم أن الأندلس كانت حلقة الوصل بين الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية، وأسهمت إسهاما كبيرا فى توصيل الحضارة الإسلامية إلى الغرب.

وقد كان هناك قناة أخرى انتقلت منها الثقافة الإسلامية إلى

الغرب عن طريق جزيرة صقلية وعن طريق ملكها.

وفـــى النهاية أتقدم بالشكر لجامعة بريجهام يانج على مبادرتها للدعوة للحوار وأشكر لحضرتكم.

والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته

كلمة الأستاذ الدكتور أحمد عمر هاشم

رئيس جامعة الأزهر

ونائب رئيس رابطة الجامعات الإسلامية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين

وبعد

فالحقيقة التى لا يمارى فيها إنسان أن العالم اليوم يعيش مرحلة من أدق المراحل وأخطرها مرحلة الكل فى حاجة إلى مثل هذا التواصل ومثل هذا الحوار حتى نقف معا على جسور الأمان، وتمتد للتواصل بين الجميع وإلا فإن الصراعات والحروب التى تقع فى عالمنا المعاصر والتى يعيش فيها بعض المجتمعات فى شكل تربص وارتياب من الآخرين.

معنى هذا أن هذا العالم يقف على حافة الهاوية إن لم تقم معاقل العلم وقلاع المعرفة التى تتمثل فى الجامعات، والجامعات التى لها وزنها وثقلها وفى طليعتها الجامعات الإسلامية وجامعة الأزهر باعتبار أن الأزهر المرجعية الإسلامية الكبرى فى العالم بأسره.

إن لـــم نـــتدارك هذا بالوقوف على شاطئ الأمان والتواصل والحـــوار الذى يؤمن الخائفين فإن العالم سيضيق، ولابد وأن تقوم قـــلاع المعـــارف والـــثقافات الجامعـــات بتبصرة القادة والرؤساء والمسئولين والمفكرين وكل المؤسسات بهذا المصير حتى تستطيع الحياة أن تسير فى رخاء وأمان.

نقـــول ذلـــك وهذا الأمن والسلام بحاجة إلى الأموال الطائلة الـــتى تبدد فى أسلحة الدمار الشامل فأولى أن توظف هذه الأموال فـــى رغـــيف الخبز للشعوب الفقيرة بل حتى فى المجتمعات الغنية والثرية فيها الكادحون والمتعطلون فهى تعانى من البطالة.

فلم التشبث بهذه الصراعات، لاشك أن حوار الحضارات، وأن الوقـــوف على الفلسفة الإسلامية التى تعنى الحكمة والغاية والهدف من الأديان ومن مشروع الحضارات.

بـــادئ ذى بـــدء يدعونـــا ديننا إلى الإيمان بجميع الرسل بلا اســـتثناء يقـــول تعـــالى: ﴿ءَامَـــنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءامنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ثـــم يدعونـــا دين الإسلام أيضا وهو دين عالمى رسوله بعث رحمـــة للعالمين والقرآن ذكر للعالمين وقد نزل تبيانا لكل شئ فهو

يدعونا إلى أن يكون الأمن والسلام والاستقرار بين جميع الناس قال تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

ويوصى رسول اللَّه ﷺ المسلمين بغير المسلمين ويقول: «من آذى ذمياً فأنا خصمه ألا من ظلم معاهدا أو انتقص له حقه فأخذ منه شئ بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة».

هذا الدين لا يجعل أتباعه مؤمنين حقا إن لم يؤمنوا بهذه المبادئ وبالكتب والرسل السابقين فلا يكون المسلم كاملاً إلا حين يأمن الناس من لسانه ويده وفى حديث رسول اللَّه ﷺ «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» وفى رواية (من سلم الناس) ليشمل المسلم وغير المسلم. إن دينا هذه مبادؤه وتلك تعاليمه التى تدعو إلى الأمان والتعايش السلمى لا يرفض أبداً الحوار بل يدعو إليه قال تعالى: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] ونحن نقول إننا حين نضع هذه الأسس أمام الغرب وأمام الذين أساءوا فهم الإسلام وأخذوا عنه صورة مشوهة نقول لهم بالعكس

إن الأمـــان ينتشـــر فـــى الغرب وفى كل المجتمعات الأجنبية حين تنتشر مبادئ هذا الدين.

فهؤلاء المسلمون فى الأقليات ليس كما زعموا ليس كما فهموا خطـــأ يمـــثلون شوكا أو مخالفة بل بالعكس هم يمثلون نواة للسلام والأمـــان ولا خـــوف علـــى ســـكان العالم والكرة الأرضية إذا ما انتشرت تعاليم هذا الدين والتى تدعو إلى السلام والأمان.

مـــن أجل ذلك كان على الغرب أن يعى هذا تماما، وأن يعطى المســـلمين الذين يعيشون هناك حق إقامة المؤسسات التعليمية وحق ممارسة شعائرهم بحرية كاملة وحق الوقوف بجانب المظلوم لا كما عانى أهل البوسة والهرسك وغيرهم من الأقليات فلاقوا من العنت والاضـــطهاد ما نعرفه جميعا. ودیننا لا يحجب أولاده واتباعه عن الحكمة بل يدعوهم إلى أخذها من غيرهم وأن يأخذ غيرهم الحكمة عنهم، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها لا يعنيه من أى وعـــاء خرجـــت، وإذا كنا كما يقال نعيش عصر العولمة فديننا أمـــرنا أن نـــأخذ الـــنافع ونطرح الضار لأن الإسلام له شخصيته المتميزة التى لا يمكن أن يذوب فيها المسلم وسط ركام من التيارات المتصـــارعة وإنمـــا يدعو الإسلام أتباعه إذا أساء الناس ألا يتبعوا إســـاءتهم يقول رسول اللَّه ﷺ : «لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن

الناس احسنا وإن ظلموا ظلمنا ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا»[الترمذى].

مـــن أجـــل ذلك يأتى الحوار ولقاء الحضارات ويأتى النقاش للوصـــول إلـــى هذه الغاية التى يتعرف الغرب فيها على هذا الدين وعلى مبادئه وشعائره ودعوته للسلام العالمى والتعايش السلمى مع كل البشر.

ونحـــن كمسلمين وعرب مطالبون بل هى فريضة فرضها اللَّه علينا حيث نزل هذا الدين على أرضنا وبلغتنا فوجب علينا أن نبلغه إلـــى كل من فى الأرض، ولقد ائتمننا الوحى على ذلك حين أنزله بلغتنا وعلى أرضنا وبعث رسولا منا فكان واجبا علينا أن نبلغه إلى كـــل العالم حتى يعرفوا هذا الدين ويومها سيثوب الغير إلى رشدهم ويعـــرفون أن فى الإسلام خلاص البشرية ونجاة البشرية. من أجل ذلـــك فنحن نرحب بكل لقاء فيه هذا البيان والتوضيح لديننا الحنيف ليعيش العالم فى سلام وأمان ويتعايش الجميع تعايشا سلميا.

شكر اللَّه للجميع والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته

كلمة الأستاذ الدكتور ميريل باتمان

رئيس جامعة بريجهام يانج

قال سيادته:

إنـــه فى غاية السعادة أن يكون بين هؤلاء الضيوف الأعزاء وسوف أتكلم عن جامعة بريجهام يانج ولماذا تهتم بموضوع الفلسفة الإسلامية.

هـــذه الجامعـــة تقع فى الولايات المتحدة الأمريكية وهى أكبر جامعة خاصة هناك وفيها ثلاثون ألف طالب من مختلف دول العالم وعددهـــم ١١٠ دولة يتكلمون ٨٥ لغة مختلفة ولكن من حسن الحظ فنحن جميعا نتحدث الإنجليزية بالإضافة إلى أننا ندرس فى الجامعة ٦٥ لغة وأنا أعطى هذه الفكرة عن الجامعة حتى تعرفوا أنها جامعة دولية وبالتالى فهى تهتم بالآخرين.

ومعظم الذين يُدَرِّسُون فى هذه الجامعة وإن كانوا أمريكيين إلا أنهم عاشوا فى مختلف دول العالم.

إحـــدى المراكـــز فى هذه الجامعة المركز الذى يقوم بدراسة الديانـــات المختلفة وهذا المركز يهتم بدراسة الفلسفة القديمة، ومنذ عدة سنوات وجدوا أن المركز ليس عنده دراسات كافية عن الفلسفة الإســـلامية القديمـــة فهـــذا التراث لم يترجم إلى لغة غربية، وهذه

الدراســات توضح غنى الدين الإسلامى والفلاسفة الإسلاميين، وقد بدأ المركز فى ترجمة الدراسات الإسلامية القديمة وبخاصة الفلسفة الإســلامية القديمة. بالإضافة إلى اهتمامنا بالفن والحساب والطب وكل ما تم فى القرون القديمة؛ والسبب فى ذلك هو الرغبة فى بناء الجسور بين الثقافات المختلفة.

فلــو علمــنا فلسفتكم لاستطعنا فهمكم أكثر من ذلك ونعتقد أن الحقــائق لا حــدود لها ولا تحتاج إلى جواز سفر لكى تنتقل، وقد ســعدنا عــندما قمــنا بترجمة هذه الأعمال لأننا فهمنا من خلالها الإسلام والمسلمين كما أنها أصبحت متاحة للغربيين.

وأول كــتاب ظهــر عــن الفلسفة وتجانس الفلسفات (تهافت الفلاسفة) ونحن نهدى هذا الكتاب لكثير من الناس، ويقوم بالترجمة علمــاء مــن الجامعــة كمــا اشترك فيها علماء من آسيا والشرق الأوسط.

ومــنذ عــدة سنوات بدأنا ترجمة الفلسفة الكلاسيكية إلى اللغة العربية وسوف نقوم بنفس العمل بالنسبة للفلسفة الإسلامية، ويوجد الآن ثلاث كتب تم ترجمتها وطباعتها وهناك ثلاث كتب معدة للنشر فــى وقت قريب، وفى الجلسة القادمة سوف يتكلم العلماء عن هذه الأعمال.

ونتمـــنى فى الفترة القادمة أن يكون عندنا أكثر من مائة كتاب فى الفلسفة الإسلامية.

وهذه الكتب سوف تشكل الفلسفة الإسلامية فى الفترة من عام ١١٠٠ إلى عام ١٥٠٠م.

وقـــد كـــان عندنا الفرصة لشرح الهدف من ذلك لمجموعات إســـلامية، فمـــنذ ســـنتين اجتمعنا مع سفراء الدول الإسلامية فى واشنطن وكذلك فى لوس انجلوس اجتمعنا مع رؤساء المسلمين فى الولايات المتحدة.

ومنذ سنة اجتمعنا مع علماء المسلمين فى لندن، ولكن هذه أول مـــرة نجتمع فيها بعلماء المسلمين فى الشرق الأوسط ونحدثهم عما نفعـــل، فنحن اليوم فى القاهرة وبعد يومين فيه لقاء فى عمان وفى نهاية الأسبوع سنلتقى مع السوريين.

فمـــن دواعى سرورى أن أجلس معكم وأشرح ماذا نفعل فى جامعة بريجهام يانج.

ووجودنا هنا اليوم محاولة لنفهم بعضنا أكثر ونوجد حواراً بين حضارتين مختلفتين.

وأتمـــنى أن تزورونا فى وقت قريب وترون الجامعة ومبناها

الرائع الجميل، والمركز سيكون مركزاً هاماً وعالمياً ونحن نحاول أن نجمع فى هذا المركز علماء من كل دول العالم.

وفـــى هـــذه الجامعة أكبر عدد من الطلبة الذين يدرسون من خـــارج الولايات المتحدة الأمريكية ففيها طلبة من الشرق الأوسط وأوروبـــا وآســـيا وأفريقيا كما أن عندنا عدد من الطلبة المصريين يدرســـون فـــى هـــذه الجامعة وهم من العناصر الجيدة جدا ونحن ســـعداء بوجودهـــم معـــنا كما أننا سعداء بوجودنا معا هنا لنتبادل الأفكار حول هذا الأمر.

وشكرا لحضرتكم

كلمة الأستاذ الدكتور صوفى أبو طالب

رئيس مجلس الشعب الأسبق

الإخــوة الأعــزاء – السادة الضيوف – أرحب بحضراتكم وأتمنى أن تتكرر مثل هذه الدعوات فى ظل العولمة حيث يريدون فرض نظم معينة وثقافة معينة على جميع أنحاء العالم إما عن جهل بنظم أنحاء العالم وإما عن عمد.

وبالــتالى فعــن طــريق الحوار يمكننا أن نحافظ على تباين الــثقافات لعلهم أن يهتدوا إلى سواء السبيل ويتركوا لكل أمة ولكل دولــة خصائصــها الــتى تميزها عن غيرها ولا يفرضون عليها خصائص ثقافية أخرى.

ومرة أخرى أرحب بضيوفنا الكرام وشكرا لجميع الحضور.

والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته

البحوث الرئيسية

موقف الفكر الإسلامي من الفلسفة اليونانية

أ.د. محمد شامه

أقرت المجتمعات الإنسانية ـ على اختلاف مذاهبها السياسية والعقدية والاقتصادية ـ حق الملكية الخاصة، رغم ما بينها من تفاوت في تحديد مجال هذه الملكية، إذ يسود في كل بقاع الأرض مبدأ، أن ما للإنسان من متاع وأموال لا يجوز لأحد اغتصابه، فليس لإنسان كائن من كان أن يأخذ ما ليس له، وإن ساعدته الظروف على أن يأخذه عنوة، فإنه يظل في دائرة عدم الشرعية، فلا يقره قانون، ولا يرضى به ضمير الجماعة الواعي، المدرك للحدود الفاصلة بين حقوق الأفراد والجماعات، بل إن التنازع والتطاحن على الملكية والسيطرة يعطي الانطباع بأن هناك أموراً لا يملكها الإنسان، ولا يجوز له ـ على الأقل في رأي أحد الطرفين المتنازعين ـ الاستحواذ عليها، أو الانفراد بمنفعتها دون الآخرين.

يسري هذا المبدأ على كل ما يحيط بالإنسان، وتحرص كل المجتمعات المتحضرة ـ بل والبدائية في غالب الأحيان ـ على تلقينه وتعليمه للأطفال، بل وتذكير الكبار به بين الحين والآخر، غير أن هناك مجالاً واحداً تعارفت البشرية على شيوعه بين شعوبها، فلا يُحرَم منه إنسان، ولا يحول بينه وبين طالبه أحد بل أن صاحبه يحرص على أن يصل إلى كل الناس، بل يزداد سروره كلما رأي الجماعات البشرية تسعي للحصول عليه، ذلكم هو الإنتاج العقلي، وهو ما تسطره أقلام العلماء والفلاسفة، هو العلوم الإنسانية بجميع فروعها، فالعلم ـ كما قالوا ـ لا وطن له، وصاحبه لا يحرص على احتكاره، لأن من طبيعته الانتشار، ومن لوازمه أن يصل إلى

الناس. فهو لا يخرج من منطقة الإبداع في الإنسان ـ سواء كان ذلك في صورة التعليم والتلقين الشفهي، أو مسطوراً بالقلم ـ إلا بقصد توصيله للآخرين، وانتفاعهم به وتصرفهم فيه تصرفاً مطلقاً ، فلا أحد يُحرمُ عليه استعمال نتائجه في جميع مجالات حياته، وما نسمعه اليوم من تحريم نقل التكنولوجيا. وهي من نتاج العلم المشاع بين الناس جميعاً ـ من وطنها إلى الأوطان الأخري فلا يمثل القاعدة التي يجب أن يكون عليها وضع إنتاج العقل البشري، من أنه يجب أن يكون في متناول كل بني الإنسان، لأن هذا الإجراء ـ وهو تحريم انتقالها ـ يمثل حجر عثرة في سبيل تقدم الشعوب. لجأ إليه أناني لا يحب إلا بني جلدته، أو جبار يريد أن يسيطر بامتلاكه لهذه التكنولوجيا على مقادير الشعوب الأخري، ويُحَدد مصائرها، أو مستغل يميل إلى أن يمتلك وحده ما يُدرُّه هذا الجانب من أموال مضحياً في سبيل ذلك بالقضية التي تهم البشرية جمعاء ألا وهي العمل على تقدم كل المجتمعات الإنسانية حتي لا تظل الفجوة بينها عميقة.

ورغم القيود التي وضعها أمثال هؤلاء الناس أمام انتشار الإنتاج العلمي، فإن طبيعة وضعها في حياة الأمم والشعوب سوف تتغلب على هذه القيود؛ لأن الانتشار خاصية من خواص العلوم فلا بد أن تكون الغلبة لها.

كذلك ترفض مجتمعات قبول بعض الاتجاهات الفكرية، فتقيمَ الحواجز بينها وبين انتشارها بين المواطنين، وتتخذ من الإجراءات ما يحول بين الناس وبين معرفة هذه الاتجاهات، إما خوفاً على عقيدتها، أو حفاظاً على سلطان المؤسسات الثقافية والتعليمية في بلدها. لأنها ترى أن هذه الأفكار ستقوض من سلطانها على نفوس الناس، فذلك أيضاً وضع غير طبيعي ـ خاصة في عصرنا الحالي حيث ذابت الحواجز الثقافية والإعلامية

بسبب التقدم الهائل في مجال الاتصالات اللاسلكية سواء كانت مسموعة أو مرئية ـ ينبغي تركه، كي يعود الأمر إلى وضعه الطبيعي ويأخذ انتشار الأفكار بين المجتمعات البشرية طريقه السليم.

فإذا وضعنا هذه المسألة بأبعادها المختلفة أمام الإسلام لم نجد فيه إلا حثاً على طلب العلم وتعليمه، وتحذيراً من كتمان الحكمة والرأي الذي فيه نفع للناس، ففي مجال طلب العلم يقول رسول الله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمه» ويقول: «اطلبوا العلم ولو بالصين» ويقول: «الحكمة ضالة المؤمن فأنى وجدها فهو أحق بها» كما ينفي القرآن الكريم أن يكون هناك مساواة بين من يعلم ومن لا يعلم فيقول: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ (١).

وفي مجال وجوب تعليم الآخرين حذر الله المسلمين من أن يكونوا مثل من كتموا الحق، لأن من يفعل ذلك يصيبه ما أصاب هؤلاء الذين منعوا تعليم غيرهم فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (٢).

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ﴾ (٣).

هذا هو موقف الإسلام من قضية العلم والتعليم، لا يحرم على المسلمين

(١) الزمر : الآية ٩.
(٢) آل عمران : ١٨٧.
(٣) البقرة : ١٥٩.

تَعَلُّم أفكار الآخرين ولو بعدت أوطانهم، ويحذر من احتكار الإنتاج العقلي، لأن مبادءه جاءت مطابقة للطبيعة البشرية ومن خصائص هذه الطبيعة أن يكون العلم كلاً مباحاً لكل الناس.

أثر هذا الاتجاه على المسلمين، فانطلقوا يغرفون من منابع العلم في كل مكان، لا يمنعهم جنسيته أو عقيدته، فأخذوا من الفرس والأغريق وغيرهما من شعوب الأرض على اختلاف نزعاتهم وتعدد أفكارهم، ويعنينا هنا أن نتحدث عن موقف الفكر الإسلامي من الفلسفة اليونانية.

بدأ الاتصال بين العرب والثقافة اليونانية قبل الإسلام، إذ عندما أُغلقت مدارس الفلسفة في أثينا واضطهد الفلاسفة، فر مجموعة منهم صوب الشرق ولعبوا دوراً كبيراً في ازدهار المدارس الفلسفية التي نشأت في الشرق، وخَلَفَت مدارس اليونان في حمل الفلسفة اليونانية، كان العرب قبل الإسلام على اتصال بتلك المدارس، إذ قام السريانيون بنشر الفلسفة اليونانية في العراق وما حوله فاتصل بثقافتهم بعض المهتمين بالثقافة من العرب مثل الحارث بن كلدة، ومن بعده ابنه النضر بن الحارث الذي يَحكي عنه ابن أصيبعة في كتابه «طبقات الأطباء» بأنه أطلع على الفلسفة وأجزاء الحكمة.

كذلك أثبتت الأبحاث الحديثة بصورة قاطعة أن مراكز البحث الفلسفي كانت منتشرة في العالم القديم الذي فتحه المسلمون، وأن هذه المراكز لم يتوقف عملها العلمي بعد الفتح الإسلامي، بل استمر الإتصال بها في ظل الدولة الإسلامية، فهم يحدثوننا أن خالد بن يزيد بن معاوية كان من أعلم قريش بفنون العلوم، وكان له كلام في صنعة الكيمياء والطب وكان بصيراً بهذين العلمين، متقناً لهما، وله رسائل دالة على معرفته وبراعته، وأخذ الصنعة من رجل من الرهبان يقال له مِريانوس، وله فيها ثلاث

رسائل تضمنت إحداها ما جري له من مريانوس، وصورة تعليمه منه، والرموز التي أشار إليها.

ويقول ابن النديم: «أن خالداً عني باخراج كتب القدماء في الصنعة، وكان خطيباً شاعراً فصيحاً حازماً، وهو أول من ترجمت له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء، ولا ننسي أن المدارس الفلسفية في أنطاكية وحران والرها ونصيبين استمرت في تأدية عملها العلمي في ظل الدولة الإسلامية، كما لا ينسي أحد ما بذلته الدول الإسلامية من جهود في مجال ترجمة التراث اليوناني، بل لا ينبغي لأحد أن ينكره أو يتناساه، لأنه عمل عملي لم يحدث مثله في تاريخ البشرية قاطبة».

ومن هذا نرى أن الثقافة اليونانية كانت محل عناية المسلمين في الأقطار المختلفة، أخذوا منها وتعلموها، حتي ممن لم يكن على دينهم، بل إنهم تعلموا منها ما لم يوافق دينهم فيذكر ابن كثير أن علوم الأوائل ـ أي الفلسفة اليونانية وعلم النجوم وغيرها من معارف يونانية لم يوافق عليها العقل الإسلامي ـ نقلت في المائة الأولي ثم يزيد هذا الكلام توضيحاً ما ينقله إلينا الشيرازي في كتابه «الأسفار الأربعة»: أن المتكلمين الأوائل في عهد بني أمية عرفوا الفلسفة اليونانية حين نقلت بعض كتبها إليهم ويقول: إن هؤلاء المتكلمين أخذوا تلك القواعد اليونانية التى عرفوها، وجعلوها أساساً لفلسفتهم.

ويلاحظ الباحثون في كتابات المتكلمين الأوائل من أمثال أبى الهذيل العلاف، وهشام بن الحكم وغيرهما معرفة واسعة بالفلسفة اليونانية وتناولا لمصطلحات فلسفية مما يدل على أن الاتصال بين المسلمين وبين الثقافة اليونانية كان قوياً مؤثراً على الحياة العقلية في المجتمع الإسلامي.

فقد وجدت في ظل الدولة الإسلامية مدارسُ للفكر اليوناني كانت استمراراً لمدارس ما قبل الإسلام، كما نجد في ظل الدولة الإسلامية حَمَلَةً للفلسفة كانوا خلفاء الاغريق ومن أتوا بعد الأغريق من الرومان والمصريين.

أصبحنا نجد بعد انتشار الإسلام دينا هو الإسلام بجوار فلسفة وحدة سياسية واحدة، وأصبحنا نري أيضاً مجالس لتعليم الدين الإسلامي، وللتتلمذ في فهم القرآن والسنة بجوار مجالس أخري للعلم اليوناني والفلسفة اليونانية.

فما هي يا تري أسباب قبول الفكر الإسلامي للفلسفة اليونانية؟

أهو الميل العقلي وحده لدي بعض المسلمين الذين اشتغلوا بالدفاع عن العقيدة، كان السبب في قبول هذا البعض للآراء الإغريقية الإلهية لأنها وليدة العقل الإنساني؟

أم هناك شيء آخر وراء هذا الميل دفعهم إلى قبولها؟

إذ الرغبة العقلية لدى إنسان ما تساعد فحسب على تناوله عملاً عقلياً، وعلى النظر فيه، وعدم طرحه بادىء ذي بدء، ولكنها قد لا تكفي وحدها في تعليل قبوله لهذا العمل العقلي والحرص عليه، أو التأثر به.

فوجود هذه الرغبة سبب مهيىء فقط للقبول. وقبول المسلمين نفسه للآراء الإغريقية حينئذ ليس لأن من قبلها منهم كان ذا ميل عقلي فحسب بل لأسباب أخري أهمها: الدقة التي كان عليها المنطق الأرسطي وغيره من العلوم الرياضية، وأثر هذه الدقة في نفوس المسلمين العرب التي لم تألف قبل ترجمتها إلا أسلوب الإقناع، ولم تتعود إلا سعة الخيال ومرونته، وتموجه في التصوير.

ولكن رغم هذا الاقتناع بهذه الدقة جذبهم إلى الاعتقاد في عصمة العقل الأغريقي في المجالات الأخرى، فدافعوا عنه بكل الطرق، وفي هذا يقول الغزالي: «وقد تولد عنها [أي العلوم الرياضية] أن من نظر فيها يتعجب من دقائقها ومن ظهور براهينها، فيحسن بسبب ذلك اعتقاده في الفلاسفة، ويحسب أن جميع علومهم في الوضوح وثاقة البرهان كهذا العلم».

كانت هذه الدقة أشبه بإغراء العقل الإسلامي على الإقدام على قبوله للناحية الإلهية والإنسانية من الفلسفة الإغريقية دون التفكير والتوضيح ومحاولة التوفيق بينها - وخاصة فيما يتعلق بالإلهيات - وبين العقيدة الإسلامية. وقد اشتهر بهذا العمل الفارابي حتى أطلق عليه «الموفق والشارح»، وكان متأثراً في عمله هذا بمدرسة الإسكندرية، ومن المعروف أنه بعد أن نقلت الفلسفة من أثينا وروما إلى الإسكندرية انصب العمل الفلسفي في الفترة التي عاشت فيها الفلسفة في مدينة الإسكندرية في السبعة قرون الأولى بعد الميلاد على التوفيق والانتخاب، وهو توفيق وانتخاب من مدارس فلسفية إغريقية، وضم المنتخب بعضه إلى بعض في وحدة واحدة مع ملاءمة بينه وبين ديانة شعبية، أو بينه وبين المسيحية.

وعندما نُقل مركزُ الفلسفة من الإسكندرية إلى أنطاكية، ثم إلى بغداد كانت الفلسفة المنقولة عبارة عن مزيج:

١- من عدة مدارس اغريقية، وبالأخص من مدرستي: أفلاطون، وأرسطو.

٢- ومن ديانة أخري شرقية، أو مسيحية.

وإذا قلنا أن طابع الفلسفة المنقولة كان مزيجاً م والأرسطية والرواقية والتصرف الشرقي لم يكن ذلك القوا الواقع تُمَثِّل كلٌ هذه المدارس، وكل الاتجاهات الثقافية ، ودينية، ووثنية.

وعندما وصلت الفلسفة عن طريق المدارس المسيحية إلى المسلمين وصلت إليهم وهي تجمع كل هذه العناص إليهم مغلفة بغلاف آخر. وصلت إليهم وقد علتها مسحة وفيها تأييد «بوحدة الأول» وبساطته، ولهذا سر بها ا وقدروا فيها «عصمة الحكمة».

ومن أجل ذلك أيضاً استبعدوا أن يكون للحكم يتعارض مع الإسلام طالما يقولون «بالوحدة» في العلة الأ الزهد طريقاً لسعادة الإنسان وإن أَعْطى ظاهرُ عباراتهم ما ي في بعض الأحيان.

ولأن المسلمين استبعدوا هذا القصد من الإغريق حاول أفلاطون وأرسطو عندما تبدو بينهما معارضة، كما ه فلسفتهما من جهة، والإسلام من جهة أخري، أن أعد في الجانبين نوعاً من التضارب بينهما: والفارابي واحد مر المسلمين الذين ظنوا "الحكمة" فيما نقل إليهم من الفلسف اعتقدوا: أن عظماء الحكماء من الإغريق يكاد يستحي فيما يقولون وأن حكمتهم يستحيل عليها أيضاً: أن ت علما بأن ما نقل إليهم ينطوي في واقعة على التضارب

١- ومن ديانة أخرى شرقية أيضاً عديدة كما بيّنا ذلك منذ قليل، وهو ليس إلا مغطي ببر

إذا قلنا أن طابع الفارابي الحقيقي هو الفيلسوف المسلم، فإن هذا لا يعني بالتأكيد أن مزيجا من الأفلاطونية

طية والرواقية والتصرف الشرقي لم يكن ذلك القول غريبا فيه. ولحسن ظن الفلاسفة المسلمين - ومنهم الفارابي - بالفل

تمثل كل هذه المدارس وكل الاتجاهات الثقافية ما بين انسانية وثنية. وليقينهم بعدم تضارب الفلسفة مع الإسلام، دخلوا الت

الأخص الفارابي - على أساس "الجمع" بين الآراء الفلس

عندما وصلت الفلسفة اليونانية إلى العالم الإسلامي كانت مختلطة بعض الشيء بالأديان الأخرى. فيما يبدو لنا

سلمين وصلت إليهم وهي تجمع كل هذه العناصر. لكنها وصلت

مغلفة بغلاف آخر. وصلت إليهم وقد عرتها مسحة صوفية شرقية

التوفيق، ولذا سأكتفي بذكر مثال واحد، ألا وهو التدليل ع

تأييد «بوحدة الأول، وبساطته. ولهذا سر بها المسلمون أول الأمر

ففي هذا المجال يستعير الفارابي من الأفلاطونية الحد

فيها «عصمة الحكمة»

يسمي «بالجدول النازل» و«الجدول الصاعد» وفي الحديث ع

من أجل ذلك أيضاً بآية قرآنية أو هو كقوله تعالى ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِ

ر مع الإسلام طالما يتبين لهم أنه الحق ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِ

طريق لسعادة الإنسان وإن أعطى ظاهر عباراتهم ما يفيد هذا التعارض

ونص حديثه:

ل الأحيان.

لك أن تلحظ عالم الخلق فترى فيه آيات الصّنعة،

لأن المسلمين استبعدوا هذا القصد من الإغريق حاولوا أن يوفقوا بين

عنه وتلحظ عالم الوجود المحض، وتعلم أنه لابد من وجود

ن وارسطو عندما تبدو بينهما معارضة. كما حاولوا التوفيق بين

بما من جهة. والإسلام من جهة أخرى. أن أعطى ظاهر النصوص

فإن اعتبرت عالم الخلق فأنت صاعد.

نين نوعاً من التضارب بينهما وإن اعتبرت عالم الوجود فأنت النازلة

ن الذين ظنوا "الحكمة" فيما نقل إليهم من الفلاسفة الإغريقية والذين

تعرف بالنزول: أن ليس هذا ذاك.

. أن عظماء الحكماء من الإغريق يكاد يستحيل عليهم التضارب

وتعرف بالصعود: أن ليس هذا هذا.

ورون وأن حكمتهم يستحيل عليها أيضاً أن تختلف مع الإسلام.

(٢) فصلت: ٥٣.

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

وكأن الفارابي يقول : هناك دليلان على وجود الله :

الدليل الأول: أن ننظر إلى المخلوقات أو إلى ما يسميه هو بعالم الخلق، وهو عالم يأتي بعد عالم الأمر أو عالم الملائكة ، وقبل هذا يكون عالم الربوبية ، أو عالم الوجود الإلهي فتشهد في المخلوقات صنعة تدل على صانع لها وهذا الصانع هو الله تعالى.

وهذا الدليل هو دليل تصاعدي: ينتقل من عالم الخلق إلى الأعلى وهو عالم الوجود الإلهي.

الدليل الثاني:

أن تنظر إلى «الوجود المحض» أي إلى الوجود من حيث هو وجود فنصل من هذه النظرة إلى أن هناك واجب الوجود لذاته وهو الله تعالى، وهو السبب في وجود الممكن، والممكن هو ما بعد الله من عوالم. هو عالم الأمر أو الملائكة ، وعالم الخلق أو المخلوقات وبالأخص الإنسان.

وهذا الدليل على وجود الله دليل تنازلي لأنه من وجود واجب الوجود بذاته : يعرف عالم المخلوقات.. والعقل إذن في هذا الدليل ينتقل من الأعلى وهو واجب الوجود بذاته أو الله.. إلى الأدني وهو وجود واجب الوجود بغيره، أو المخلوقات.

ثم يجعل الآية التي استشهد بها هنا تعطي الطريقين في الجدل وهما:

الصاعد ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ

يشير في تقديره إلى الجدل الصاعد. فأمارات الله في عالم

المخلوقات، وفي النفوس البشرية تعطي الدليل على وجود الله الحق، فهي صنعة، وكل صنعة لا بد لها من صانع، والصانع هو الله تعالي:فهو دليل من الأدني على الأعلى، دليل المخلوقات على الله، وعالم المخلوقات تجلى لوجود الله، فكأنه هو هو.

وقوله:

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ يشير في تقديره أيضاً إلى الجدل النازل، وهو الاستدلال بوجود الله على وجود عالم المخلوقات فالله هو الخالق وأمارة خلقه في وجود هذا العالم، فوجوده شهيد على وجود غيره، وهذا دليل من الأعلى على الأدنى والوجود الأعلى غير الوجود الأدنى: ليس هذا .ذاك، وهذا التركيب الفلسفي للفارابي يتكون من عناصر ثلاثة:

أ) العنصر الأرسطي، وهو عنصر الواجب بذاته، والممكن بذاته، وصلة كل منهما بالآخر.

ب) العنصر الأفلاطوني الحديث وهو عنصر توجيه الاستدلال بكل منهما على الآخر: على أن يكون مرة من الأعلى إلى الأدنى، ومرة أخري على العكس: من الأدنى إلى الأعلى مع تسمية وجه منهما بالجدول النازل، والآخر بالجدول الصاعد.

جـ) العنصر الإسلامي وهو ما جاء في الآية القرآنية.

والتوفيق الذي ينسب هنا هو احتواء الآية بعلة الفلسفي على مضمون العنصرين الأولين وكأن هذين العنصرين يكونان معني الآية القرآنية .وكأن القرآن في اعتباره يترجم عن الفلسفة وعملية التوفيق هي: عملية

«مقدم» و«تال» في قياس منطقي أرسطي.

يجب ألا ينسي الباحثون في هذا المجال أن عمل الفارابي ـ ومن نحا نحوه من الفلاسفة المسلمين ـ لا يمثل إلا جانباً من جوانب الفكر الإسلامي إذ من المعروف أن جمهرة علماء المسلمين لم يوافقوه على هذا المنهج حتي الذين قبلوا الفلسفة اليونانية استثنوا منها الجانب الإلهي، لأنه لا يتفق مع العقيدة الإسلامية. وليس معنى أنهم لم يقبلوا هذا الجانب من الفلسفة اليونانية أنهم حاربوا من يتعلمها، أو تعقبوه في رزقه أو عمله لا.

وما يحدثنا به التاريخ من حرق كتب بعض الفلاسفة واضطهادهم فليس إلا حوادث استثنائية قام بها مجموعة لا تعرف فقه الإسلام في مجال حرية الفكر، لأن حرب الفكر واضطهاده ليس من طبيعة الإسلام فهو الداعي إلى شد الرحال للتعلم ولو بالصين، فالعلم في المجتمع الإسلامي كلأ مباح للجميع، لا يمنع عنه أحد، ولا تقيد حريته في البحث، لكن هذا لا يمنع أن تقوم مجالات فكرية حول ما يتنافي مع المبادئ الإسلامية وذلك أمر لا يتنافي مع طبيعة الفكر البشري، فإنه يتصارع ويتناطح في حدود مجال الجدل الفكري، وهذا هو ما حدث في المجتمع الإسلامي بالنسبة لمن رفضوا بعض جوانب الفلسفة اليونانية وأشهر مثل على هذا ما قام به حجة الإسلام الإمام الغزالي فقد صنف الفلاسفة إلى دهريين وطبيعيين وإلهيين، ثم قال:

الصنف الأول: الدهريون وهم طائفة من الأقدمين: جحدوا الصانع المدبر. العالم القادر، وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه وبلا صانع، ولم يزل الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان كذلك كان وكذلك يكون أبدا وهؤلاء هم الزنادقة.

والصنف الثاني: الطبيعيون وهم قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات، وأكثروا الخوض في علم تشرح أعضاء الحيوانات.

ثم بعد أن يبين دقائق بحثهم يحكم عليهم بالزندقة أيضاً معللاً ذلك بأن أصل الإيمان هو: الإيمان بالله واليوم الآخر.

وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر وإن آمنوا بالله وصفاته، ثم يذكر أن الصنف الثالث وهم الإلهيون ردوا على الصنفين الأولين من الدهريين والطبيعيين وأوردوا في الكشف عن أخطائهم ما أغنوا به غيرهم عن القيام بهذا العمل، إلا أنه يقول أنهم ـ الإلهيين ـ استبقوا أيضاً من رذائل كفرهم وبدعهم بقايا لم يوفقوا للتخلص منها فوجب تكفيرهم وتكفير شيعتهم من المتفلسفة الإسلاميين كابن سينا والفارابي وأمثالهما.

وعلى الرغم من أن الغزالى رمي الفلاسفة كلهم بالكفر والزندقة ـ سواء كان ذلك بسبب انحراف مذهبهم كله، أو بسبب انحراف بعض آرائهم في نظره ـ إلا أنه حين تعرض لفروع الفلسفة من: رياضة ومنطقية، وطبيعية، وإلهية وسياسية، وخلقية، فإنه قبل جميع فروعها جملة ـ وإن هاجم بعض الاتجاهات في كل فرع ـ إلا فرع الإلهيات، فقد ذكر أن فيه أكثر أغاليط الفلاسفة، وأرجع أخطاءهم في هذا الفرع إلى عشرين، كفرهم في ثلاثة فقط وهى قولهم:

١ـ أن الأجساد لا تحشر وإنما المثاب والمعاقب هي الأرواح المجردة والعقوبات روحانية لا جسمانية.

٢ـ وقولهم أن الله تعالي يعلم الكليات دون الجزئيات.

٣- وقولهم بقدم العالم وأزليته.

معللاً ذلك بأن أحداً من المسلمين لم يذهب إلى شيء من هذه المسائل الثلاث.

هذه الحَمْلة التي قادها الغزالي ضد الفلسفة والفلاسفة، أن دلت على شيء فإنما تدل على أن الأمر لم يتعد مجال الجدل الفكري بدليل أن الفلسفة بقيت في المجتمع الإسلامي، وظلت تدرس في جامعاته ومدارسه بعد الغزالي، ولم تزل تدرس حتي اليوم، مما يعطي انطباعاً بأن المسلمين لم يقفوا من الفكر الأجنبي موقف الرافض المعارض لتعلمه، المحارب له بأساليب خارجة عن نطاق المعارضة الفكرية، وهذه هي روح الإسلام:

حرية في الفكر، تعلما ونقاشا وتحليلاً، ومحاورة ومعارضة الحجة بالحجة، فما يحمل من الأفكار خاصية الثبوت والدوام بقي في المجتمع ورسخ فيه، وما كان مهلهل الصورة، ضعيف البنيان، ذهب واندثر، وتلك سنة الله في خلقه فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض.

مراجع البحث

١- الغزالى: المنقذ من الضلال، تحقيق الدكتور/ عبد الحليم محمود.

٢- محمد البهى: الجانب الإلهى من التفكير الإسلامي

٣- يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية

٤- ألبير ريفو: الفلسفة اليونانية، أصولها وتاريخها، ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود وأبو بكر زكرى

٥- أحمد أمين، زكى نجيب محمود: قصة الفلسفة اليونانية.

٦- أحمد أمين، فجر الإسلام.

٧- على سامى النشار: نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام.

السيرة الفلسفية قاسم مشترك بين الحضارة اليونانية والحضارة الإسلامية

« نموذج من أبى بكر الرازى »

أ.د. عبد اللطيف محمد العبد(*)

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، وبعد

فإن السيرة الفلسفية لأى فيلسوف، تعتبر صورة من سلوكه ومنهجه، فى إطار المبادئ والقيم، التى آمن بها وطبقها فى حياته.

وقد اهتم العديد من فلاسفة الإسلام، بالحديث عن سيرهم الفلسفية، التى انتهجوها وطبقوها فى صورتها المثالية.

ولم يكن فلاسفة الإسلام الذين فعلوا ذلك، بدعاً بين الفلاسفة، بل إنهم حَذَوْا فى هذا حذو حكماء وفلاسفة اليونان، من أمثال أفلاطون فى جمهوريته. هذا بالإضافة إلى قوة شخصيتهم وعمق ثقافتهم التى استمدوها من تعاليم الإسلام.

ولن نستطيع فى هذه العجالة، أن نستعرض كل ما جاء عن السيرة الفلسفية لدى فلاسفة اليونان والإسلام، لكننا سنكتفى بنموذج واحد بارز لدى أبى بكر محمد بن زكريا الرازى (المتوفى عام ٣١٣هـ) فى سيرته

(*) أستاذ الفلسفة الإسلامية – وكيل الدراسات العليا والبحوث – كلية دار العلوم، جامعة القاهرة.

الفلسفية التى نشرها بول كراوس عام ١٩٣٨م.

فقد أكب أبو بكر الرازى على الفلسفة اليونانية وغيرها فى سنّ مبكرة. وكان منذ حداثته ميالاً إلى المعرفة العقلية ومشغولاً بها. وساعده على هذا ذكاء وفطنة؛ ولذا بَرَعَ فيه براعة السابقين، لكن مع تميّز واستقلال فى الشخصية[1].

وقد رأى الرازى، أن الفلسفة طريق موّصل إلى الحق، وأنها السبيل الوحيد لإصلاح الفرد والمجتمع؛ بما تنير به العقول والنفوس.

ولم يكن أبو بكر الرازى صاحب فلسفة انعزالية مهوّمة بعيدة عن الواقع؛ بل إن فلسفته كانت تتصل بالواقع الإنسانى، وتلتحَم به، وتصلح من شأنه. فى عمق واتزان.

وعنده أن سيرة الفلاسفة الأفاضل الأخيار؛ الذين كان رائدهم الحقُّ والخير – إنما هى من خَيْر السير؛ ولذا كان الاقتداء بهم واجباً؛ حيث التزموا العدل فى معاملة الناس، وتمسكوا بالفضائل والمُثُل، واستشعروا النصح والعفّة والرحمة؛ وكثيراً ما اجتهدوا فى نفع البشرية، وفى هذا يقول أبو بكر الرازى:

« **إن السيرة التى بها سار، وعليها مضى أفاضل الفلاسفة، هى بالقول المجمل: معاملة الناس بالعدل، والأخذ عليهم من بعد ذلك بالفضل، واستشعار العفّة والرحمة، والنصح للكل، والاجتهاد فى نفع**

(١) د. عبد اللطيف محمد العبد: أصول الفكر الفلسفى عند أبى بكر الرازى. ص ١٩ – ٣٠ ط ١٩٧٧م مكتبة الأنجلو المصرية.

الكل[1]».

فالرازى يجلّ فلاسفة اليونان غاية الإجلال، ويحترمهم كما يحترم نفسه، فكل قول لهم ينال لديه اهتماماً وتقديراً. وهذا لا يمنع من معارضته أحياناً لبعض آرائهم.

وهو يوافق فلاسفة اليونان على تعريفهم للفلسفة بأنها:

«**التشبه باللَّه عزوجل، بقدر ما فى طاقة الإنسان**[2]».

ومعناه أن يتحلى الفليسوف بجميع الأخلاق السامية، وأن يترفع عن الدنايا والنقائص، بقدر ما يستطيع.

ومن ثَمَّ فإن الرازى يوافق أيضاً، على تعريفهم للحكيم أو الفيلسوف الحق بأنه هو:

«**من عرف شروط البرهان وقوانينه، واستدرك، وبلغ من العلم الرياضىّ والطبيعى والعلم الإلهى، مقدار ما فى وُسْع الإنسان بلوغُه**[3]».

ويعرف الرازى كبار فلاسفة اليونان جيداً، بل إنه ليذكر أسماء ثمانية منهم فى موضع واحد، ومنهم سقراط وأفلاطون وأرسطو، ناعياً على من يريد الوصول إلى مرتبتهم دفعة واحدة فى فترة وجيزة، وذهب إلى أن

---

(١) أبو بكر الرازى: الطب الروحانى. ص ٩١ (ضمن رسائل فلسفية للرازى) تحقيق/ بول كراوس. مصر ١٩٣٩م.

(٢) أبو بكر الرازى: السيرة الفلسفية ص ١٠٨ (ضمن رسائل فلسفية للرازى) تحقيق/ بول كراوس. مصر ١٩٣٩م.

(٣) الرازى: الطب الروحانى. ص ٤٣.

التثقف بفلسفة هؤلاء شرط أوّلى لتكوين الفيلسوف[1].

ومن أجل حرص الرازى على أن يلقب بالفيلسوف، فقد حاول التجافى عن ألم سوء السيرة؛ ولذا دافع عن سيرته الشخصية، وبّرأ نفسه مما رماه به قوم من أهل النظر والتحصيل والتمييز، من آراء إتلافية لم يصلوا إليها ببرها أو مناقشة حُرّة. وقد أخذ هو على عاتقه مهمة تفنيد ادعاءاتهم فى ذلك، كاشفاً عن جهالتهم وعدم اطلاعهم.

وإن هؤلاء قد رأوا الرازى يداخل الناس، ويتصرف فى وجوه المعاش، فعابوه واستنقصوه، وزعموا حيدته عن مسيرة الفلاسفة، وبخاصة سيرة سقراط (٤٦٩-٣٩٩ ق.م) إمام الفلاسفة. وفى هذا يقول الرازى:

«إن ناساً من أهل النظر والتحصيل، لما رأونا نداخل الناس، ونتصرف فى وجوه من المعاش؛ عابونا واستنقصونا، وزعموا أنا حائدون عن مسيرة الفلاسفة، ولا سيما عن مسيرة إمامنا سقراط[2]».

لقد كان الرازى يمجد سقراط وبينهما حوالى ١٣٢٤ عاماً، ويمجد تلميذه أفلاطون. ومن هنا كان التعرف على السيرة الفلسفية لسقراط، إنما هو تعرّف غالباً على السيرة الفلسفية لأفلاطون؛ نظراً لصعوبة الفصل بين السيرتين فيما ورد إلينا من محاورات[3].

---

(١) الطب الروحانى (السابق) ص ٦٣

(٢) السيرة الفلسفية (السابق) ص٩٩.

(٣) جورج سارتون: تاريخ العلم ٢ : ٧٠ ترجمة مجموعة. ط ١٩٥٧م، دار [illegible] بالقاهرة.

ويتضح مما سبق: أن الرازى كان شديد الحرص على شرف سيرته الفلسفية ونقائها قولاً وعملاً؛ مبيّنا أنه لم يحد عن سيرة أستاذه سقراط وسماته فى هذا المجال[1].

ولم يكن الرازى فى اتباعه لسيرة سقراط ودفاعه عنه، بدعاً فى ذلك المضمار، فقد فعل مثله أولُ المشائين الإسلاميين وهو الفيلسوف **الكندى**[2]، وكذلك **الفارابى**[3]، وابن سينا، وإخوان الصفاء[4].

- وحديثاً عقد روسو موازنة بين سقراط والمسيح عليه السلام كما وصفه الشاعر شيلى بأنه مسيح اليونان.

وقد استعرض الرازى شيئاً مما رماه العُيّاب فى سيرة سقراط، من أنه كان يعزف عن حضور مجلس الملوك، ويعزف عن لذيذ الطعام والشراب، وعن فاخر الثياب والبناء، وأنه كان يسدّ رمقه ببعض الحشائش، ويستر جسده بكساء خَلَق، ويأوى إلى البّرية.

وذهب الرازى إلى أن ما عابوه من سيرة هذا الفيلسوف العظيم، إنما

---

(١) د. أحمد عرفات القاضى: صورة الفيلسوف بين أفلاطون وفلاسفة الإسلام. طبع ٢٠٠٠م القاهرة.

(٢) دى بور: تاريخ الفلسفة فى الإسلام. ص ١٧٧ ترجمة: د. محمد عبد الهادى أبو ريدة. مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة.

(٣) الفارابى: آراء أهل المدينة الفاضلة. ص ٨٧ – ٨٨. ط ١٩٠٦م، مطبعة السعادة بالقاهرة.

(٤) د. حامد طاهر: الفلسفة الإسلامية مدخل وقضايا. ص ٢٢ ط ١٩٩١م. دار الثقافة العربية.

كان فى بدء حياته، ثم اندمج فى الحياة الاجتماعية مثل غيره. فقد توفى سقراط تاركاً بنات، وحارب، وتمتع بالطعام والشراب:

«**ومن فعل ذلك فقد خرج عن أن يكون ساعياً فى خراب الدنيا وبوار الناس**[1]».

ويذكر الرازى أن سقراط فعل ما فعل من الزهد والتقشف فى بداية حياته، لشدة إعجابه بالفلسفة وحبّه لها.

كما يؤكد الرازى أنه لم يخالف الأحمد من سيرة ذلك المعلم العظيم؛ الذى بلغ درجة المثالية فى رأيه. لكنه يعترف بأنه لم يبلغ شأوه فى محبة المعرفة وقمع الهوى.

هذا وإن قوام السيرة الفاضلة للفيلسوف فى رأى الرازى، يتمثل فى لزوم العدل والعفّة والإقلال من مماحكة الناس ومجاذبتهم؛ متى يسْلم الإنسان من أذاهم، وينال محبتهم[2].

ويتضح مما سبق: أن التفكير الفلسفى فى الإسلام، كان له نوع من التأثر بالفلسفة اليونانية، وهذا أمرٌ معروف فى مختلف الحضارات. لكن مع مراعاة أن التأثير الذى نفذ إلى الثقافة الإسلامية، تفاعل معها، وولّد أفكاراً جديدة[3].

---

(١) السيرة الفلسفية ص١٠١.

(٢) الطب الروحانى. ص ٩٢.

(٣) د. إبراهيم مدكور: فى الفلسفة الإسلامية، منهج وتطبيقه ١ : ٢٢، ط٢، ١٩٧٦م، دار المعارف، مصر.

وبالنسبة لأبي بكر الرازى – كمثال واحد – فإنه اقتدى فى السيرة الفلسفية بسقراط، وفعل فعله وسلك سلوكه. ولم يتناف ذلك مع قيمته كمفكر وكمسلم احتفظ بعقيدته الإسلامية، ولم يخرج على تعاليم الإسلام الرشيدة.

جدلية التأثر والتأثير بين الفلسفتين اليونانية والإسلامية

أ.د. السيد محمد الشاهد

يتمحور هذا البحث حول أربع نقاط رئيسية أرتبها على النحو التالى:

أ: ملحوظات عامة حول جدلية التأثر والتأثير الحضاريين.

ب: كيف كانت الفلسفة اليونانية حال انتقالها إلى محيط الفكر الإسلامي؟

ج: أهم ما تميزت به الفلسفة الإسلامية عن سابقاتها (من أين بدأت وبأية مشكلات إنشغلت).

د: حول أصالة الفكر الفلسفي الإسلامي نشأةً ومنهجاً.

أ: ملحوظات عامة حول جدلية التأثر والتأثير الحضاريين

بداية أزعم **أولاً**: أنه لا توجد حضارة بدأت من الصفر بحيث يمكن أن تُعتبرَ البدايةً الأولى والأمَّ للحضارات التى تلتها فى الظهور، كما يدعى بعض مؤرخى الفكر الإنساني، حيث أُعتبرت الفلسفةُ اليونانيةُ نقطة انطلاق الفكر الإنساني، وأُمّاً لكل ما تلاها من حضارات وفلسفات، ثم اضطر هؤلاء المؤرخون أو من لحقهم إلى الاعتراف بأسبقية وفضل الحضارة المصرية القديمة على ما تلاها من حضارات وأوّلِها الحضارةِ اليونانيةِ. وأزعم كذلك أن الحضارة المصرية القديمة لم تنطلق من فراغ بل كانت إفرازاً لتفاعلات فكرية وعقدية سبقتها وَشكّلت محاورها الرئيسية، رغم أننا قد لا نستطيع الآن تحديد تلك المصادرِ التى يمكن أن تكون إنسانيةً أو عقديةً أو هما معاً.

ثانياً: أن الفكرَ الإنسانى المرتبطَ بالحياةِ لم ينفكْ يوماً ما عن معتقدات دينية ترتبط بعالمٍ عُلوى يَتعالى عن الإدراك الحسِّى دائماً والعقلى أحياناً، تَلمَّسَ فيه الإنسان أسبابَ وجوده، ورأى فيه غايةَ كدِّه وعنائِه. وأُرتِّب على ذلك قولى بأنه لم يوجد قط فى تاريخ الفكر الإنساني خطابٌ فكرىٌ خالص، بل كان الخطابُ الفكرىُ مرتبطاً بعقائد غيبيةٍ كان مصدرُها مجهولاً فى بعض الأحيان ومعلوماً فى أحيان أخرى. وسوف يظل الارتباط بين شقى الخطاب الفكرى الفلسفى قائماً إلى أن يرث اللّهُ الأرضَ ومن عليها.

ثالثاً: أن التاريخَ الفكرىَ والعقدىَ للبشرية خضعَ ولا يزالُ يخضعُ وسوف يظلُ خاضعاً لتأثير التأويلات المتعسِّفة من بعض مؤرخي الفكر والحضارات الإنسانية، ولا أستثنى من ذلك أيةَ دائرةٍ حضارية.

رابعاً: أن التأثرَّ دليلُ حيويةِ المتأثِّر، والتأثيرُ دليلُ قوةِ المؤثِّر. فكل فكرٍ حيٍ تأثَّر بما سبقَه ويمكنه أن يؤثرَ فيما يلحقُه إذا توفرت فيه عناصرُ القوةِ، وفى المتأثرِ شروطُ التأثُّرِ مثلُ: الانفتاحِ والتمكنِ من لغة المؤثِّر.

خامساً: أن جدلية التأثر والتأثير بين الحضارات لا تسيرُ فى خطٍ مستقيمٍ بل تأخذُ الشكلَ الدائرىَّ حيثُ يصبحُ الكلُّ متأثراً ثم مؤثِّراً فيما يُشبه تصورَ أرسطوطاليس للحركةِ التى تسيرُ فى شكل دائرى تبدأ بالمحرِّك الأوّل وتنتهى إليه مدفوعة بما أسماه العشق أى عشق الحركات لمحركها الأول، وهى فى سعيها إلى معشوقها تتحرك بسابقتها وتحرك لاحقتها. فالحضارات تبعاً لهذا التصور ذات طبيعة تكاملية، لا تصادمية، ترتبط كل منها بغيرها مرة متأثرة وأخرى مؤثرة، كما يترتب على هذا التصور رفض

نظريات «صدام الحضارات» و«نهاية التاريخ» وكذلك ما أميه «نرجسية التأيخ الحضارى».

سادساً وأخيراً: أن العلاقة بين الفلسفة اليونانية والفلسفة الإسلامية لا تخرج عن هذا التصور لجدلية التأثر والتأثير الحضاريين.

ب: كيف كانت الفلسفة اليونانية حال انتقالها إلى محيط الفكر الإسلامي؟

ملحوظات أولية:

أود الإشارة هنا إلى حقيقة لم تحظ بما تستحق من الإيضاح فى الأبحاث التى أرِّخت لتلك الفترة، وتناولت طبيعة الثقافات التى أثَّرت فى الفكر الإسلامي من حيث النشأة والمنهج والمضمون. ألخص ملحوظاتى فى هذا السياق فى ثلاث نقاط على النحو التالى:

أولاً: إن الفلسفة اليونانية لم تكن عقلانية خالصة، ولم تخلُ من الأساطير والاعتقاد فى قوى غيبية كما كانت الحال مثلاً فى المدرسة الفيثاغورية الأولى، وخاصة شخصية مؤسِّسها فيثاغورس التى أحيطت بكثير من الأساطير، وكذلك مذهبهم فى الأعداد وقواها السحرية .. إلخ[1].

ثانياً: إن الفلسفة اليونانية كانت قد انحدرت إلى مستوى سيئ جداً قبل وصولها إلى بلاد الشرق وذلك بسبب ظهور تيارات الشك التى اشتد

(١) انظر تاريخ الفكر الفلسفى -محمد على أبو ريان- دار المعارف- القاهرة- ١٩٦٨- ص٥٥

تأثيرها قبيل ظهور المسيح عليه السلام، ممثلاً فى الشكاك المتأخرين وأولهم إينيسد يموس، (Aenesidemos) (حوالى سنة ٧٠ قبل الميلاد)[١] وظل أثرهم حتى ظهور القديس أوغسطين (ت ٤٣٠م). وقد ساعد فى تشويه الثقافة اليونانية ظهور كتب نسبت إلى فلاسفة مشهورين مثل أرسطوطاليس الذى نسب إليه كتاب «الربوبية». الذى اعتمد عليه الفاربى فى كتابه «التوفيق بين رأيى الحكيمين» وهو عند المحققين بعض تاسوعات أفلوطين (ت ٢٧٠م) أو لأحد تلاميذه. كما توجد أكثر من ألف رسالة أو كتيب منسوبة إلى شخص يدعى «هرمس» لا تُعرف شخصيته أو عما إذا كان هناك فيلسوف بهذا الاسم على الإطلاق[٢].

نلاحظ أن تيارات الشك ظهرت فى كل مراحلها الأولى والوسطى والمتأخرة كرد فعل على الإفراط فى اعتماد العقل وسيلةً وحيدةً للوصول إلى الحقيقة. وهذا الشك يعتمد فى حججه على العقل أيضا ويبين أن العقل يناقض نفسه ويعجز عن الوصول إلى الحقيقة إذا اعتمد فقط على نفسه، وكانت نتيجة ذلك الاتجاه هى ترك العقل والاعتماد على الإيمان بقوى غيبية تتحكم فى مصائر البشر، كما كانت الحال فى كثير من الديانات الشرقية التى لم تتأسس على

(١) انظر تاريخ الفلسفة المختصر -هـ.ى. شتوريج- فرانكفورت-١٩٧٦-ج١ص ٢٠٠ (باللغة الألمانية). H.J. :St.rig Weltgesch. der Philos.

(٢) انظر خريف الفكر اليونانى -عبد الرحمن بدوى- دار النهضة المصرية- القاهرة- ١٩٥٩- ص٨٣-٨٥

مجرد فقدان الثقة فى العقل بل لأنها نبتت فى البيئة الشرقية التى كانت طبيعتها تتلاءم مع هذا النوع من التفكير[1].

وعندما اختلطت هذه الفلسفات المختلفة ولم تكن إحداها قادرة على تفسير كل المشكلات الطبيعية والفكرية التى واجهت البشر آنذاك ظهر الاتجاه إلى الاعتماد على كل من العقل والروح، أى التعقل إلى جانب الإيمان، وربما يقدم أحدهما على الآخر، فكان البعض يرى أن الإيمان يوصل إلى التعقل مثل القديس أنسلم الذى قال: «أومن لكطى أفهم» «Credo ut intelligām» والآخر يرى أن التعقل هو طريق الإيمان مثل معظم المعتزلة والفلاسفة.

ومنهم من جعل تعارض الحقائق الإيمانية مع العقل سبباً فى التمسك بالحقائق الإيمانية، مثل مارتن لوثر (١٥٤٦م) الذى قال: «أومن به لأنه يستحيل هلى العقل» «Credo quia absurdum».

أما الفلسفات التى أتت بعد ذلك فقد حاولت اتخاذ طريق وسط يجمع بين العقل والإيمان كما كان ذلك واضحاً فى ما ذهب إليه «فيلون» الفيلسوف اليهودى الذى عاصر ظهور المسيح عليه السلام، وكذلك القديس أوغسطين الذى سبق ذكره قبل قليل، وهما أهم مفكرى رجال الدين فيما قبل الإسلام.

ثالثاً: إن ما وجده المسلمون من ثقافات فى البلاد المفتوحة لم يكن له نصيب كبير من الأصالة، لأن تلك الثقافات كانت قد امتزجت

(١) انظر معالم الفكر الفلسفى -عبده فراج- الأنجلو المصرية- القاهرة- ١٩٦٩ - ص١٤

بالثقافة الإغريقية، أما ما وجدوه من الثقافة الإغريقية فى الإسكندرية مثلاً، فلم يكن بعيداً عن التأثر بالثقافات الشرقية، وكان هذا المزيج من الثقافات الشرقية والثقافات الإغريقية يسمى بالثقافة الهيلينية أو الهيلينيستية وهى تسمية خاطئة، لأن ذلك يعنى أنها إغريقية وهى لم تكن كذلك كما سبق ذكره، بينما هذه التسمية اشتقت من كلمة (Hellen) ومعناها باللغة اليونانية «اليونان» كصفة لشيء ما.

ولم تقف أمام تأثير الثقافة الإغريقية على الثقافات الشرقية محاولة الشرقيين أخذ ما يتفق مع ثقافتهم فقط ونبذ الباقى. فقد تركت الثقافة الإغريقية بعض معالمها فى الثقافات الشرقية، وأثرت فيها تأثيراً شديداً وأكسبتها لوناً جديداً ظهر عند مفكرى تلك الثقافات قبل ظهور المسيحية وما بعدها إلى أن جاء الإسلام.

والخلاصة أن الإيمان الذى يؤيده العقل وكذلك العقل الذى يؤيده الإيمان كانا نتيجة مرحلية لتطور الفكر الإنساني فى مرحلة ما قبل الإسلام.

كما أنه لم يكن للفلسفة اليونانية تأثير كلىٌ مباشر على الفكر الإسلامي بل كان لها تأثير فردي غير مباشر تمثل فى فكر بعض الفلاسفة مثل أفلاطون ونظريته فى المثل، وأرسطو طاليس فى المنق والميتافيزيقا، وأبيقور فيما يسمى بنظرية الجوهر الفرد أى الجزء الذى لا يتجزأ وكذلك ما عرف بنظرية الكون والظهور خاصة عند النظام المعتزلي.

إن اعتراف العقل الإنساني بمحدودية قدرته يؤكد حاجته إلى ما هو أقدر منه على الوصول إلى الحقيقة ولا شيء يفوق العقل البشرى قدرة سوى الالهي . فكما يثبت العقل ضرورة الوحى الإلهى يثبت أيضاً ضرورة

الاعتراف بصدقه وبضرورة الإيمان به وإن لم يستطع العقل أحياناً أن يجد تفسيراً لبعض ما جاء به الوحى الإلهي.

جـ- ما تميزت به الفلسفة الإسلامية عن سابقاتها

لم تعد بنا حاجة إلى تفصيل الحديث عن أصل كلمة فلسفة وتعريفها، فمن الواضح أن هذه الكلمة غير عربية رغم أنها أصبحت متداولة وكأنها عربية، حتى أن البعض يعربها ويستخرج منها صيغاً نحوية فيقال «التفلسف» والفعل «يتفلسف» أو تفلسف وغير ذلك من الاشتقاقات اللغوية المعروفة فى اللغة العربية. ومن نافلة القول بأن كلمة الفلسفة فى لغتها الأصلية اليونانية مكونة من مقطعين فيلو Philo ، صوفيا Sophia بمعنى محبة الحكمة أما الكلمة العربية المقابلة لها فهى «الفكر» فيكون المقابل العربى لكلمة الفلسفة الإسلامية الفكر الإسلامى وهذا هو الأصح.

ولابد من ملاحظة اختلاف الموضوعات التى تبحث فيها الفلسفة الإسلامية «الفكر الإسلامي» عن مقابلاتها فى الفلسفة اليونانية من حيث المنهج والمضمون.

الفلسفة الإسلامية لم تطرح أصلاً السؤال عن وجود الله ، أو عن معنى الحياة أو عن من أين وإلى أين؟ رغم أن هذه هى الأسئلة التى شغلت بها الفلسفة اليونانية. بل تنطلق الفلسفة الإسلامية من يقين بوجود الله، وكذلك يقين بأن الوحى الإلهى هو مصدر القرآن الكريم.

أما ما نجده فى كتب الفلسفة الإسلامية من براهين لإثبات وجود الله فلا يقصد بها سوى إقناع منكرى الألوهية بضرورة وجود الخالق جل وعلا، وهى عند الفلاسفة والمفكرين المسلمين ضرورة منطقية. ثم انطلق الفكر

الإسلامي بعد ذلك إلى معرفة صفات الله أو بمعنى أدق إثبات صفات الله التى نزلت في القرآن الكريم من قدرة وعلم وحكمة وإرادة وحياة ووجود إلى آخره إعتماداً على ما فى الكون من حكمة تثبتها السنن الكونية، وكل مكونات الكون. وقد مهد اهتمام المسلمين بذلك لتطويرهم للعلوم الطبيعية وتوصلهم إلى اكتشافات ونظريات علمية شيّدت للإنسان أعظم حضارة عرفها التاريخ حتى الآن.

ويضرب المفكر الألمانى المسلم «مراد هوفمان» فى بحث له بعنوان: «حول دور الفلسفة الإسلامية» مثالاً لاختلاف آراء المفكرين المسلمين حول إحدى المسائل الفلسفية، ثم ينطلق من بيان اختلاف المواقف إلى التعرف على اختلاف الاتجاهات الفكرية حيث قسمها إلى أربعة اتجاهات، وبنى هذا الاختلاف على أساس قولهم فى بعض صفات الله التى توحى بالتشبيه فيقول: «لو أننا افترضنا أن بعض المسلمين سُئل عن تفسير معنى قوله تعالى {فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا}(فاطر، ٤٥)، سوف ترى أن كل واحد منهم يتخذ موقفاً مخالفاً للآخر تجاه فهم هذه الآية الكريمة، أحدهم سوف ينكر ضرورة وإمكانية تفسير هذه الآيات ويكتفى بقراءتها وتصديقها كما أنزلت، ويكون صاحب هذا الموقف ممن ينتمون إلى مذهب الإمام «أحمد بن حنبل» على منهج الشيخ محمد بن عبد الوهاب. أما الثانى: فرغم أنه لا ينكر أهمية تفسير هذه الآيات إلا أنه سوف يذهب إلى إستحالة الوصول إلى تفسير قاطع لها، ولعل هذا الثانى يكون ممن ينتمون إلى الأشعرية. أما الثالث والرابع: فسوف يذهبان إلى ضرورة وإمكانية تفسير هذه الآيات الكريمة، إلا أن الثالث سوف يتبع فى ذلك المنهج العقلى، ويكون من

المعتزلة. أما الرابع فسوف يتبع المنهج الحدْسى ويكون من أتباع المنهج الصوفى للإمام أبى حامد الغزالى»[1].

بذلك يكون مراد هوفمان قد قسم الفلسفة الإسلامية إلى أربعة اتجاهات: اتجاه سنى محافظ، واتجاه أشعرى يقدم النقل على العقل، واتجاه معتزلى يقدم العقل على النقل، واتجاه صوفى يقدم الحدس الروحى على ما سواه فى فهم نصوص الوحى.

د - حول أصالة الفكر الإسلامي نشأةً ومنهجاً:

في بداية الحديث عن هذه المرحلة أحب أن أطرح سؤالاً على المهتمين بدراسة تاريخ الفكر الإسلامي.

هل كان السبب الوحيد في إقبال المسلمين على دراسة الثقافات الأخرى هو فقط رغبتهم فى الدفاع عن الإسلام ضد هجمات ثقافية جاءت من تلك الثقافات؟ وبعبارة أخرى، إذا افترضنا أن دخول الإسلام على ثقافات أخرى لم ينتج عنه مصادمات أو مواجهات من جانب الثقافات المقهورة، فهل كان يعنى ذلك أن المسلمين ما كانوا ليُقْبلوا على تلك الثقافات؟

إن الرأى الذى يذهب إليه معظم مؤرخى الفكر الإسلامى سواء من المسلمين أو من غيرهم هو أن المسلمين اضطروا إلى ذلك لغرض الدفاع عن الإسلام ضد الديانات الأخرى التى سادت البلاد المفتوحة والتى كانت قد

---

(١) صدر هذا الكتاب عن المكتبة الإسلامية -مدينة كولونيا- ألمانيا الغربية- ١٩٨٤- ص٩ (باللغة الألمانية) M.Hofmann: Zur Rolle der islamischen Philosophie

سبقت الإسلام إلى تعلم المنطق الإغريقى. وأن هذا الاحتكاك بالثقافات غير الإسلامية ولد فى المسلمين الجدل الذى أدى إلى نشأة الفرق الإسلامية من متكلمين وفلاسفة ومتصوفة. ويخرج القارئ بانطباع مؤدَّاه أنه ما كانت تلك الفلسفة لتظهر فى الإسلام لولا هذا الاحتكاك الثقافى بالثقافات غير الإسلامية مثل الإغريقية. والفارسية والهندية إلى جانب الديانات الأخرى. وأهمها المسيحية واليهودية.

رأيان متناقضان: (مؤيِّد ومخالف)

يقول عبده فراج: «ولم يكن المسلمون قبل احتكاكهم بأهل الأديان الأخرى. وقبل شيوع الثقافات الهندية والسريانية واليونانية يجدون أدنى صعوبة فى الاعتقاد بظاهر معنى الآيات (يقصد الآيات القرآنية التى تدل على اختيار العبد لأفعاله. وكذلك التى وردت فيها ذكر صفات اللّه تعالى). وما طابقها من الحديث ولا ينقبون فيما وراء ذلك من مشكلات وتأويلات. ولكن لم يلبث الجدال أن ظهر واشتد بين المسلمين، وبين أهل الملل والأديان الأخرى. من جهة، وبينهم وبين أنفسهم من جهة أخرى[1].

ويقول عرفان عبد الحميد: « حاول كتاب الفرق والمقالات ربط نشأة الفرق والمذاهب الإسلامية بعوامل أجنبية تتمثل فى الدينات والثقافات والمعتقدات الفلسفية التى وجدها المسلمون فى البلاد المفتوحة وكانت الغاية التى استهدفوها هى تصوير هذه الفرق والمذاهب فى شكل دعاوى مبتدعه ومذاهب مستحدثة من أديان قديمة باطلة ... وفى العصر الحديث نهض بعض المستشرقين لدراسة هذه المذاهب والفرق وانتهوا فى دراستهم

---

١. الفكر الإسلامى -مصدر سابق- ص٥٤

واجتهاداتهم – على الرغم مما فيها من جدية وعمق وتحليل – إلى القول بأن هذه المذاهب تولدت فى الإسلام بتأثير عوامل أجنبية على اختلاف بينهم فى تحديد تلك العوامل، وقد صدر هذا عن اعتقادهم بأن العقلية العربية مصابة أصالة «باللاموضوعية»[1].

ويؤيد الرأى الذى ذهب إليه عرفان عبد الحميد ما قاله ديلاسى أوليرى عن العقلية العربية فى كتابه «الفكر العربى ومكانه فى التاريخ» حيث ورد فى مقدمة هذا الكتاب: «الحق أن هذه الثقافة الإسلامية فى أساسها وفى جوهرها جزء من المادة الهيلينية الرومانية، بل أنه حتى علم التوحيد الإسلامي قد تحدد وتطور بواسطة منابع هيلينية». ويناقض أو ليرى نفسه فى الفقرة اللاحقة على تلك: فيقول: «ولكن الإسلام ظل مدة طويلة منعزلاً عن المسيحية، وحدث تطوره فى بيئات تختلف عنها تماماً، حتى ليبدو غريباً عليها، أجنبياً عنها، وتظهر أعظم قوة له فى أنه قد عرض المادة القديمة (يقصد التى عرفها المسلمون عن الثقافة الهيلينية) فى شكل جديد جدة تامة[2].

إن من يتدبر آيات القرآن الكريم والحديث الشريف، يجد الأدلة الكافية على أن أصول تلك الفرق الإسلامية، وما جاءت به من أمهات المسائل موجودة فى مصدر الإسلام الأصيل، فالآيات التى تحث على التدبر

(١) دراسات فى الفرق والعقائد الإسلامية، عرفان عبد الحميد، بيروت- ١٤٠٤هـ،١٩٨٤م، مقدمة الكتاب.

(٢) الفكر العربى ومكانته فى التاريخ د/أوليرى. ترجمة تمام حسين- القاهرة- ١٩٦١م، مقدمة الكتاب.

والتعقل وتحصيل العلم وتفضيل الذين يعلمون على الذين لا يعلمون، بالإضافة إلى الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التى تحث على الأخذ بالأسباب والتوكل على اللّه فى ترقب النتائج عديدة ولا تخفى على من يريدها. ولقد كان من الطبيعى أن يتدبر المسلم ما جاء فى كتاب اللّه العزيز من تعاليم وإشارات وآيات بينات، وهذا يوصله حتما إلى ما يشبه الجدل واعتماد الدليل العقلى فى المناقشة، وأقصد هنا الجدل الايجابى الذى يستهدف الوصول إلى المعرفة، وليس «الجدل السلبى» الذى لا يقصد منه إلا التشكيك ونقض الرأى الآخر بحق وبغير حق.

أضف إلى ذلك أنه كانت هناك ديانات أخرى فى الجزيرة العربية وهى اليهودية والمسيحية، وكان منهم من له ثقافة واضطلاع مما جعل النقاش حول مشكلات لم تصل الفلسفة اليهودية ولا الفلسفة المسيحية إلى حل قاطع فيها أمراً طبيعياً.

لم يكن العرب المسلمون أقل كفاءة من غيرهم على التدبر والتفكير العقلى والنقاش، وهذه الحقائق كلها تؤكد أن الجدل حول مسائل فى العقيدة وفى الفقه وفى السياسة لم يكن شيئا مستوردا من ثقافات أخرى ولا نتج عن الاحتكاك بها وإن كان هذا الاحتكاك فى الواقع هو بمثابة المعجِّل به والمشجِّع على نموه واتخاذه مساراً متطرفاً فى بعض الأحيان.

جذور الجدال فى الإسلام (الفلسفة الإسلامية)

يذهب أبو محمد عبد اللّه بن السيد البطليوسى (المتوفى فى سنة ٥٢١ هـ) فى كتابه «التنبيه على الأسباب التى أوجبت الاختلاف بين المسلمين»

إلى أن الخلاف الذى عرض لأهل ملتنا من ثمانية أوجه. كل ضرب من الخلافات متولد منها ومتفرع عنها[1]:

الأول منها: اشتراك اللفظ والمعانى. الثانى: الحقيقة والمجاز.
الثالث: الإفراد والتركيب. الرابع: الخصوص والعموم.
الخامس: الرواية والنقل. السادس: الاجتهاد فيما لا نص فيه
السابع: الناسخ والمنسوخ. الثامن: الإباحة والتوسع.

ويدور هذا الكتاب الصغير الحجم نسبياً وعظيم الفائدة حقاً حول هذه الأوجه الثمانية، وهو من أول ما كتب فى هذا الفن وما نهل منه اللاحقون عليه.

أما الجدل فهو على وجهين، كما سبق ذكره، إما إيجابياً وإما سلبياً، وعلم الجدل يعرف عند المسلمين تارة بأنه «علم يقوم على مقابلة الأدلة لإظهار أرجح الأقوال الفقهية»، وتارة أخرى بأنه: «علم يقتدر به على حفظ أى وضع يراد ولو باطلاً وهدم أى وضع يراد ولو حقاً»[2].

أما العالم الجليل الذى سوف أتوقف عند وجهة نظره فترة أكثر من تلك التى سبقت لأهميتها وأرجو أن يعذرنى القارئ الكريم فى ذلك فهو

(١) انظر الكتاب المذكور – تحقيق أحمد حسن كحيل وآخر – دار الاعتصام – القاهرة ١٣٩٨ – ١٩٧٨م، ص١١

(٢) انظر مفتاح السعادة –طاش كبرى زاده، دار الكتب الحديثة– القاهرة– جـ ٢ص٥٩٩، التعريفات للجرجانى، مطبعة الحلبى ص٦٦، والفقرة مأخوذة عن أدب الاختلاف فى الإسلام، طه جابر فياض العلوانى، قطر ١٤٠٥هـ، ص٢٥

ناصح الدين عبد الرحمن بن نجم المعروف بابن الحنبلى، المتوفى سنة ٦٣٤ هـ: الذى يقول فى كتابه: «استخراج الجدال من القرآن الكريم»[1].

«أعلم أن اللّه - سبحانه وتعالى - ذكر لفظة « الجدل » وما تصرف منها فى كتابه العزيز فى تسعة وعشرين موضعاً، ولفظة «الحجة» وما تصرف منها فى سبعة وعشرين موضعاً، ولفظة «السلطان » فى ثلاثة وثلاثين موضعاً، الجميع المراد به «الحجة» سوى موضع واحد فى سورة «الحاقة» ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾(الحاقة، ٢٩)، «أما الجدل فهو مذموم فى كل موضع ذكر إلا فى ثلاثة مواضع:

أولها فى النحل:

﴿ادْعُ إِلَى سبيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥).

والموضع الثانى فى العنكبوت:

﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

وقول اللّه عز وجل: ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ خير دليل على وجود نوعين من الجدل أحدهما مستحسن والأخر مستقبح.

أما الموضع الثالث فهو فى سورة البقرة:

---

(١) الكتاب المذكور تحقيق زاهر عواض الألمعى - الفرزدق - ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص ٤٩ . ٥٢.

وهو جدال الملائكة مع ربهم، حيث قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠).

فأما أبليس فهو أول من أظهر الخلاف وركب العناد وسار فى البلاد، والفرق بينه وبين الملائكة أن الملائكة لم يظهر منهم خلاف ولا عصيان، بل طلبوا بسؤالهم الإيضاح والبيان، وأبليس أفتى وذل فى مسألته فانقطع فى مجادلته وبان فساد تعليله وإزاغته عن الصواب فى تأويله أنه قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (الأعراف: ١٢)[1].

وأول المجادلين من الأنبياء – عليهم السلام – هو جدال نوح – عليه السلام – قال: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا۞ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا۞ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا۞ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا۞ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا۞ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا۞ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا۞ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا۞ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا۞ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا۞ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلا فِجَاجًا﴾ (نوح: ١٠–٢٠)[2]. ثم جدال إبراهيم – عليه السلام – وحجاجه وله ثلاث (ثلاثة) مقامات الأول: مع نفسه، والثانى مع أبيه، والثالث: مع نمرود وقومه وجدال إبراهيم – عليه السلام – مع نفسه لم يكن جدالاً بالمعنى المعروف ولكن كان نظراً ولكن

(١) المصدر السابق، ص٦٠، ٥٧.

(٢) المصدر السابق، ص٦٥.

جداله كان مع أبيه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا۞ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا۞ يَاأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا۞ يَاأَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا۞ يَاأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا۞ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَاإِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ (مريم: ٤١-٤٦).

وكذلك جداله مع النمرود فى الآية رقم ٢٥٨ من سورة البقرة ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [1].

ثم يذكر ابن الحنبلى الأدلة على وجود الصانع فى آيات القرآن الكريم، ويذكر منها الآيات (١٧-٢١) من سورة الغاشية: ﴿أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ۞ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ۞ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ۞ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ۞ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾. ويذكر كذلك الآيات الكريمة من سورة النبأ آية (رقم ٦-١٦) ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا۞ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا۞ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا۞ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا۞ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا۞ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا۞ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا۞ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا۞ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا۞ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا۞ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ وغيرها. والآيات (٢٧-٣٣) من سورة النازعات: ﴿ءَأَنْتُمْ

[1] ابن الحنبلى، السابق، ص٦٦-٦٧.

أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا۞ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا۞ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا۞ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا۞ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا۞ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا۞ مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾، وكذلك الآيات (٣-٤) من سورة الرعد: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ۞ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، والآية (رقم ١٦٤) من سورة البقرة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، والآية ٥ من سورة يونس: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، إلى آخر ذلك من الآيات الكريمة التى تدل على وجوده تعالى وهو الغنى عن التدليل ولكنه أعلم بخلقه منهم ويعلم حاجتهم إلى دليل عقلى يفهمه الإنسان بعقله المحدود[1].

ثم يورد بعض الآيات الكريمة التى تثبت وحدانية اللّه تعالى واستحالة أن يكون له شريك فى ملكه، ومنها الآية (٢٢) من سورة

(١) المصدر السابق، ص٧٣-٨١

الأنبياء: ﴿لَوْ كانَ فِيهِمَا ءالِهَةٌ إلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١).

ثم يذكر بعض الآيات الكريمة التى تدل على البعث، مثل الآيات ٦٦ -٦٧، من سورة مريم: ﴿وَيَقُولُ الإنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ أَوَلا يَذْكُرُ الإنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾. والآيات (٧٨-٧٩) من سورة يس: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (٢).

ويليها أدلة نبوة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام منها الآية ٢٣ من سورة البقرة: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. والآية الكريمة ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءَانِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٨). وغير ذلك من الآيات البينات ويذكر من ألفوا فى دلائل نبوة نبينا محمد - عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلوات والسلام -، ومنهم أبو نعيم الحافظ الأصبهانى (ت ٤٣٠هـ) وأبو بكر بن فورك (ت ٤٠٦هـ) الحافظ أبو بكر البيهقى (ت ٤٥٨هـ)(٣).

(١) المصدر السابق، ص٨٣-٨٦

(٢) المصدر السابق،ص٩١ وما بعدها

(٣) المصدر السابق، ص٩٩ وما بعدها

ويختتم ابن الحنبلي كتابه المذكور بفصل أفرده للأسئلة والأجوبة الجدلية من الكتاب العزيز بذكر الآيات الكريمة ثم شرحها وبيان معانيها، وأساليب الجدال فيها ويبدأ ذلك بالآيات الكريمة ١١-١٢ من سورة البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ۞ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ﴾، والآيات (١٨-١٩) من سورة يس: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ۞ قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾، والآية (١٨٣) من سورة آل عمران ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[1].

والحقيقة إنني لا أريد التوقف كثيراً عند هذه النقطة فالجدال والنقاش اللذان يعتمدان على أدلة سمعية وعقلية، ويهدفان إلى الوصول إلى الحقيقة تجدهما في كثيرا من كتب التراث الفكرى فى شتى فروعه واتجاهاته، وعندما نقرأ كتابى «منهاج السنة» و«موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول» لشيخ الإسلام تقى الدين ابن تيمية نجد فيهما نمطاً جدلياً له طابع المناقشة المنهجية العلمية. وكذلك بعض المراجع القيمة الأخرى التى يذخر بها تراثنا الفكرى فى العصور السالفة، وكذلك فى العصر الحديث أختار منها واحداً على سبيل التمثيل، حيث ينبه مؤلفه إلى منزلق خطير قد يقع فيه المهتمون بمحاولة التوفيق بين العقل والنقل أى بين العلم والدين.

(١) المصدر السابق، ص١١٣ و ما بعدها

يقول عباس محمود العقاد فى كتباه «التفكير فريضة إسلامية» .. والافراط إنما يحذر من محاولة التوفيق بين القرآن الكريم وبين تلك العلوم (يقصد العلوم العصرية) فى كل جليل ودقيق مما ثبت ثبوت اليقين ومما يعرض أصحابه عرضاً يحتمل المراجعة، بل يحتمل النقض والإلغاء. فمن الحق أن نعلم أن كتابنا (القرآن الكريم) يأمرنا بالبحث والنظر والتعلم والإحاطة بكل معلوم يصدر عن العقول، ولكن ليس من الحق أن يزعم أن كل ما تستنبطه العقول مطابق للكتاب مندرج فى ألفاظه ومعانيه. فإن كثيرا من آراء العلماء التى يستنبطونها أول الأمر لا يعدو أن يحسب من النظريات التى يصح منها ما يصح ويبطل منها ما يبطل ولا تستغنى على الدوام عن التعديل، وإعادة النظر من حين إلى آخر[1].

وقد تركزت موضوعات الفكر الإسلامى حول أربع نقاط:

١- إثبات وجود اللّه وما يليق به من صفات (التوحيد).

٢- تفسير كيفية الخلق وإثباته.

٣- إثبات النبوة بصفة عامة ونبوة سيدنا محمد ﷺ بصفة خاصة.

٤- مسألة الجبر والاختيار (العدل).

وكان من نصيب النقطتين الأولتين من التأثر بالثقافات الأخرى أكبر بكثير من النقطتين الأخيرتين.

والمسلمون كانوا أيضا فى أربعة مجموعات رئيسية:

---

(١) الكتاب المذكور نشر فى دار الكتاب العربى - بيروت - ١٩٦٩م، ط٢ - ص ٧٨.

١- السلفيون. ٢- المتكلمون (أصحاب الفرق).

٣- الفلاسفة. ٤- المتصوفة.

ويلاحظ هنا أن مصطلح «أهل السنة والجماعة» كان ينطبق فى بداية الأمر على كل من أهل السلف والمتكلمين، فكان كل فريق منهما يدعى لنفسه الأحقية بهذه التسمية. ولم تقتصر هذه التسمية على أهل السلف الذين تجنبوا الكلام والدخول فى متاهات جدلية مع المتكلمين إلا فى فترة متأخرة، وبعد ظهور مذهب الإمام أحمد بن حنبل مثل الأشاعرة وانتصارهم لمذهب السلف على طريقتهم الكلامية التى تأثروا فيها بالمعتزلة بما جلب عليهم غضب الممسكين عن الكلام والجدال من أهل السلف الصالح. وفى ردود الشيخ ابن تيمية على الأشاعرة فى كتابه «الموافقة»[1] ما يكفى فى هذا الصدد.

أما الفلاسفة والمتصوفة فقد كانوا أبلغ من الآخرين فى تأويل الآيات والبحث عن المعنى الباطن، كما كانوا يدعون. والمتصوفة كانت أكثر من الفلاسفة فى هذا الاتجاه وأبلغهم جميعا فى الاعتماد على التفسير الباطن وترك ظاهر القرآن الكريم وإن كانوا متفقين مع الفلاسفة فى بعض النقاط. ومعظمهم كان يجمع بين الفلسفة والتصوف، وبعضهم جمع إليه الكلام كما هى الحال عند الإمام أبى حامد الغزالى.

---

(١) موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول، وللكتاب اسم آخر أشتهر به وهو: درء التعارض بين العقل والنقل، حققه محمد رشاد سالم، طبعته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٣٩٩هـ-١٤٠٢هـ.

والخلاصة أن أهل السلف اختاروا التمسك بظاهر الآيات الكريمة والحديث الشريف،وتجنبوا الدخول فى مجادلات تلهيهم عن التدبر فى آيات اللّه البينات وسنة رسوله الكريم ﷺ دون السؤال عن الكيف، فنجوا بدينهم وسلموا من كل طعن و شُبهة.

أما المتكلمون فقد آمنوا بما جاء فى القرآن الكريم ظاهرا وباطنا، ولكنهم زادوا على السلف بالتأويل والبحث عن الكيف، فحاولوا إثبات العقيدة (الوحى) بالبراهين العقلية (العقل) فأعطوا للعقل حرية البحث عن الأسباب معتمدين فى ذلك على أن العقل لا يمكن أن يتعارض مع ما جاء به الوحى الإلهى الكريم. فتشعبت آراؤهم ومذاهبهم حتى لم يجدوا شيئا يتفقون عليه فيما بينهم أو كادوا. وماترتب على ذلك هو أمر معروف للجميع. وجدير بالذكر هنا أن القول بأن المعتزلة نفوا الصفات أو عطلوها قول يحتاج إلى مراجعة دقيقة تتحرر من المذهبية والتعصب. لأن المعتزلة لم ينفو صفة واحدة للّه عز وجل بل اثبتوا له صفات الذات وصفات الأفعال، وكان حرصهم على تنزيه الذات الإلهية عبيداً – يشاركها شيء فى صفة القدم سببا فى لجوئهم إلى غثبات الصفة عن طريق نفى نقيضها، كنفى الجبل.

ولاثبات العلم ونفى العجز لاثبات القدرة، وهكذا. وليس فى ذلك تعطيل أو نفى للصفات.

أما الفلاسفة فقد كان جل همهم هو محاولة التوفيق بين ما جاء به الوحى من ناحية وما وجدوه فى الفلسفة الإغريقية والهيلينية. وهذه المحاولة هى التى سببت تميزهم عن الفلاسفة الأغريق. فجاءت محاولاتهم شبيهة بمحاولة فيلون اليهودى وأفلوطين الاسكندرانى وأوغسطين

المسيحى، وأن اختلفت عنها فى كثير من النقاط الأخرى التى لم تتعرض لها الفلسفة الهيلينية بالتفصيل وتميزت ببعضها كمسألة إثبات النبوة وتعريفها.

أما بالنسبة للمسألة الرئيسية فى الفلسفة وهى إثبات وجود اللّه فقد استعان معظم الفلاسفة المسلمون بما وصل إليهم من أفلاطون وأرسطو وأضافوا إلى ذلك براهين جديدة مثل البرهان المسمى ببرهان واجب الوجود الذى جاء به أبو نصر الفارابى (ت٣٣٩هـ/٩٥٠م) واعتمده ابن سينا (٤٢٧ هـ/١٠٣٧م) بينما رفضه ابن رشد (٥٩٥هـ/١١٩٨م) واعتمد ما قال به أرسطو طاليس.

أما موقف الفلاسفة من النبوة فملخصه أن الحقيقة يمكن الوصول إليها عن طريقين:

١) عن طريق التأمل والنظر (الفلسفة).

٢) عن طريق الوحى (النبوة).

الطريق الأول لا يتسنى إلا لمن لهم القدرة على التأمل والنظر وهم قلة بين الناس وهم الفلاسفة ومن هم فى مستواهم العقلى، فهؤلاء فقط من بين جميع الناس يمكنهم الوصول إلى الحقيقة بالاعتماد على العقل وحده.

أما العامة فإنهم محتاجون إلى الوحى الذى ينزل على نبى يتحدث لهم بلغة وأدلة تتناسب مع مستواهم العقلى الذى يعجزون به عن الوصول وحدهم إلى الحقيقة، ومن هنا جاءت ضرورة نزول الوحى وظهور الأنبياء. وهذا الرأى هو الذى ذهب إليه وعرضه الفارابى فى كتابه «آراء أهل المدينة

الفاضلة»[1] الذى كان يحاكى فيه «جمهورية أفلاطون». إلا أنها عند الفارابى تختلف وتتميز عنها بأشياء أساسية ترجع إلى إدخال الفارابى التصور الدينى الإسلامى فى بناء مدينته والذى تخلو جمهورية أفلاطون منه تماماً.

ويتضح الفرق الأساسى بين الفلاسفة والمتكلمين فى انطلاق المتكلمين من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة مع بعض التأويل الذى كان يتجاوز الحدود أحياناً كثيرة. ومحاولتهم إثبات صحة ما جاء به الوحى الكريم بالعقل وعن طريق الطرق المنطقية التى وجدوها فى الفلسفة الإغريقية والهيلينية حتى يصلوا فى النهاية إلى نفى التعارض بين الوحى والعقل. وفى هذا، كما كانوا يعتقدون، إثبات لصحة ما جاء به الوحى.

أما الفلاسفة فقد كان منطلقهم من نقطتين أساسيتين كلاهما يساوى الآخر فى الأهمية والصحة وهما: العقل والوحى. وكانوا يميلون إلى رفع العقل على الوحى لشدة تأثرهم بالفلسفات العقلانية. وقد جاءت محاولات عديدة لبيان الموافقة والاتصال بين الوحى والعقل، فكانت محاولة الفارابى فى كتاب «الجمع بين رأيى الحكيمين»[2] يقصد أفلاطون وأرسطو. وقد كان أفلاطون يمثل عنده الفكر الدينى. وأما أرسطو فقد كان ممثلاً للعقلانية الخالصة. وبعد ذلك جاء كتاب: «فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة

(١) انظر تاريخ الفلسفة الإسلامية، ماجد فخرى. ترجمة كمال البازجى. بيروت. ١٩٧٤م.

(٢) الكتاب المذكور. حققه البير نصرى نادر. بيروت ١٩٦٨م.

من اتصال»[1] لابن رشد. وهناك أمثلة أخرى لهذا الاتجاه التوفيقى لاداعى هنا لذكرها.

وجدير بالذكر أن أولى هذه المحاولات وهى التى جاءت فى كتاب الفارابى السابق الذكر انطلقت من أن رأى أرسطو يقترب من رأى أفلاطون فى مسألة وجود اللّه وكيفية الخلق على أساس ما جاء فى كتاب الربوبية المنحول لأرسطو والذى سبق ذكره. وهذا يعنى أن الأساس الذى بنى عليه الفارابى رأيه فى كتابه «الجمع بين رأيى الحكيمين» هو أساس خاطئ نتج عنه تصور خاطئ تأثر به من جاء بعده من الفلاسفة الإسلاميين الذين لم يتنبهوا إلى خطأ نسبة هذا الكتاب إلى أرسطو. وقد عبر الفارابى بنفسه عن شكه أو بعبارة أفضل عن تعجبه وتردده فى اعتبار كتاب الربوبية من تأليف أرسطو طاليس. ولكنه سرعان ما توقف عن هذا التردد وقطع بأن هذا التردد ناتج عن قصر فى قدرته هو على فهم المعانى الباطنة لما ذكره أرسطو فى هذا الكتاب[2].

وجد الفلاسفة عند أفلاطون و أفلوطين ما يفسرون به كيفية الخلق وصدور المادى عن اللامادى، هذه الثنائية التى لم يستطع أرسطو حلّها، ففسر علل الأشياء بما عرف بالعلل الأربعة، وهى العلة المادية والعلة الصورية. والعلة الفاعلية والعلة الغائية وهو بذلك قد اتخذ طريقا يختلف تماما عن طريق أستاذه أفلاطون الذى كان قد فسر فى نظرية «المثل» كيفية ترتيب الموجودات ابتداءً من المثال الأول اللامادى وهو الواحد المطلق والخير

(١) الكتاب المذكور. حققه البير نصرى نادر، بيروت ١٩٦٨م.
(٢) الكتاب المذكور، حققه جورج فضلو حورانى- ليدن- ١٩٥٩م.

الخالص. وانتهى فى هذا التدرج بالمادة الخالصة وهى أدنى الموجودات فى الشرف. ولكنه لم يستطع أيضاً تفسير كيفية صدور المادى عن اللامادى. ثم جاء أفلوطين فى القرن الثالث الميلادى ووضع تفسيرا جديداً للخلق. أى صدور المادى عن اللامادى وحظى بقبول كثير ممن جاءوا بعده من فلاسفة مسيحيين ومسلمين. فقد بدء أفلوطين بالواحد المطلق والخير المحض اللامادى. وقال إنه قد صدر عن هذا الواحد المطلق ما أسماه «بالعقل الفعال» صدور الضوء عن الشمس فهو لا يؤثر فيها سلبا بالنقض. ثم تنحدر عن هذه الفيوضات (الصدور) عقول أخرى (عقول الأفلاك وهى عشرة عقول). ثم صدرت النفس الكلية التى صدرت عنها أنفس البشر التى امتزج فيها المادى واللامادى. ثم يتدرج الوجود عند أفلوطين حتى يصل إلى المادة الخالصة وهى نهاية عملية الصدور والفيض وأدنى مستوياته[1].

فنجد أن «العقل الفعال» عن أفلوطين يقابل «الكلمة» عند فيلون الذى سبقه بحوالى قرنين. ثم جاء أوغسطين فى القرن الخامس الميلادى. وجعل الكلمة هى المسيح -عليه السلام- وهذا ما يفسر اعتقاد المسيحيين فى أن المسيح -عليه السلام- هو ابن اللّه. لأن الكلمة التى هى العقل الفعال صادرة كما يعتقد فيلون وأفلوطين وأوغسطين مباشرة عن الواحد المطلق (المثال الأول عند أفلاطون).

وقد جاء ذكر «الكلمة» فى الفكر الإسلامى وخاصة عند المعتزلة ولكن بمعنى يختلف تماما عن معناها فى الفلسفة الهيلينية. فقد رأى أبو الهزيل العلاف أن «الكلمة» هى الأمر بالخلق أو الكونية وهى "كن" التى صدرت

---

(١) انظر: عالم الفكر الفلسفى فى العصور الوسطى. عبده فراج ص٨٩-٩١

من اللّه عز و جل. فكان الخلق ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨٢)[١].

فوجه الشبه هو أن الكلمة "كن" تصدر مباشرة عن اللّه -عز وجل- والاختلاف هو أن هذه الكلمة لا تتعدى معنى الأمر لشئ يريد اللّه خلقه بأن يكون فيكون. ولكنها عند الهيليين والمسيحيين كلمة اللّه التى تجسدت فى المسيح. ويرون أن هذه الكلمة هى ابنه (تعالى) لأنها صادرة عنه مباشرة.

ومسألة تجسد كلمة اللّه تعالى فى شكل بشر نجدها أيضا عند بعض فرق غلاة الشيعة الذين يرون أن كلمة اللّه تعالى تجسدت فى على بن أبى طالب[٢].

أما المتصوفة فنجد أيضا عندهم بعض ما قال به أفلوطين بأن النفس تسعى إلى الاتحاد باللّه. أو ما قاله المسيحيون بحلول اللاهوت فى الناسوت، تعالى اللّه عن ذلك علوا كبيرا. وكلا من الاتحاد والحلول يتم عن طريق تدريبات شاقة للنفس تبتعد عن المادة والشهوة حتى تتخلص منها تماماً، ويصل بذلك إلى درجة عالية من النقاء الروحى؛ وفى هذا محاولة للتشبه بالله تعالى، كما كان يتصوره فيلون فى تصور المسيحية، أيام بعثة عيسى عليه السلام ولكنه لا يمكن القول بأن المتصوفة المسلمين قد أخذوا فكرهم

(١) المصدر السابق
(٢) انظر شرح الأصول الخمسة -القاضى عبد الجبار الهمذانى (ت٤١٥هـ-١٠٢٥م) تحقيق عبد الكريم عثمان- مكتبة وهبه، القاهرة، ١٣٨٤هـ-١٩٦٥م، صـ٥٣٢.

ممن سبقوهم. وكانوا مقلّدين فقط. لأن التصوف الإسلامى له أصول أخرى تختلف فى الأساس عن التصوف المسيحى واليهودى من قبله. فقد انطلق المتصوفة المسلمون من القرآن الكريم الذى وجدوا فيه آيات كريمة كثيرة تدعو إلى التعالى عن المادة وعن الانغماس فى ملاذ الدنيا ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا مَتاعُ الْغُرُورِ﴾ (الحديد: ٢٠). ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾ (الضحى: ٤). وظهر التصوف بهذا المعنى فى عصر الرسول ﷺ عند سلمان الفارسى وبلال بن رباح. وكان التصوف فى مرحلته الأولى فى الإسلام أقرب إلى الزهد. ويذهب عبده فراج فى كتابه «معالم الفكر الفلسفى فى العصور الوسطى» إلى أن انتشار هذا التيار فى الفكر الإسلامى فى عصر الفتوحات كان عبارة رد فعل على ظهور الترف فى قصور الخلفاء الأمويين والعباسيين ووزرائهم ورؤساء الجند من العرب والفرس والترك. وأول المتصوفة وإن لم يلقب بذلك. كان الحسن البصرى (ت١١٠هـ/٧٢٩م) حيث اقترن الزهد عنده بالطمع فى الجنة ونعيمها. وأول من لقب بالصوفى هو أبو الهاشم الكوفى (ت١٥٠هـ/٧٦٦م) ثم تلاه ابراهيم بن أدهم (ت١٦١هـ/٧٧٧م) الذى يشبه ببوذا، ثم جاءت رابعة العدوية (١٨٠هـ/ ٨٠١م) التى كانت تمثل الزهد المصحوب بالحب والعشق الإلهى الذى يتسامى على الطمع فى جنة الله والخوف من جحيمه.

ثم دخلت بعد ذلك فى عصر التدوين والتأليف أيام المأمون وبعدها. مصطلحات فلسفية إلى مجال التصوف أخذ بعضها من كتب الأفلاطونية المحدثة مثل «الإيضاح» و«الخير المحض» من المصطلحات من «الفيض». «الإشراق». «المعرفة». «الجذب»...الخ وكذلك تيارات مثل «الحلول» الذى

سبقت الإشارة إليه عند المسيحية والفناء عند البراهمانية (النرفانا).....الخ[1].

ومن أشهر متصوفى هذه الفترة: معروف الكرخى (ت٢٠٠هـ/٨٢١م) كان مسيحيا ثم أسلم، والحارث المحاسبى (ت٢٤٣هـ/٨٥٧م) وذو النون المصرى (ت٢٤٥هـ/٧٨٥م) وكان قبطيا ثم أسلم وقد تأثر أبو يزيد البسطامى بالتصوف الهندى فقال بالفناء التام فى اللّه عز وجل وقد تأثر بالبسطامى الحسين بن منصور الحلاج (ت٣٠٩هـ/٩٢٢م) والذى اتهم بالزندقة لقوله بالحلول[2].

ثم جاء الإمام أبو حامد الغزالى (ت٥٠٥هـ/١١١١م) بتصوف فلسفى. دينى يختلف عما سبقه. وقد اختلف حوله العلماء المسلمون بين منصف ومهاجم. حتى اتهمه بعض الفقهاء بالزندقة. هو وأستاذه أبا الحسن الأشعرى (ت٣٢٣هـ/٩٣٥م)[3]. ولا أريد أن أتوقف كثيراً عند هذه النقطة فقط ورد تفصيلها فى كتب كثيرة أهمها كتب شيخ الإسلام تقى الدين ابن تيمية مثل كتاب «نقض المنطق»[4] «والموافقة» جـ١ وغيره وفيها

(١) انظر المغنى فى أبواب التوحيد والعدل، القاضى عبد الجبار الهمذانى، تحقيق إبراهيم الإبيارى وآخرون، القاهرة، ١٩٦٢مجـ٥،ص١٦٨، وكتب الفرق مثل الملل والنحل لعبد الكريم الشهرستانى، والفرق بين الفرق لعبد القاهر بغدادى.. وغيرها.

(٢) انظر الكتاب المذكور ص١١٢ وما بعدها.

(٣) المصدر السابق

(٤) المصدر السابق

ينتقض ابن تيمية ما قاله الغزالي خاصة فى كتابه «الأربعين» و«المضنون به على غير أهله».

يقول ابن تيمية فى كتاب «نقض المنطق»: «وعلى أبو حامد (كذا) بذكائه وصدق طلبه ما فى طريق المتكلمين والمتفلسفة من اضطراب. وأتاه اللّه إيماناً مجملاً كما أخبر به عن نفسه. وصار يتشوف إلى تفصيل الجملة فيجد فى كلام المشايخ والصوفية ما هو أقرب إلى الحق وأولى بالتحقيق من كلام الفلاسفة والمتكلمين. لكن لم يبلغه من الميراث النبوي عنه بما كان عنده من قلة العلم بها ومن الشبهات التى تقلدها عن المتفلسفة والمتكلمين»[1].

وعلى الإجمال أقول إن المتكلمين والفلاسفة والمتصوفة لم تكن عندهم نوايا إلحاق الضرر بالإسلام وإن كانت بعض النتائج والطرق التى اتبعوها فى بحثهم عن اليقين قد أدت فى كثير من الأحيان إلى ما لم يتوقعوا هم أنفسهم وقد كان تأثرهم بالفلسفة والثقافة الغربية عن الإسلام أكثر من عامة المسلمين. فاستهواهم ما وجدوه فى الثقافات الأخرى من عقلانية وروحانية فبحثوا تارة وأوّلوا تارة أخرى بعض الآيات القرآنية الكريمة التى استعانوا بها فى تأييد مذاهبهم.

وبعد .. فإن تأثر ثقافة بثقافة. أو بثقافات أخرى لا يدل على أن الثقافة المتأثرة ضعيفة أو سلبية تماما. ولكنه يدل على أن هذه الثقافة حية.

---

(١) نقلاً عن «منطق ابن تيمية ومنهجه الفكرى» - محمد حسنى الزين - ... ت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ص ٣٠٠-٣٠١.

فالتأثر هو نتيجة حتمية للاحتكاك الثقافي. وهو دليل على حيوية الثقافة المتأثرة. لأن التأثر لا يأتى إلا على الأحياء. أما الأموات فلا يتأثرون.

إن مقياس قوة الثقافة المتأثرة هو كيفية تقبلها لما جاءها من الثقافات الأخرى والنتائج التى أدى إليها هذا التأثر. فالفلسفة الإسلامية تأثرت وتطورت. ثم أثَّرت وأثُرت ثقافات أخرى. ويقرر «برنتل» فى كتابه «العلوم الطبيعية عند الشرقيين» أن «روجر بيكون» قد أخذ كل النتائج المنسوبة إليه عن العرب. «وروجر بيكون» (تقريبا سنة ١٢٩٤م) يعتبر عند الغرب مؤسس العلوم التجريبية وواضع أسس المنهج العلمى التجريبى[١]. يقول جوستاف لوبون فى كتابه «حضارة العرب»: «ولم يظهر فى أوربا قبل القرن الخامس عشر عالم لم يقتصر على استنساخ ما فى كتب العرب فعلى كتب العرب وحدها عوَّل روجر بيكون ....»[٢].

ويرجع «برنتل» وهو أحد أشهر مؤرخى المنطق فى أوربا فى القرن العشرين[٣]. وكذلك معاصره «فرانس روزنتال» فى كتابه «استمرار علوم الإغريق فى الإسلام» هذا التقدم العلمى فى الثقافة الإسلامية إلى موقف الإسلام الإيجابى من العلم فيقول: «وموقفه (أى موقف الإسلام) كان

(١) الكتاب المذكور ص١٢١.
(٢) حضارة العرب -جوستاف لوبون- ترجمة عادل زعيتر، بيروت. ١٩٧٩ م،ط٣-ص٦٧٨.
(٣) انظر تاريخ المنطق فى الغرب -كارل برنتل- طبع لأول مرة فى ليبتزج- (ألمانيا الشرقية) ١٨٥٥م- وأعيد طبعه فى جراتس (النمسا) ١٩٥٥م. (باللغة الألمانية).

المحرك الكبير لا للحياة الدينية فحسب بل للحياة الإنسانية فى جميع جوانبها. وموقف الإسلام هذا هو الدافع الأكبر فى السعى وراء العلوم»[1].

وبعد فإن التطور الذى حدث فى الفكر الإسلامى بجوانبه الإيجابية والسلبية بعد اتصاله بالفكر الأجنبى ما كان ليحدث بهذه السرعة ويصل إلى هذه الدرجة بدون الاحتكاك بالثقافات الأخرى. ولكن هذا لا يعنى أنه ما كانت هناك حضارة إسلامية على الإطلاق لولا اتصال المسلمين بغيرهم. لقد كان الاحتكاك الثقافى دافعاً ومشجعاً لهذا التطور ولم يكن السبب الأول له.

إن السبب الأول لهذا التطور. فى نظرى هو موقف الإسلام من العلم بصفة عامة. بما جاء من آيات كريمة وأحاديث شريفة تدعو إلى العلم وتحصيله والتدبر فى خلق السماوات والأرض وما فيهن. والإيمان بالله والرسول واليوم الآخر. تلك هى الجذور التى أنبتت. بتأثير عوامل أخرى. التطور فى مجالات العلوم الطبيعية والشرعية أى العلوم الإسلامية على وجه العموم.

ومن المؤكد أن هذه العوامل الخارجية لم تؤثر إلا على مراحل تطور هذه العلوم. وأما الجذور الأصلية فهى أبعد من أن تتأثر بشئ من فعل البشر. وعندما نستعيد أمثلة الاحتكاكات الثقافية الآن فى تاريخ البشرية نجدها كلها متشابهة تشترك فى الدوافع والطرق والنتائج.

إن أول أمثلة الاحتكاك الثقافى التى تعرضت لها فى هذا البحث هو احتكاك الثقافة الإغريقية بالثقافات الشرقية والتى نتجت عنها الثقافة

---

(١) الكتاب المذكور - شتجارت - ١٩٦٥م. ص ١٨ (باللغة الألمانية).

الهيلينية. والمثال الثانى هو احتكاك الإسلام بالثقافات الأخرى وهى الهيلينية والفارسية والهندية والتى ساعدت فى تطور الثقافة الإسلامية. أما المثال الثالث وهو احتكاك الفلسفة الغربية بالفلسفة الإسلامية. فى العصور الوسطى المسيحية والتى نتج عنها ما أسمونه بالنهضة الأوربية. والمثال الرابع هو احتكاك (الفكر الإسلامى) بالفكر الغربى فى العصر الحديث الذى نتجت عنه آثار فيها الكثير من السلبيات، وأما الإيجابيات فهى مازالت قليلة جدا على ماسيأتى تفصيله.

ففى أمثلة الاحتكاك الثقافى الثلاثة الأولى كانت الثقافة المتأثرة تأخذ فقط ما يتفق وروحها أو ما تعتقده متفقا معها لتنتفع به فكان هذا هو الدافع للأخذ عن الثقافة المؤثرة. وأما الوسيلة فكانت هى الترجمة من لغة الثقافة المؤثرة إلى لغة أو لغات الثقافة المتأثرة. وقد سبق الحديث عن الترجمة فى بداية هذا البحث. أما النتيجة فكانت غالبا هى التطور. وظهور علوم جديدة فى الثقافة المتأثرة. هذا كله نجده فى كل أمثلة الاحتكاك الثقافى الذى سبق ذكرها. وأما الاحتكاك الثقافى فى العصر الحديث فلابد له أيضا أن يسير على نفس الطريقة التى تكررت فى الماضى مع الاستفادة من التجربة وكل الإمكانات المنهجية المتوفرة لنا الآن حتى يؤدى إلى نتائج إيجابية بالنسبة إلى ثقافتنا الإسلامية.

لابد لنا إذن أن ننتقى الجوانب التى تتفق مع روح وأصل ثقافتنا والتى تفيدنا فى ديننا ودنيانا. ونرفض ما يتعارض مع ذلك. والأخذ والرفض لا يتم إلا بعد الفهم. والفهم لا يتم إلا بعد الإطلاع. والإطلاع يشترط معرفة اللغة المؤثرة والإحاطة بأساليب تعبيراتها المختلفة ومنهجها فى العرض حتى نفهم ماتعرضه علينا الفهم الصحيح، ونكتشف ما قد

تخفيه من خطر أو فائدة لكى نرد عليها بلغتها وأسلوبها ومنهجها العلمى حتى يفهم أبناؤها وجهة نظرنا وموقفنا من كل نقطة خلاف أو اتفاق. أما الرفض التام لكل شئ يأتى من الخارج لمجرد أنه غريب وإظهاره على أنه عداء وضرر للمسلمين. فهذا لا ينفع ولايحمى ثقافتنا على المدى البعيد فضلا عن أنه سيضرنا. فالاحتكاك الثقافى واقع. والتأثر والتأثير حتمى فعلينا أن نبادر بوضع منهج علمى يتفق وأهدافنا ويوصلنا إلى موقع قوة نرد به كل ضار وننتقى كل مفيد.

أن تأثر الفلسفة الإسلامية بغيرها لايعيبها بل يظهر بأنها حية. كما أن تأثيرها على الثقافات الأخرى يفيد أنها قوية. فالتأثر دليل الحيوية. والتأثير دليل القوة والأصالة وأقصد هنا التأثر الواعى والتأثير الهادف.

وكما كان السلف لا ينقطعون عن الذود والذب عن الإسلام فى أصله الأصيل ودرء كل مايمس العقيدة الإسلامية الأصيلة بسوء. لابد أن يكون هذا أيضا هو واجبنا وهدفنا فى العصر الحاضر الذى نتعرض فيه لحملات قاسية متمكنة من كل وسائل العلم مستغلة لكل إمكاناته متبعة فى ذلك منهجا علمياً أخذوه عنا وطوروه، منطلقين من اقتناعٍ راسخ أن الأمة الإسلامية سوف تنهض مرة أخرى مادام فيها كتاب الله الكريم، وسنة نبيه المطهرة. وهذا الاقتناع جاءهم بعد أن فشلت الحروب الصليبية التى لم تكن تهدف. كما يعتقد الكثير للاستيلاء على بيت المقدس فحسب. بل لتحطيم هذه الأمة. وهذا الدين الحنيف. فردهم اللهُ على أعقابهم ونصر دينه وأمته التى استمسكت بعروته الوثقى.

أقول إن الغرب قد عرف وتأكد أن الأسلوب الوحيد للسيطرة على هذه الأمة هو دراسة حضارتها وأصولها ومنهجها. فكان له ما أراد وسعى له

بجد وكان لنا ما استحققناه بابتعادنا عن الطريق القويم الذى اختاره الله لنا، فسادوا العالم وأفسدوه.

وبعد فإن كان القرآن الكريم هو مصدر فكرنا وشريعتنا وسلوكنا الاجتماعى فهل يمكن القول بأن القرآن الكريم يتضمن أسساً قوية يمكن أن نبنى عليها فلسفة إسلامية خالصة تقوم على منهج معرفى أصيل تؤخذ أو تستنبط منه كل عناصره؟ الإجابة عن هذا السؤال هى موضوع بحث آخر.

الغزالي مُترجَمًا(*)

أ.د. محمد صبحى عيسى(**)

مقدمة:

كان الدافع الأساسى لاختيار هذا الموضوع هو ما أثاره فى نفسى مقال عن "أثر الغزالي فى الفكر الأوربى الحديث"، وكيف أن الكاتب حاول أن يتجنب استعمال كلمة «تأثير» مباشر. وآثر أن يكون التأثير من قبيل المصادفة أو من باب «وقع الحافر على الحافر» كما يقال[1]. ويمضى كاتب المقال فيعبر عن دهشته من أن تأثير الغزالي الذى توفي في (سنة ٥٠٥هـ - ١١١١م) لم يكن تشابهاً فكرياً مع من عاصره. بل كان مع مفكرين من العصر الحديث أمثال ديكارت (ت ١٦٥٠م). وباسكال (ت ١٦٦٢م) وسبينوزا (ت ١٦٧٧م) وكانت (ت ١٨٠٤م). وبعد عرض موجز لأوجه التشابه وأين يتم التلاقى. الذى يكاد يكون متطابقاً بين فكر الغزالى وبين

(*) قُدّم هذا البحث المبدئي فى إطار ندوة: «الفلسفة الإسلامية والحوار مع الغرب» والتى عقدت فى يوم الاثنين الموافق ٧ مايو ٢٠٠١م بمقر مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامي بجامعة الأزهر.

(**) الأستاذ بجامعة ميتشغان - آن آربر - الولايات المتحدة الأمريكية.

(١) محمد عزيز الجبالي «إلى أي مدى أثر الغزالي فى الفكر الأوروبى» فى: أبوحامد الغزالي: دراسات فى فكره وعصره وتأثيره. كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٩. الرباط ١٩٨٨م، ص ٢١٧/٢٤٠.

الفلاسفة المذكورين سالفاً، نجد الكاتب يقول: «قد يكون (التشابه) من باب «وقع الحافر على الحافر». لكن بعض المقارنات السابقة انتزعت نَفْي «الحافرين» وإن لم تمح نقطة الاستفهام «كيف تم تأثير أبي حامد الغزالي في الفكر الأوروبي» في حال تأكيد التأثير؟»[1].

وللإجابة عن ذلك السؤال يعتمد الكاتب في تسبيب التشابه على اثبات أن أعمال الغزالي كانت في متناول هؤلاء الفلاسفة المحدثون بلغات يعرفونها. كما يعتمد بطريقة موجزة على بحث الظروف التاريخية المحيطة بهم التي تساند فرضية امكان اطلاع أولئك الفلاسفة على تلك الأعمال مترجمةً. ومن ثم بدأ كاتب هذا البحث الاهتمام بترجمات الغزالي. وثمة دافع آخر للاهتمام بهذا الموضوع وهو مشاركتي في تحرير سلسلة الترجمات الإسلامية التي تصدرها جامعة بريجهام يانج BYU والتي صدر منها كتابان للغزالي هما «تهافت الفلاسفة» و«مشكاة الأنوار»[2].

الترجمات لماذا ؟

لاشك أن الترجمة تلعب دوراً بارزاً في حوار الثقافات والحضارات بين الأمم. فالتأثير أو التأثر الذي نحاول اثباته أو نفيه يعتمد الترجمة والعمل المترجم كدليل يستشهد من يبحث هذه الأمور. ولاشك كذلك في أن حركة الترجمة التي تمت بتشجيع وتمويل الخلافة الإسلامية في العصر العباسي والتي بدأت في أواخر القرن الثامن واستمرت خلال القرنين التاسع والعاشر الميلادي. كانت تشكل حواراً بين ثقافات سابقة وثقافة

(١) المرجع السابق. ص٢٣٨.

(٢) [illegible] عن الكتابين).

شابة متحفزة ومتفتحة ذات مبادئ دينية واتجاهات عقلية وخلقية تكسبها صبغة فكرية خاصة بها. وكان من نتيجة هذا الحوار أن تكوّن لدينا تراث إسلامي لا يمكن أن يوصف إلا بأنه تراث من المعرفة تشبع بالفكر الدينى الإسلامي وتغذى بما انتقل إليه من الثقافات الإنسانية السابقة. وعن طريق الترجمة كذلك دار حوار بين هذا التراث الإسلامي وبين ما لحقه من أجيال إسلامية وغير إسلامية نهلت من ينابيعه وتغذى عليها وأثمر لديها فكراً معاصراً. لا هو من قبيل الاستنساخ الشكلي المحض ولا هو فكر جديد خالص مبتدَع من لا شيء. ومثلما أثير السؤال من قبل عن الأسباب وراء اختيار المسلمين فى العصر العباسي لترجمة اعمال معينة فى فترات تاريخية معينة. قاموا فيها باختيار العديد من الأعمال الفلسفية والعلمية بينما لم يعنوا عناية كافية بترجمة الأعمال الأدبية الملحمية والدرامية. فإن السؤال يعترضنا الآن ويدعونا إلى أن نحاول الإجابة عنه فيما يتعلق بأي ترجمات يتم أو لا يتم من خلالها التحاور بين ثقافتين. وبما أننا نتحدث عن الغزالي، فلنضرب مثالاً على دور الترجمة فى الحوار بما قام به الغزالي نفسه من استخدام الأعمال الفلسفية المترجمة والاستناد إليها فى وضع كتابه «مقاصد الفلاسفة»[1] ومع أنه لم يقرأ الأعمال المترجمة عن الفلسفة اليونانية مباشرة إلا أنه قد تعرف على الافلاطونية الحديثة من خلال دراساه للفارابي وابن سينا على يد أستاذه أمام الحرمين الجويني[2]. وقد

(١) مونتجمري وات في دائرة المعارف الإسلامية، طبعة قرص الليزر - مادة الغزالي.

(٢) المرجع السابق.

قدم الغزالي فى كتابه «مقاصد الفلاسفة» عرضاً دقيقاً للأفكار الفلسفية دون أن يتعرض لها بأي نقد أو مناقشة. وبعد ذلك أجرى حواره مع الفلسفة فى كتابه «تهافت الفلاسفة» الذى أتم كتابته فى سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م الذى ربما يعد من أشهر أعماله فيما يتعلق بالجانب الفلسفي من تفكيره.

ينبغي عند دراسة وتحليل أي أعمال مترجمة أو في طريقها إلى الترجمة أن يتم ذلك فى إطار معرفي للظروف التاريخية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية المصاحبة للقيام بالترجمة. إن هذه الظروف تتحكم فى اختيار العمل المترجم وطريقة الترجمة وإخراج العمل المترجم من حيث اشتماله على شروح أو تعليقات. ودراسة العمل المترجم ذاته قد تفضى بنا إلى إثارة عدة تساؤلات عن النص ذاته فى لغته الأصلية ومدى صحة نسبه إلى مؤلفه ومصداقيته ؛ وأسئلة عن المترجم وكفاءته من حيث إلمامه باللغتين (المترجم منها والمترجم إليها) وأمانته العلمية ومدى معرفته بموضوع النص الذى يترجمه حتى لا ينتج عن الترجمة إلا قاموس مفردات فى شكل سرد يضيع فى جوفه الرأى ويتعقد الموضوع. إذا أضفنا إلى ذلك أن ما نحن بصدده هنا هو موضوعات فلسفية وصوفية وعقائدية معقدة بطبيعتها فى لغتها الأصلية ذاتها. فالمترجم إذا يمثل سلطة ذات نفوذ قوي على النص الذى يترجمه. إذ أن القارئ لا يملك إلاّ أن يجهد ذهنه في فهم النص المترجَم والذى يمثل. بالنسبة له. الأصل الوحيد للفكرة التى يعرضها الكاتب والموضوع الذي يتناوله النص. ومن ثم نتبين خطورة عمل المترجم ومسئوليته أولاً عن ضرورة فهم العبارة التى يترجمها وثانياً عن مقدرته وأمانته فى نقلها إلى لغة أخرى. وبما أن العقول والقدرات الفكرية والعلمية

والاستيعاب اللغوى تتفاوت بتفاوت عقول البشر. فإننا لا يمكن أن نسلم بأن ترجمة واحدة لعمل ما تكفي.

ولا شك أن البُعد الزمني بين الكاتب والمترجم والاختلاف الثقافي بين بيئة الأصل المترجَم والترجمة تثير كذلك تساؤلات عدة لا داعى لإفاضة الحديث عنها هنا. ولهذا فإن أعمال الغزالي المؤلفة والمكتوبة في القرن الحادي عشر تُجسد في شكلها وأسلوبها ومفرداتها أسلوب العصر الذى كتبت فيه وسماته اللغوية وتتناسب مع ظروف القارئ المستهدف آنذاك وعقليته ومكونات ثقافته العامة أو الخاصة. وهذا بالطبع ينطبق على أي ظروف أخرى مشابهة.

وهذا يضيف مسئولية أكبر وأكثر تعقيداً على المترجم. وإذا عزمنا على دراسة ترجمات متأخرة فى البعد الزمانى والجغرافي والثقافي. فإننا عادة ما نهمل أخذ هذه الأمور بعين الاعتبار ويعرض علمه ومهارته وحساسيته لاختبار حاد وصعب. والأصعب من ذلك أنه عند نقد أي من تلك الترجمات المتفاوتة في البعدين الزماني والمكاني فإن الناقد لابد أن يكون ملماً باللغتين (المترجم منها والمترجم إليها) وكثيراً ما تختلف بل ربما تتباين وجهات النظر بين الناقد والمترجم.

وهناك مسألة أخرى يثيرها الحديث عن المترجِم ومهارته ومدى عمقه فى فهم النص واستيعابه موضوع العمل الذي يترجمه وهى أن الموضوعات الفلسفية والدينية التى تناولها الغزالى فى مؤلفاته هي نتاج عقلية لم تكن الكتابات العربية فقط هى مصدر معرفتها أو وسيلة تثقيفها. ومن ثم فإن المترجِم الذي يتعرض لترجمة مثل هذه الأعمال قد يتميز عمله بالدقة

ويحظى بالثقة إذا كان ملماً بلغات أخرى تتناسب مع مصادر النص المترجم ولا تقتصر على مجرد الطلاقة فى إجادة لغتين فقط (المترجم منها والمترجم إليها). ونلاحظ ذلك فى كثير من الترجمات العلمية الدقيقة التي ظهرت مؤخراً مذيلةً بفهارس للمفردات والمصطلحات بلغات أخرى غير لغتي الأصل والترجمة، وهي لغات ذات صلة وثيقة بموضوع النص المترجم[1]. ومن خلال مراجعاتي للترجمات الحديثة لعدد من الكتب في الفلسفة والطب والعلوم والتصوف لاحظت أن إلمام المترجم بلغات أخرى يساعده على إرجاع بعض المصطلحات في النص المترجَم إلى أصولها في اللغات الأخرى مما يلقي مزيداً من الضوء على المعنى ويساعد على فهمه أو تفسيره بطريقة أوضح.

نظرية تحليلية لبعض ترجمات أعمال الغزالى:

مع أن كتاب «تهافت الفلاسفة» لم يحظ بكثير من الاهتمام فى لغته الأصلية ولم يحفل به المشتغلون بالفلسفة من المسلمين فى القرون الأربعة

(١) نجد ذلك فى عمل فهارس باليونانية والعبرية إلى جانب العربية والانجليزية والفرنسية لبعض الكتب التى ستصدر عن سلسلة الترجمات الإسلامية/ العلمية التى تصدرها جامعة بريجهام يانج منها على سبيل المثال فصول في الطب لموسى بن ميمون وتعليقات ابن رشد على كتاب أرسطو "في النفس".

التالية لوفاة الغزالي (٥٠٥هـ/١١١م) [1] إلا أنه حظي بقدر كبير من الاهتمام به مترجماً كما سيأتي ذكره.

وقد انصب الاهتمام المبكر بترجمة أعمال الغزالي على الكتب المتعلقة بالفلسفة مثل «مقاصد الفلاسفة» و«تهافت الفلاسفة». ومن أقدم ما ترجم للغزالي هو كتاب «مقاصد الفلاسفة» الذى ترجم إلى اللاتينية سنة ١٢٠٢م بالإضافة إلى كتب الغزالي العديدة الأخرى التي أحيطت بعناية خاصة من مثقفي اليهود وأحبارهم.

ولعل الترجمات العبرية لأعمال الغزالي هي خير مثال يوضح ما سبق ذكره من أن اختيار أي عمل للترجمة يخضع لعوامل تاريخية وفكرية واجتماعية تحكم هذا الاختيار وتؤثر فيه كما تتأثر به.

---

(١) انظر: عبد الرحمن بدوى: أوهام حول الغزالي فى أبو حامد الغزالي دراسات فى فكره وعصره وتأثيره – الرباط ١٩٨٨، ص٢٤٢. وفي هذا المقال يذكر الدكتور بدوى عدداً من الكتاب المسلمين الذين لم يشيروا إلى التهافت فى أعمالهم، ومن بينهم السهروردي المقتول (ت ٥٨٧هـ/١٣٠٣م) والفخر الرازى (ت ٦٠٦هـ/١٢٠٩م) والشهرستاني (٥٤٨هـ/١١٥٣م) وعمر الكاتبى (٦٧٥هـ/١٢٧٦م) وسعد الدين التفتازاني (ت ٧٥٦هـ/١٣٥٥م) – والمقال في جملته هو محاولة لرد شبهات القائلين بالتشابه بين آراء الغزالي وآراء الفلاسفة الأوروبيين من أمثال ديكارت وهيوم كما أشار إلى ما زعمه آسين بلاثيوس وغيره من تأثر الغزالي بالمسيحية فى تصوفه ومبادئه الأخلاقية.

ومن المعروف أن الترجمات العبرية عن العربية كانت شائعة بين اليهود الذين كانوا يعيشون بين مسلمي المغرب. ومن المقبول عقلياً أن تستهدف تلك الترجمة كتب الطب والرياضة وكتب الفلاسفة المسلمين التي تناولت العلوم اليونانية مثل أعمال الفارابي وابن سينا والكندي وابن طفيل وابن رشد وغيرهم[1]. لكن البعض اعتبر أنه من الغرابة أن يوجد في التراث اليهودي الأندلسي مؤلفات غزالية. وهي مؤلفات لبابها القرآن والسنة ومأثورات السلف الصالح[2]. ومع أنه من الصعب أن نرصد عدد المؤلفات التي ترجمت إلى العبرية، إذ كانت الترجمات تتم في غالب الأحيان استجابة لطلب شخص معين يدفع تكاليفها ويحتفظ بها لنفسه وربما أصابها التلف أو الضياع. إلا أن ما وصلنا ونشر من هذه الترجمات يكفي لإلقاء الضوء على أهمية مؤلفات الغزالي المترجمة إلى العبرية.

ومن بين ما ترجم إلى العبرية من هذه المؤلفات «مقاصد الفلاسفة» وقد ترجم ثلاث مرات خلال القرن الرابع عشر على يد اسحق البلاغ الذي علق عليه وعنونه بـ«تصحيح الآراء»، ويهودا ناتان بجنوب فرنسا الذى ترجمه مرتين وأبقى على عنوانه «مقاصد الفلاسفة». وقد أضاف المترجم شروحاً بالعامية وكان يبتعد أحياناً عن النص. وترجم كذلك على يد مجهول وهذه الترجمة هي التي اعتمدها موسى الزبوني شارح الغزالي في تعليقه على مقاصد الفلاسفة[3]. أما «تهافت الفلاسفة» فقد ترجم مرة واحدة وأنجز هذه

(١) محمد عزيز الجبالى ص٢٣٨

(٢) أحمد شحلان: الغزالي فى منظومة الفكر اليهودي. في: أبو حامد الغزالي: دراسات فى فكره وعصره. الرباط ١٩٨٨. ص ١٩٥ ومابعدها.

(٣) المرجع السابق ص ١٩٦ . وانظر قائمة مصادره وحواشيه.

الترجمة شرحاً هاليفى بن إسحق جروندي (ت ١٤٨٦م) وتُرجم الكثير من فقراته مراراً وذلك مع ترجمات «تهافت التهافت» الذى ترجم على الأقل ثلاث مرات[١].

وقد تُرجم كذلك كتاب «ميزان العمل» وأنجز ترجمته إبراهام بن حسداي بن صموئيل هلفي البرشلوني حوالى ١٢٣٥ – ١٢٤٠م، كما ترجم كتاب «مشكاة الأنوار» وقام بترجمته إسحق بن يوسف الفاسي ربما فى القرن الثالث عشر[٢].

وكان من الطبيعي أن تغدو هذه الترجمات نافذة يطل من خلالها اليهود إلى الفكر اليوناني كما عرفه العرب، بالإضافة إلى التعرض إلى علم الكلام والفكر الإسلامي والعلوم العربية على أوسع نطاق. وكان من الضروري أن يؤدي هذا إلى خلق ما كان يعرف بمشكل العقل والنقل والفلسفة والشريعة[٣]. وقد نتج عن هذا التعرض حدوث هزتين قويتين فى المجتمع اليهودي فى الغرب الإسلامي وجنوب فرنسا، الأولى بين سنوات ١٢٣٠–١٢٣٣م، والثانية بين سنوات ١٣٠٣–١٣٠٦م، انقسم فيها المجتمع اليهودى على نفسه وصدرت مراسيم باحراق التفاسير المجازية للتوارة وإدانة كل من يؤلف في الفلسفة أو يملك كتباً فيها. ومع تزايد حدة التيار المقاوم للعلوم الفلسفية والفلسفة الرشدية بشكل خاص، بحث اليهود عن أعمال جاهزة توفر لهم الحماية والوقت والمجهود العقلي، ومن ثم

(١) المرجع السابق ص ١٩٧
(٢) المرجع السابق ص ٢٠٠
(٣) المرجع السابق ص ٢٠٤

نشطت حركة ترجمة كتب الغزالي. ويرى الأستاذ أحمد شحلان أن السبب فى إقبال العلماء اليهود على ترجمة كتب الغزالي والتعليق عليه يرجع بالدرجة الأولى إلى أنها كانت تعكس الاتجاهات المتعددة التي تبنتها الأطراف المتصارعة في سنوات امتحان الطوائف اليهودية. فهذا إسحق البلاغ الرشدي النزعة يرى في كتاب «مقاصد الفلاسفة» أنه «كتاب سهل الفهم يستطيع بواسطته القارئ الذي لم يطلع إلا على القليل من الفلسفة أن يستوعب مضامينها. ولهذا فإني رأيت أن من الأفيد نقله إلى لغتنا»[1]. وهؤلاء بعض رافضة الفلسفة يجدون فى «تهافت الفلاسفة» ما يعبر عن آرائهم. وبالمثل فإن الموفقين بين الفلسفة والشريعة أو بين الشريعة والحجة والبرهان العقليين. يجدون في أعمال الغزالي ما يعبر عن وجهة نظرهم. فهذا مترجم كتاب «ميزان العمل» يصف الغزالي فى مقدمة ترجمته بأنه «... رجل حكيم مبرور. وعالم كبير مشهور له في كل علم باع. وفي كل فن قدرة ومستطاع. أنه أبو حامد الغزالي. وهو العالم الكبير أو الفيلسوف المفكر الذى لم يتأفف من أخذ الحجة والبرهان من كتبهم (أى المسلمين) الدينية. وأخبارهم التى ذكرها حكماؤهم[2]».

وهكذا يتضح أن الغزالي من خلال ترجماته كان عملة رائجة لدى اليهود لمدة تزيد على أربعة قرون. فاستخدموه وأقبلوا على ترجمة أعماله ليدعم كل فريق منهم رأيه ودعواه. وهذا يمثل. فيما يتعلق بموضوع هذا البحث. نموذجاً للدوافع والظروف التاريخية والاجتماعية والفكرية التي تؤثر على الترجمة وعلى اختيار الأعمال التي تترجم.

---

(١) المرجع السابق ص ٢/٢١١

(٢) المرجع السابق ص ٢١٢

ترجمات الغزالي فى العصر الحديث:

سأقتصر هنا على تحليل بعض العوامل والظروف المصاحبة لانجاز عدد من ترجمات كتب الغزالي إلى اللغة الإنجليزية وما واكب ذلك من دراسات حول الغزالي سواء فى شكل رسائل جامعية، أو مقالات في مجلات علمية متخصصة، أو فصول فى كتب أو تخصيص كتب بكاملها للبحث في موضوعات متعلقة بالغزالي مفكراً إسلامياً. ولعل أهم ما نمهد به لهذه الفقرات هو التنويه إلى سرعة وكثافة انتشار المسلمين فى بقاع كثيرة من العالم واستقرارهم بها، خاصة في الأمريكتين وفي الدول الأوروبية. لقد أضحى المسلمون جزءاً لا يمكن إغفاله فى نسيج المجتمعات الأوروبية والأمريكية. وأصبح من المألوف اليوم أن تطالعنا الاسماء العربية الإسلامية في كل مجال تقريباً من مجالات الحياة العامة فى العصر الحاضر. أضف إلى ذلك التواجد الإسلامي في دول بكاملها لا تتكلم العربية مثل الباكستان واندونيسيا وماليزيا وبأعداد تبلغ الملايين فى الهند والصين وجمهوريات أوروبا الشرقية (الاتحاد السوفييتى سابقاً).

ومع أن اللغة الإنجليزية ليست هى اللغة الرسمية لجمهور هؤلاء المسلمين، إلا أنها ربما كانت أكثر اللغات انتشاراً حتى بين من لا يستخدمونها كلغة رسمية. ولا يقتصر الأمر على إدراك حجم واعداد أولئك النازحين والمهاجرين إلى العالم الجديد والقادمين من مناطق إسلامية يحملون معهم إسلامهم وشعائرهم ويتمسكون بها ويحرصون على استمرار المحافظة عليها وتلقينها إلى أبنائهم؛ بل يجب أن نضيف إلى ذلك الأعداد المتزايدة لمن يدخلون الإسلام طوعاً في تلك المجتمعات ويحرصون بدورهم

على أن يزدادوا ثقافةً ووعياً بمبادئ الإسلام الأساسية وتعاليمه وأخلاقياته. ومن بين هذه الملايين المسلمة غير العربية أعداد كبيرة تنتمى إلى فئات المثقفين والمفكرين الذين هم فى بحث دائب عن أبعاد ذات عمق فكري ديني عقائدي وفلسفي في إطار الإسلام. لهذه الأسباب كلها أو بعضها نجد أن ترجمة الأعمال الفكرية الإسلامية الآن أصبحت ضرورة للاستجابة إلى هذه المستجدات على الساحة الفكرية الإسلامية وليست ترفاً قاصراً على خاصة الخاصة ممن تواتيهم فرص دراسة العربية والتبحر في عوالمها بدرجة تسمح لهم بقراءة وفهم أمهات الكتب الإسلامية بلغتها الأصلية.

وربما أثرت العوامل سالفة الذكر في توجيه نشاط الترجمة الإنجليزية نحو أعمال معينة للإمام الغزالي. وهى الأعمال التي تزود المسلم المثقف المفكر. أو المعتنى بدراسة الفكر الإسلامي والتعمق فيما وراء قواعد الإسلام الخمسة. نجد إصدار هذه الترجمات يتسم بشيء من التخفيف والتجزئة للأعمال الغزالية الكبيرة مثل كتاب «أحياء علوم الدين» مثلاً. فقد تم إصدار عدة فصول منه فى كتيبات مستقلة مثل: كتاب «القواعد» ترجمة القسيس أدوين كالفرى تحت عنوان Worship in Islam واشترك فى نشره قسم الدراسات الشرقية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة مع شركة لوزاك البريطانية عام ١٩٥٧م[1]. وبين سنتى ١٩٦٢م و١٩٩٠م نشرت سبعة أبواب أخرى

(١) اعتمدت فى تحليل موضوع الترجمات الانجليزية المعاصرة على القائمة التي أعدها كبير خان ونشرها تحت عنوان مختارات من الكتابات بقلم وعن الغزالي في اللغة الانجليزية A select Bibliography of Writing by and About Al-Ghazali in English وهو يقدم لهذه القائمة بفقرتين عن حياة [illegible]ي ويرى أنه لم يهمل ويعادى الفلسفة والفلاسفة بصفة عامة. ويقول

من الاحياء قام بترجمة ثلاثة منها نبيه فارس. وهى «قواعد العقائد» نشر سنة ١٩٦٣م؛ و«أسرار الطهارة» سنة ١٩٦٦م، ثم «أسرار الصوم» سنة ١٩٦٨م. أما الأربعة أبواب الأخرى فهى كما يلى: «كتاب الخوف والرجاء» ترجمة ويليام ماكينى سنة ١٩٦٢م؛ و«الرسالة القدسية» ترجمة عبد اللطيف الطيباوي ونشر عام ١٩٦٥م. وكتاب «آدب المعيشة وأخلاق النبوة» ترجمة زولوندك ونشر عام ١٩٦٣م، وأخيراً كتاب «الأذكار والدعوات» ترجمة ناكامورا ونشر عام ١٩٩٠م.

وقد ترجم ونشر كتاب «إحياء علوم الدين» كاملاً مرتين إحداهما على يد بانكى بيهاري فى انجلترا سنة ١٩٧٢م والأخرى قام بها فظْل (فضل) الكريم فى نيودلهى سنة ١٩٨٢م.

ومع أن بقية المؤلفات الأخرى للغزالي لم تحظ بما حظي به الأحياء. إلا أن ما ترجم من مؤلفاته الأخرى يدور فى معظمه حول الموضوعات التي يقبل عليها المسلم غير المتفلسف أو المتكلم. ومن هذه الأعمال: «الاقتصاد فى الاعتقاد» ترجمة عبد الرحمن أبو زيد ونشر فى لاهور سنة ١٩٧٠م؛ وكتاب «المقصد الأسنى فى أسماء اللّه الحسنى» وقد ترجم مرتين قام بالأولى: روبرت تشارلز ستادل ونشرت فى نيجيريا سنة ١٩٧٠م، بينما قام بالأخرى دكتور دوريل ونزيه ضاهر ونشرت فى لندن سنة ١٩٩٢م، ومنها كذلك كتاب «من هنا نعلم» ترجمة إسماعيل رجائى الفاروقى. ونشرت فى

أن الغزالي قد وضع ما يقرب من ٤٠٠ مؤلف إلا أنه اختار منها بعض ما ترجم إلى الانجليزية فقط. نشرت هذه القائمة في مجلة Islamic Culture، عدد أكتوبر ١٩٩٦م. حيدر آباد بالهند.

واشنطن العاصمة سنة ١٩٥٣م؛ وكتاب «مشكاة الأنوار» ترجمة و.هـ. ت. جيرونر. ونشر في نيودلهي سنة ١٩٨١م وكان قد نشر مرة سابقة في لاهور سنة ١٩٥٢م؛ وكتاب «المنقذ من الضلال» وقد ترجم ونشر مرتين الأولى في انجلترا سنة ١٩٥٣م. وقام بها كلودفيلد. والثانية نشرت في بوسطن سنة ١٩٨٠م وقام بها ر.ج. مكارثي.

وكما نلاحظ فإن الأعمال آنفة الذكر تدور كلها في فلك الأمور التعبدية أو التصوف. كما يلاحظ أيضاً أن الكثير من أسماء المترجمين وأماكن النشر يوحي باستهداف القارئ المسلم والاهتمام الإسلامي بالغزالي كمفكر مسلم مؤمن يستلهم القارئ من كتاباته قواعد السلوك والأخلاق والعبادات الإسلامية التي تزكي إيمانه وترتفع بعقيدته إلى درجة اسمى دون أن تثير في نفسه أو في فكره ما يمكن أن يثيره الجدل الفلسفي أو الكلامي. غير أننا لا نغفل أيضاً أن كتابَيْ «مقاصد الفلاسفة» و«تهافت الفلاسفة» قد ترجما كذلك إلى الانجليزية وصدر أولهما في تورنتو (كندا) سنة ١٩٣٣م ترجمة ج. موكلي. وصدر الآخر في لاهور سنة ١٩٥٨م بترجمة أحمد كمالي ويلاحظ أن كتاب التهافت قد تولت إصداره الجمعية الفلسفية الباكستانية.

وقد صاحب حركة الترجمات الانجليزية هاته صدور عدد من الكتب والرسائل الجامعية والمقالات تناولت تحليل وإجراء دراسة مقارنة للفكر الغزالي بلغ عددها سبعة عشر كتاباً واثنتين وعشرين رسالة جامعية. من بينها اثنتا عشرة رسالة في جامعة ادنبره وحدها. واثنتين وثلاثين مقالة موزعة بين المجلات المتخصصة في العالم الإسلامي وغير الإسلامي. وتعكس اسماء الكتاب والباحثين وعناوين المقالات والكتب والرسائل تزايد اهتمام المسلمين المعاصرين أنفسهم بهذا النوع من الدراسة وازدياد دراسة وتحليل

الموضوعات الإسلامية كما عرضها الغزالي في أعماله غير الجدلية أو الفلسفية والكتابة عنها باللغة الانجليزية. ويمكن أن نستنتج من هذا أن تقديم الغزالي والتعريف به وبأعماله وآرائه مترجماً إلى الإنجليزية فى العصر الحديث يعكس الاستجابة لحاجة القارئ المثقف المسلم والدارس غير المسلم للإسلام بلغة غير اللغة العربية. وهي في هذه الحالة اللغة الانجليزية. ويمكن أن نقول بلا تردد أن ما ينطبق على اللغة الانجليزية هنا قد ينطبق على اللغة الفرنسية والالمانية وربما الاسبانية والروسية وبدرجة أكبر أو أقل على اللغات الإسلامية الأخرى كالفارسية والأوردبية والماليزية والاندونيسية وغيرها.

واليوم ونحن نحتفى بصدور طبعات لترجمات انجليزية جديدة لكتابين من كتب الغزالي «تهافت الفلاسفة» و«مشكاة الأنوار»[1] كجزء من ندوتنا هذه لا نملك إلاَ أن نثير التساؤل مرة أخرى: لماذا ترجمة أخرى ولماذا هذه الأعمال بالذات؟ ومن هو المترجم؟ وما هو أسلوب الترجمة هل هو عصري يسهل فهمه على القارئ المتعلم غير المتخصص أم ينتمى بأسلوبه ومفرداته إلى عصور سابقة و... و... إلخ؟

إن الإجابة على هذه الأسئلة تحتاج إلى بداية بحث جديد، لكنني أكتفي الآن بالقول إنه: ربما تحمل كلمة الدكتور دان بيترسون من جامعة بريجهام يانج إجابة جدُّ جزئية عن هذه الأسئلة. فقد قال: «إن الذي دفعه إلى التفكير في نشر هذه الأعمال هو تقريب الفكر الإسلامي إلى القارئ باللغة

(١) صدر كتاب «تهافت الفلاسفة» سنة ١٩٩٧م بترجمة مايكل مرمورا ثم اعيد طبعه سنة ٢٠٠٠م بعد إجراء بعض التصحيحات على النص العربى.

الانجليزية غير المتخصص». وذلك إيماناً منه بأن تيسير قراءة هذه الأعمال وإتاحة الفرصة لاقتنائها يعد أفضل وسائل التعارف على عقلية الآخر وتفهم خلفيته وتراثه الثقافي. والآخر هنا هو المسلم بالمعنى العام الذى شوهته ولا تزال تسئ إليه العقلية الغربية من خلال وسائل الإعلام غير المستنيرة. وأضيف إلى ذلك أن إصدار هذه الكتب في طبعات مزدوجة اللغة إنما يخدم أيضاً القارئ العربي ويتيح له الإلمام بالأسلوب الإنجليزي في التعبير عن تلك الأفكار إما كنشاط تحصيلي تعليمي أو كنوع من الأثراء اللغوي والثقافي بصفة عامة.

وختاماً فإني أشكر كل من ساهم في تنظيم وتنفيذ هذه الندوة وكل الزملاء الذين شاركوا فى البحوث والمداخلات التي استفدت منها أيما استفادة. أسأل اللّه أن يديم هذه اللقاءات وأن يلهمنا الاستفادة منها وأن يجعل كلا منها مناسبة تقارب بيننا فى طريق اللّه اخوانا.

عبد الرحمن الكواكبى

(١٢٦٥ - ١٣٢٠هـ/ ١٨٤٨-١٩٠٢م)

أ.د. محمد إبراهيم الجيوشى(*)

السيد عبد الرحمن الكواكبى واحد من الأعلام البارزين في حياة هذه الأمة، والعاملين على نهضة الشرق والمسخرين إمكاناتهم الفكرية والعلمية فى الدعوة إلى نهضة العالم الإسلامي، واحتلال المكانة اللائقة به فى تاريخ الحضارة الإنسانية. لما يتمتع به من أسباب تدعو إلى القيادة والسيادة والتقدم والرقى وفى مقدمتها المبادئ السامية التى حفل بها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. ولذلك كان مثيراً للدهشة أن تكون تلك المبادئ بأيدى المسلمين يتدارسونها ليل نهار وهم غافلون عنها يغطُّون فى سبات عميق من التأخر والانحطاط الفكرى والاجتماعى، فكان ذلك داعيا له ولأمثاله من المصلحين والمفكرين أن يبحثوا عن أسباب هذا التأخر، ويكشفوا عنها حتى يمكن التغلب عليها والتخلص من آثارها المدمرة التى جعلت الشعوب الإسلامية تواجه هذا التأخر وتعيش هذا الوضع المأساوى.

وقد شهد القرن الرابع عشر الهجرى، التاسع عشر الميلادى حركة يقظة وصحوة شملت أنحاء العالم الإسلامي، فهبّ عدد من القادة والمفكرين فى البحث عن الأسباب التى جعلت المسلمين فى المؤخرة وصاروا هدفاً

(*) الأستاذ بكلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة جامعة الأزهر.

لدول الغرب تستعمر بلادهم وتسومهم سوء العذاب. وفي رأيى أن ذلك يمثل حلقة من حلقات الحروب الصليبية التى تعمل بدون كلل على طمس معالم الإسلام والقضاء على الهوية الإسلامية، وإشعار المسلمين بأنهم أقل من سواهم من الشعوب المسيحية. ولازالت هذه سياسة الغرب حتى الآن.

هذه الأوضاع البائسة التى عمت العالم الإسلامي جعلت المستنيرين من أبناء المسلمين يسعون لإخراج أمتهم من هذا الشقاء. وكذلك قام عدد منهم بدعواته الإصلاحية فى كل بلد من بلاد المسلمين تقريبا. ففى مصر كانت دعوة جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده. وفى المغرب العربى كانت الدعوة السنوسية التى أخذت على عاتقها أن تربى جيلاً يعتز بدينه ويفهمه الفهم الصحيح. ويتمسك بأخلاق الإسلام وقيمه. ويعمل جاهداً على إيقاظ بنى جلدته ويدفعهم إلى الأخذ بالأساليب التى يقتضيها العصر من دراسة العلوم الحديثة وإنشاء الصناعات وإقامة المشروعات التى تمد الشعوب بما تحتاج إليه والأخذ بأساليب العصر فى دراسة العلوم الرياضية والطبيعية والعسكرية.

وفي سوريا قاد حملة التنوير السيد عبد الرحمن الكواكبى. وحينما نبحث عن قاسم مشترك بين أصحاب هذه الدعوات نجد أن اهتمام هؤلاء المصلحين ينصب على إيقاظ الشعوب الإسلامية من سباتها وتقديم المناهج التى تعينهم على الخروج من حالة الخمول والفتور التى أدت بهم إلى هذا التأخر المخيف. فبعض بلاد المسلمين كانت تعانى من وطأة الاستعمار الغربى كما كان الحال فى المغرب العربى الذى وقع تحت الاستعمار الفرنسى ثم الإيطالى فى ليبيا. ومصر والسودان والهند وبعض البلدان

الأخرى التى ابتليت بالاستعمار الإنجليزى، وأندونيسيا التى عانت من الاستعمار الهولندى. والأجزاء التى لم تستعمر من الغرب كانت تعانى من استبداد الحكام وعسف الولاة وبطشهم بالشعوب كما كان الحال فى سوريا ولبنان[1].

وفى حلب بسوريا نشأ الكواكبى في أسرة عريقة النسب والجاه ومعروفة المكانة وقد تشرب الكواكبى من نشأته فى أسرته أنبل القيم وأسمى الأخلاق فنشأ على المروءة والصراحة والسماحة والرجولة والشجاعة التى تدفعه إلى إبداء رأيه فيما يراه من أوضاع سواء رضى أصحاب النفوذ والسلطان عن رأيه هذا أو لم يرضوا. إنما كان همه أن يقف بجانب الحق مهما كان الثمن وأن ينتصف للضعيف وأن يدفع الظلم عن المظلوم مهما كلفه ذلك.

وكان قد تهيأ له فى فترة صباه وشبابه من الوسائل ما أعانه على أن تصبح هذه الأخلاق ملكة، يصدر عنها ويلتزم بها، فقد توفيت والدته وهو في سن لم يبلغ السادسة من عمره. وكانت له خالة ذات مواهب وثقافة عالية تعتبر نادرة في نساء زمانها وكانت تعيش في مدينة أنطاكية فقامت على رعايته ولقنته كل ما تحمله من قيم وما تلتزم به من أخلاق وظل في رعايتها يتعلم منها ويأخذ عنها على مدى ثلاث سنوات ثم عاد إلى حلب وتولى والده القيام على توجيهه وتثقيفه، وكانت لهم مدرسة تسمى المدرسة الكواكبية كان أبوه يتولى التدريس بها إلى جانب مجموعة من العلماء

(١) كان ذلك قبل الاستعمار الفرنسى.

الأجلاء. وكان أبوه كذلك يقوم بالتدريس فى الجامع الأموى بحلب. فى هذا الجو العلمى نشأ عبد الرحمن الكواكبى فحفظ القرآن الكريم واستوعب المناهج التى كانت تدرس فى مدرسة أسرته. وكانت تمضى على النظام المتبع فى الأزهر فدرس النحو والفقه وعلوم العربية والعلوم الإسلامية الأخرى.

ولما بلغ الحادية عشرة من عمره عاد إلى أنطاكية فقضى بها عاماً قام فيها على توجيهه عم والدته وأحد أقاربه من جهة أمه. وكانا من المشهود لهما بالعلم. والمكانة المرموقة إذ كان أحدهما عضو شورى الدولة. والآخر كان مشهوداً له حتى إن الخديوى توفيق لم يجد أفضل منه ليقوم على تربية ابنه عباس حلمى. ولعل هذه الصلة كانت سبباً فى أن عباس حلمى قد هيئا له الأسباب لما هاجر إلى مصر لينشر آراءه وأفكاره ولم يكتف بذلك فقد أخذ يدرس العلوم الرياضية والطبيعية. وعكف على قراءة كتب التاريخ والقانون ومنها قوانين الدولة العثمانية وهيأ له والده من درس على يديه اللغتين الفارسية والتركية مما مكنه أن يقرأ ما كتب في هاتين اللغتين إلى جانب العربية وبخاصة اللغة التركية فقد كان بعض الأتراك الذين درسوا علوم الغرب يكتبون عن علوم الغربيين ودراساتهم ومناهج حياتهم ووسائل عيشهم ونظم الحكم عندهم مما جعله يقف على الفروق الهائلة التى يتميز بها شعوب الغرب عن شعوب العالم الإسلامي. وأدرك أن التعليم والحرية. والحفاظ على كرامة الإنسان وقيمته هيأت للشعوب الغربية أن تتقدم وترتقى في حين أن العالم الإسلامي محروم من التعليم والحرية فقد

كان الجهل والاستبداد آخذين بزمام الشعوب الإسلامية. فهانت على نفسها وعلى الآخرين.

في خضم الحياة

وماكاد الكواكبى يبلغ العشرين حتى أخذ ينغمس فى الحياة العملية. ففى سن الثانية والعشرين عمل محرراً فى جريدة ..فرات.. وكانت تصدر باللغتين العربية والتركية وكانت الجريدة الرسمية التى تصدرها الحكومة. ولم يكد يمضى عام على التحاقه بالجريدة حتى صار محرراً رسمياً بها براتب محدد.

ويبدو أن العمل بالصحافة قد استهواه أو صادف رغبة عنده إذ وجد فى الصحافة متنفساً يعبر فيها عن آرائه وملاحظاته فأنشأ جريدة عام ١٨٧٨ اسماها « الشهباء » يقول سامى الدهان: « وهى أول جريدة عربية صدرت فى حلب »، وينقل عن كامل الغزى صديق الكواكبى قوله: «إن هذه الصحيفة كانت أول معلن أذاع بين الناس فضل هذا العبقرى. وكشف لهم عما كان منطوياً عليه من المنزلة الرفيعة في عالم الأدب والسياسة، ولذا اغتبط الناس بهذه الصحيفة وأقبلوا عليها إيمّا إقبال. غير أنهم لسوء الحظ لم يتمتعوا باستجلاء محاسن هذه البكر الوحيدة سوى أيام قلائل حتى فاجأها القدر بانقضاء الأجل[1]».

(١) عبد الرحمن الكواكبى. صـ ١٩ تأليف سامى الدهان.

ولم يكد يصدر من الجريدة خمسة عشر عدداً حتى أصدر والى حلب قرارا بإغلاقها. لما اشتملت عليه من نقد لأعمال الوالى ومعاونيه فى الولاية. وكانت كما يقول الدهان تشير من طرف خفى إلى استبداد السلطان عبد الحميد وحرصه على تثبيت سلطانه وكان هذا منهجاً غير مألوف في الصحف التى كانت تكيل المديح للسلطان وتضفى عليه من الألقاب ما لا يليق به إلا الخالق جل وعلا من مثل قولهم ملجأ الخلافة وبانى الدنيا. وظل الله فى الأرض والسلطان الأعظم والذات والأقدس[1].

ولكن الفتى المتحمس لم يستكن لهذا الإغلاق فأنشأ جريدة أخرى عام ١٨٧٩م سماها .. الاعتدال .. وكانت تصدر باللغتين العربية والتركية. وأخذ يكتب فيها داعياً إلى حق قومه فى الحرية منددا بالاستبداد وخنق الحريات مما سبب قلقاً للحكومة فخشيت من انطلاق هذا التيار بين الشباب مما يصعب فيما بعده إيقافه فبادرت بإغلاق الجريدة. وقد ظل الكواكبى يعمل فى المجال الصحفى خمس سنوات نضج فيها قلمه وارتقى أسلوبه. واستقامت عبارته حتى تطلع كثيرون ممن يعملون فى حقل الكتابة ويعالجون السياسة أن يصلوا إلى ما وصل إليه.

ويبدو أن السلطات أرادت أن تحتوى هذا النشاط المتفجر فاصدرت قرارا بتعيينه عضواً فخرياً فى لجنتى المعارف والمالية في عام ١٨٧٩ ثم عين فى العام التالى عضواً فخرياً فى الأشغال العامة ثم محرراً للمقاولات. ثم أسند إليه رئاسة قلم المحضرين فى ولاية حلب ثم عضواً فخرياً فى لجنة

---

(١) عبد الرحمن الكواكبى. صـ٢٠. مرجع سابق.

امتحان المحامين ثم تنقل فى شغل عدد من وظائف الدولة مديراً فخرياً لمطبعة الولاية، فرئيساً للأشغال العامة فعضواً فى محكمة التجارة بولاية حلب، وكانت هذه السنوات التى قضاها فى وظائف الدولة قد صقلته وزادت من حصيلة تجاربه وأطلعته على كثير من أعمال الدولة. وعن أثر ذلك فى الكواكبى يقول سامى الدهان: «وهذه المرات التى شغلها الشاب عجمت عوده، ووقفته على أعمال الدولة، فارتقى من عضو إلى رئيس في كثير منها، وتسلم المناصب الدقيقة – كما نقول اليوم – ولاشك فى أنه كان فيها موضع الثقة والإعجاب لعلو ثقافته، وسمو نفسه وسعة مداركه، وحبه لبنى قومه، وسعيه فى الإصلاح، واعتقاده بأن الموظف ملك الدولة والأمة وهو أجير لها. يعمل لخيرها ورفعتها وسعادتها فى وطنية صادقة وإخلاص خالص»[1].

وكان لصراحته ونقده للوالى ورجاله أثر فى إفساد العلاقة بينهما، وأخذ الوالى يشدد فى مراقبته بعد أن عرف أن ما يكتب فى الصحف التركية واللبنانية من مقالات تندد به مستمد من كتابات الكواكبى، فازدادت مراقبته له. فلم يقبل هذه المراقبة ولم تسمح نفسه بإصلاح أموره مع الوالى فاستقال من وظيفته. وافتتح مكتباً للمحاماة، يقدم فيه الفتاوى لأصحاب الدعاوى. ويكتب الدعاوى لمن وقع عليهم الظلم من أبناء الشعب ضد الحكام، ويرشد المحامين إلى ما يصعب عليهم فهمه من الأحكام والقوانين، وصار مكتبه هذا بمثابة مأوى لمن وقع عليهم ظلم الوالى.

(١) عبد الرحمن الكواكبى: صـ ٢١. مرجع سابق.

فيوجههم الكواكبى إلى الطريقة التى تمكنهم من التخلص من عدوان الوالى وترفع الظلم عنهم. ويقول د. سامى الدهان أنه كان يشجع المظلومين على رفع ظلامتهم. ويتولى بنفسه تحرير الكتب والشكاوى ويرسلها عن طريق البريد أو البرق[1].

وزادت حدة العداء بين الوالى والكواكبى. وخلال هذه الفترة وقع خلاف بين الوالى وقنصل انجلترا. وأرسل أحد رجال السفاره الإنجليزية للتحقيق فى أمر هذا الخلاف بعد أن تم الاتفاق على ذلك مع الباب العالى. وتردد المندوب الإنجليزى مرات على الكواكبى غير أن الكواكبى لم يسمح لنفسه أن ينصر القنصل الإنجليزى على الوالى وكانت النتيجة أن اقترح المندوب عزل القنصل عن حلب ومع هذا تمادى الوالى فى عدائه للكواكبى حتى اتهمه بأنه اشترك فى مؤامرة لقتله. وألقى به فى الحبس هو وجماعة ممن كانوا يلوذون به شاكين من ظلم الوالى. وكان هناك موفد من السلطان لبحث الأمور والوقوف على الحقيقة فعلم بما أقدم عليه الوالى. وكتب بذلك إلى السلطان فاصدر أمره بإطلاق سراح الكواكبى ومن معه وتنحية الوالى وإرساله إلى الحجاز.

وقد لوحظ أن الكواكبى كلما تولى أمراً ضبطه وحسن أعماله. وحاول إصلاح الأوضاع فى أى عمل يسند إليه.

---

(١) عبد الرحمن الكواكبى: صـ٢٢. مرجع سابق.

شخصيته وأخلاقه:

كان للتربية التى تلقاها الكواكبى والأخلاق والقيم التى ورثها عن أسرته أبعد الأثر فى تكوينه الشخصى وتمتعه بطائفة من الأخلاق تدفع الآخرين إلى تقديره واحترامه يقول عن شخصيته أحمد أمين: «يستعصى على ناقد الأخلاق نقده. مؤدب اللسان. فلا تؤخذ عليه هفوة. يزن الكلمة قبل أن ينطق بها وزناً دقيقاً. حتى لو ألقى عليه السلام يفكر فى الإجابة. متزن فى حديثه. إذا قاطعه أحد سكت. وانتظر حتى يتم حديثه. ثم يصل ما انقطع من كلامه. فيؤدب بذلك محدثه. نزيه النفس. لا يخدعها مطمع. ولا يغريها منصب. شجاع فيما يقول ويفعل. مهما جرت عليه شجاعته من سجن وضياع مال وتشريد. وهو ـ مع أنفته وعزته وصلفه على الكبراء – متواضع للبائسين والفقراء. يقف دائماً بجانب الضعفاء. ويشع على من يجالسه الاتزان والتفكير الهادئ وحب الحق. ونصرة المبدأ. والتضحية للفضيلة[1].

وقد تعرض فى حياته نتيجة لهذه الشخصية التى تميز بها لكثير من المتاعب والمصاعب من تقديم للمحاكمة إلى ضياع للأموال إلى صراع متواصل مع الولاة الذين يوقعون الظلم على الناس. ويستغلون سلطانهم لتحقيق مآرب غير مشروعة فتارة ينتصر عليهم وتارة يلقى به فى السجن ويفقد أمواله. ولكن ذلك كله لم يجعله يتخلى لحظة عما التزم به من قيم وأخلاق

(١) زعماء الإصلاح. صـ٢٦٧.

غير أنه لما وجد أن بقاءه فى حلب لن يمكنه من الجهر بما يراه صواباً، شد رحاله إلى القاهرة وظل بها حتى لقى ربه عام ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م. وفى خلال إقامته بالقاهرة وجد متنفساً يعبر عن آرائه فى الإصلاح والكشف عن الأسباب التى يعانى منها العالم الإسلامي سواء مما يتعلق باستبداد الحاكمين أو جهل وتواكل الشعوب التى توالت عليها الكوارث فأصيبت بحالة من الجمود تحتاج إلى من يحركها. وينبهها حتى تفيق مما أصيبت به.

رحلاته :

كانت حالة العالم الإسلامي قد شغلت فكر الكواكبى. وأخذ يفكر فى وسيلة يكشف بها عن أسباب هذا الضياع الذى يلف المسلمين. فقام بعدة رحلات إلى إفريقيا وآسيا وبلاد العرب درس فيها أوضاع الشعوب وأحوال تلك البلاد. وما فيها من ثروات وكان قد ذهب إلى تركيا وظل بها فترة يرقب ويسجل ما يراه ويختزن فى ذاكرته ما لا يستطيع تسجيله. وكان قد أهمه وشغل فكره الأوضاع التى تسود العالم الإسلامي وأخذ يفكر فى كيفية النهوض بالمسلمين وانتهى إلى أن سبب تأخر العالم الإسلامي يرجع إلى الجهل وعدم الحرية والاستبداد وسيطرة الخرافات وإسناد الأمور إلى غير أهلها وكان الرجل قد نضجت تجاربه وأخذ يقارن بين ما يعانيه العالم الإسلامي من تأخر وما يعيش فيه الغرب من تقدم وما يتمتع به سكانه من حريات وحقوق تدفع الحياة إلى التقدم وتعود بالرخاء على الشعوب. فأخذ يفكر فى مشروع حضارى يزيل عن العالم الإسلامي ما يعانيه من شقاء.

منهجه في الإصلاح:

ضمن الكواكبي منهجه في الإصلاح كتابين نشرهما على الناس وسجل فيهما رأيه في الإصلاح وتحقيق نهضة العالم الإسلامي وكان قد نشر جانباً من هذين الكتابين في بعض الصحف.

أما الكتاب الأول: وهو أم القرى فقد درس فيه أحوال العالم الإسلامي وسجل ما رآه في كل بلد من أسباب أدت إلى التأخر أو الفتور كما سماه، فدعا إلى إقامة جميعه تضم مندوبين عن بلاد المسلمين يدرسون أوضاع العالم الإسلامي ويقترحون ما يرونه من وسائل للخروج من هذا الوضع الذى سماه بالفتور. ويضع أساساً لنهضة المسلمين واقترح أن يكون الاجتماع في مكة المكرمة باعتبارها مهبط الوحي والرسالة وربط ذلك الاجتماع بموسم الحج وفي ذلك إشارة إلى فهم الكواكبي لما يهيئة الحج من لقاء أبناء العالم الإسلامي يتدارسون مشاكلهم ويقترحون الحلول لها ويتحدث عن السبب الداعي إلى تشكيل هذه الجمعية التي سماها «جمعية أم القرى» فيقول: «إنه لما كان عهدنا هذا وهو أوائل القرن الرابع عشر[1] عهداً عمّ فيه الخلل والضعف كلمة المسلمين، وكان من سنة الله في خلقه أن جعل لكل شيء سبباً. فلابد لهذا الخلل الطارئ والضعف النازل، من أسباب ظاهرية غير سر القدر الخفي عن البشر. فدعت الحمية بعض أفاضل العلماء والسراة والكتاب السياسيين للبحث عن أسباب ذلك. والتنقيب عن أفضل الوسائل

(١) الهجرى.

للنهضة الإسلامية. فأخذوا ينشرون آراءهم فى ذلك فى بعض الجرائد الإسلامية الهندية والمصرية والسورية والتاتارية وقد اطلعت على كثير من مقالاتهم الغراء فى هذا الموضوع الجليل، واتبعت أثرهم بنشر ما لاح لى فى حلّ هذا المشكل العظيم.

ثم بدأ لى أن أسعى فى توسيع هذا المسمى بعقد جمعية من سراة الأمة فى مهد الهداية أعنى مكة المكرمة فعقدت العزيمة متوكلاً على الله تعالى على إجراء سياحة مباركة بزيارة أمهات البلاد العربية، لاستطلاع الأفكار وتهيئة الاجتماع فى موسم أداء فريضة الحج[1].

وقد سجل الكواكبى آراءه فى دراسة أحوال المسلمين فى أنحاء العالم الإسلامي على ألسنة مندوبين من مختلف الأنحاء يعرضون أسباب التدهور الذى أصيب به العالم الإسلامي ويقترحون الحلول للخروج من هذا الوضع السيئ. وقد عرض هذه الدراسة فى اثنى عشر اجتماعا جعل رئاسة الجمعية إلى ممثل مكى وسكرتاريتها إلى «السيد الفراتى» يعنى نفسه. وقد حدد فى الاجتماع الأول القضايا الأساسية التى ستقوم الجمعية بدراستها واقتراح الحلول لها ولخصها فى عشر مسائل هى:

١- موضع الداء. ٢- أعراض الداء.

٣- جراثيم الداء. ٤- ما هو الداء.

٥- ما هى وسائل استعمال الدواء.

---

(١) أم القرى . صـ٣. ٤.

٦- ما هى الإسلامية. ٧- كيف يكون التدين بالإسلامية.

٨- ما هو الشرك الخفى. ٩- كيف تقاوم البدع.

١٠- تحرير قانون لتأسيس الجمعية[١].

ويجب أن نشير هنا إلى أن هذه الاجتماعات وتلك الجمعية والقضايا التى أثيرت فيها والأعضاء الذين اشتركوا فى المناقشات التى تناولت الأوضاع فى العالم الإسلامي كل ذلك كان من تصور الكواكبى وتخيله فى اقتراح مشروع لنهضة العالم الإسلامي كما سجل ذلك حفيده وسميه فى تقديم الكتاب. وأنه كتب هذا الكتاب وكذلك كتاب طبائع الاستبداد قبل مغادرته حلب إلى القاهرة.

وفى الاجتماع السابع للجمعية لخص الكواكبى أسباب الفتور الذى أصاب العالم الإسلامي فى ثلاثة أنواع أساسية يحتوى كل منها على عدة أسباب:

أولاً: أسباب دينية ويندرج تحتها ثلاثة وعشرون سبباً.

ثانياً: أسباب سياسية ويندرج تحتها ستة عشر سبباً.

ثالثاً: أسباب أخلاقية ويندرج تحتها سبعة عشر سبباً[٢].

---

(١) أم القرى . صـ١٩

(٢) أم القرى . صـ١٥٨-١٦١.

وبعد أن يعرض هذه الأسباب التى تناولها المجتمعون وبعد أن يعرض الأسباب التى جاءت على ألسنة أعضاء الجمعية يشير الكواكبى إلى أن الحكومات الإسلامية لها دور كبير فى وجود الخلل الذى أصيب به العالم الإسلامي فيضيف عشرين سبباً ناتجة عن الخلل السياسى والإدارى ويلقى التبعة الكبرى في ذلك على المملكة العثمانية وفى ذلك يقول: «حيث كان للخلل الموجود فى أصول إدارة الحكومات الإسلامية دخل مهم فى توليد الفتور العام فإنى أضيف إلى الأسباب التى سبق البحث فيها من قبل الإخوان الكرام الأسباب الآتية أعددها من قبيل رؤوس مسائل فقط حيث لو أردت تفصيلها وتشريحها لطال الأمر ولخرجنا عن صدد محفلنا هذا.

والأسباب التى سأذكرها هى أصول موارد الخلل فى السياسة والإدارة الجاريتين فى المملكة العثمانية. التى هى أعظم دولة يهم شأنها عامة المسلمين. وقد جاءها أكثر هذا الخلل فى الستين سنة الأخيرة أى بعد أن اندفعت لتنظيم أمورها. فعطلت أصولها القديمة. ولم تحسن التقليد ولا الإبداع. فتشتت حالها. ولا سيما فى العشرين سنة الأخيرة التى ضاع فيها ثلثا المملكة. وخرب الثلث الباقى وأشرف على الضياع لفقد الرجال وصرف السلطان قوة سلطنته كلها فى سبيل حفظ ذاته الشريفة وسبيل الإصرار على سياسة الانفراد»[1].

ثم يتابع ملاحظاته فيقول: وأما سائر الممالك والإمارات الإسلامية فلا تخلو أيضاً من بعض هذه الأصول. كما أن فيها أحوالاً أخرى أضرّ وأمرّ

---

(1) أم القرى . صـ١٦٢.

يطول بيانها واستقصاؤها. ثم يضيف واحداً وعشرين سبباً تتعلق بالسياسية والإدارة العثمانيين. ويتبعها بتسعة أسباب تحت عنوان أسباب شتى.

ويلاحظ أن الكواكبى يرى أن الخلافة يجب أن تكون عربية قرشية ومقرها مكة.

وهناك ملحق قد سجله فى نهاية الكتاب وهو عبارة عن حوار دار بين الصاحب الهندى وبين أحد الأمراء خلاصته أن الكواكبى يرى أن هناك فرقاً بين الخلافة والملك ويفهم مما سجله أنه يرى أن الخلافة تكون أمراً شرفياً ينطبق عليها المقولة السائدة فى الملكية الدستورية أن الملك يملك ولا يحكم.

أما المُلْك فإنه أحياناً يأتى بأمور رعاية للملك ولكنها مصادمة للدين. ويضرب مثلاً لذلك أن محمد الفاتح وهو أعظم سلاطين آل عثمان قد اتفق مع فرديناند وإيزابيلا على تمكينهما من إزالة ملك بنى الأحمر آخر الدول العربية فى الأندلس ورضى بالقتل العام والإكراه على التنصر بالإحراق وضياع خمسة عشر مليوناً من المسلمين حين لم يبعث أساطيله لإغاثة المسلمين وكان ذلك منه مقابلاً لما قامت به روما من خذلان الإمبراطورية الشرقية عند مهاجمته مقدونيا ثم القسطنطينية[1].

والسلطان سليم غدر بآل العباس وأستأصلهم حتى إنه قتل الأمهات لأجل الأجنة وبينما كان يقتل العرب فى الشرق كان الأسبانيون يحرقون

(١) هذا رأى يخالف الواقع لأن الفاتح كان قبل ما حل بالأندلس من نكبات.

بقيتهم في الأندلس وقد سعوا في سبيل ملكهم في انقراض خمسة عشر دولة وحكومة إسلامية ومنها أنهم أغروا الروس وأعانوهم على التتار المسلمين وهولندا على الجاوة والهنديين.

ويعدد أعمالاً أخرى قام بها سلاطين الترك تنافى الدين مراعاة للملك كما نقول ومن يريد استيعاب ذلك يراجع ما كتبه في الصفحات ٢٢٩ – ٢٣٤ من أم القرى.

أما الكتاب الثانى الذى نشر للكواكبى فهو طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد والكتاب يتكون من ثمانية فصول ناقش فيها ألوان الاستبداد ومظاهره وآثاره المدمرة وقد نشر الكتاب مقالات متتابعة فى جريدة المؤيد بعد أن التقى بالشيخ على يوسف وكان ذلك فى عام ١٣١٨هـ/١٩٠٠ ميلادية وقد قام بتهيئة هذا اللقاء الشيخ رشيد رضا ثم طبع الكتاب بعد ذلك فى مصر. وفى مقدمته يقول عن مصادره والهدف الذى يرمى إليه من نشر هذا الكتاب «نشرت في بعض الصحف الغراء أبحاثاً علمية سياسية فى طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد منها ما درسته ومنها ما اقتبسته غير قاصد بها ظالماً بعينه. ولا حكومة مخصصة، إنما أردت بذلك تنبيه الغافلين لمورد الداء الدفين عسى يعرف الشرقيون أنهم هم المتسببون لما هم فيه. فلا يعتبون على الأغيار ولا على الأقدار. وعسى الذين فيهم بقية رمق من الحياة يستدركون شأنهم قبل الممات»[1]. ثم يقول: «وجعلته هدية منى للناشئة العربية المباركة الأبية المعقودة آمال الأمة بين نواصيهم. ولا غرو

(١) طبائع الاستبداد ص ٢٥ نشر دار النفائس.

فلا شباب إلا الشباب والله ولى التوفيق». وقد قال ناشر الطبعة الثانية من كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد. وهى كلمات حق وصيحة فى واد إن ذهبت اليوم مع الريح لقد تذهب غداً بالأوتاد، والكتاب يقع فى ثمانية فصول.

تناول الفصل الأول الحديث عن الاستبداد والدين ورد فيه على ما يقوله الغربيون من أن الاستبداد السياسى ناشئ عن الاستبداد الدينى. ورد هذه المقولة مبيناً أن الكتب السماوية تدعو إلى خشية الله وحده، وأن الإسلام هدم القواعد التى تدعو إلى الاستبداد وأقام حكومة الراشدين التى أعطت للإنسان حقه. والقرآن الكريم ملىء بالآيات التى تدعو إلى الحرية واستقلال الرأى وتثبيت الشورى حتى فى القصص الذى أورده كما جاء فى قصة بلقيس.

وفي الفصل الثانى – يناقش الاستبداد والعلم وأنه إذا كان هناك علم ومتعلمون فلن يكون هناك استبداد. وأن سبب الاستبداد هو الجهل الذى يسود الشعوب. ولذلك يحارب المستبد العلوم التى تفتح العقول وتنبه الأنفس إلى حقوقها.

والفصل الثالث يتحدث عن الاستبداد والمجد ويفرق بين المجد والتمجد فالمجد أمر طبيعى تتطلع إليه النفوس. أما التمجد فأصحابه يمثلون المتسلقة الذين يترامون على أقدام المستبد فهم أعداء العدل.

وفي الفصل الرابع يتحدث عن الاستبداد والمال وأن عدم العدالة الاجتماعية يؤدى إلى الاستبداد. وعدم التوازن فى توزيع الثروة يدعو

أصحاب الأموال إلى ابتلاع حقوق الفقراء والضعفاء، وقد قرر القرآن الكريم أن الطغيان نتيجة الغنى فقال: ﴿كَلا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى۞ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾[1].

وفي الفصل الخامس يتحدث عن الاستبداد والأخلاق وأن الأخلاق حينما تسود في أمة من الأمم تحميها من الاستبداد لأن أصحاب الأخلاق لا يرضون بالظلم ولا يسكتون عن الطغيان ولذلك إذا نشأ الاستبداد في أمة فإنه يفسد الأخلاق وينشر الحقد ويضعف رابطة الوطنية.

وفي الفصل السادس يناقش الاستبداد والتربية. فالاستبداد يسقم الأجسام ويفسد الأخلاق. وفي ذلك هدم لما تقوم به التربية.

وفي الفصل السابع يتناول الاستبداد والترقي ومظاهر الترقي تكون في الصحة والعلم والقوة والمال. وما لم يعترض الإنسان مانع يسلب إرادته كالعجز والاستبداد فسيعمل على رقي أموره علمياً وصحياً وثراءً وخلقياً ولذلك يقتل الاستبداد هذه القيم ويعمل المستبدون على تواريها حتى يبقى لهم سلطانهم.

وفي الفصل الثامن يناقش كيفية التخلص من الاستبداد، ويكون ذلك بنشر العلم وسيادة الأخلاق وحفظ الحقوق وسيادة القانون والعدالة في توزيع الحقوق ولا بدّ لكي يتحقق هذا أن تسود الحرية لأن الحرية إذا فقدت لا يشعر الأفراد بآلام الاستبداد.

---

[1] العلق ٦-٧

هناك مقولة ذكرها صاحب كتاب «التعاشيب» أن الكواكبى لم يأخذ حقه من التقدير لأنه ليس مصرياً وقد فاز بذلك الشيخ محمد عبده والأفغانى وهذا ليس صحيحاً فقد نشر الكواكبى كتبه فى مصر وكتب عنه أحمد أمين فى زعماء الإصلاح وفيض الخاطر وكتب عنه سامى الدهان فى سلسلة نوابغ الفكر العربى التى تنشرها دار المعارف وكتب عنه رشيد رضا فى المنار وسواهم كثير ولما مات فى مصر عام ١٩٠٢م اهتم الخديوى عباس به ونقش على قبره بيتان لحافظ إبراهيم:

هنا رجل الدنيا هنا مهبط النفى

هنا خير مظلوم هنا خير كاتب

قفوا واقرءوا أم الكتاب وسلموا

عليه فهذا القبر قبر الكواكبى

من الآثار التى ذكرت للكواكبى كتاب بعنوان «صحائف قريش» ولكنه قد ضاع فلم يعثر له على أثر على الرغم من أن الكواكبى كان قد أعده للطبع. غير أن سياحته فى بلاد الشرق والغرب لم تمكنه من طبعه.

ومن الآثار أيضاً كتاب بعنوان «العظمة للّه» وقد ذكر محمد كرد على أنه اطلع عليه ولكنه أيضاً قد ضاع فلم يعثر عليه ومن آثاره مجموعة أشعار قال عنها ابنه «إنها بلغت ثلاثة آلاف بيت من الشعر»

هـذه معالم سريعة لحياة هذا المفكر الأصيل والعالم الراسخ القدم. لعل فـى معالمهـا مـا يدفع شبابنا إلى العمل والتحلى بالقيم والأخلاق التى تبنى الأمم وتقيم الدول وتحفظ للشعوب كرامتها وحيويتها.

مكانة الحوار بين الإنسان وأخيه الإنسان

أ.د. آمنة محمد نصير(*)

تمهيد:

الحوار لغة المستقبل وهى التى تليق بالإنسان وأخيه الإنسان من أى لون ومن أى فكر أو دين. فالحوار يؤدى إلى لغة التفاهم. والتفاهم يوصل إلى السلام وأعنى به السلام بين الأديان وخاصة لأهمية الأديان فى نفوس البشر. وكذلك بين الفرقاء فى داخل هذه الأديان. كما أنه يجب ألا يغيب عن واقعنا على التأكيد على أن الحوار بين الأديان هو أساس الحوار بين الحضارات. وهو السبيل الأمثل لتحقيق التساكن الحضارى. ورد الاعتبار للدين فى الحياة العامة للبشر. وصد أخطار الالحاد والمادية. وضمان قاعدة الاستقرار والأمان للمجتمع البشرى من خلال القيم الأخلاقية لهذه الأديان السماوية حتى يتحقق التوازن النفسى والفكرى مع طبيعة البشر، وتوطيد دعائم الحضارة الإيمانية المنسجمة مع طبيعة الأشياء، وضوابط الكون.

موقف الإسلام من الحوار والعلاقات الإنسانية مع الآخرين:

لقد أسس الإسلام منهجاً متكاملاً للتعامل بين الشعوب والحضارات المختلفة فقد أقر باختلاف الناس والأجناس. وقنن هذا الاختلاف وربط المسلمين مع سائر البشر على اختلاف اجناسهم وانتماءاتهم الحضارية

(*) عميدة كلية الدراسات الإسلامية والعربية الأسبق - الإسكندرية - جامعة الأزهر

برباط من الأخوة الإنسانية النابعة من وحدة الأصل البشرى .. والزم المسلمين بالتعاون والتعايش والتعارف مع غيرهم وإشاعة الخير مع الجميع. وبين الجميع بغض النظر عن الديانة أو الجنس أو اللون:

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لتعارفُوا ﴾[1].

فالحوار بالنسبة لنا كمسلمين فريضة واجبة وضرورة شرعية .. فنحن أصحاب دعوة ورسالة عالمية لا تخص جنساً ولا لوناً. ولا عرقاً. ولا بلداً معيينا. والخطاب القرآنى يتوجه فى الكثير من آياته إلى البشر جميعاً. مؤكدا على التعايش والاخاء الإنساني مستهدفاً خير وتقدم ونماء الإنسانية كلها. وهذا كله ينطلق من إيماننا بوحدة الأخوة الإنسانية. وتتأكد الزمالة الدينية بقول الحق تبارك وتعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ على إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[2].

فالإسلام يقر بلغة التعارف والتواد على اختلافنا، ولو شاء سبحانه لجعلنا أمة واحدة يقول تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ۞ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ

(١) الحجرات. ١٣

(٢) آل عمران. ٨٤

دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[٣].

ومن الجدير بالذكر أن كلمة السلام وردت فى أكثر من مائة آية من آيات القرآن الكريم. فى حين لم يذكر كلمة «حرب» ومشتقاتها إلا فى ست آيات فقط. ومن ثم فإن السلام والسلم صميم الإسلام وتعاليمه الثابتة. والدليل على ذلك لقاء الحضارة الإسلامية بالحضارة الفارسية والهندية واليونانية. المثال الثانى: لقاء الحضارة الغربية آبان نهضتها بالحضارة الإسلامية فى الأندلس. وصقلية وغيرها من المعابر التى عبرت منها الحضارة الإسلامية إلى الغرب.

أما عن لقاء الحضارة الإسلامية وتفاعلها مع الحضارة الفارسية واليونانية والهندية. فإن المدرك لأبعاد هذا اللقاء والتفاعل. يلحظ بوضوح أن المسلمين لم يكونوا يومئذ إخلاء من أى تفتح عقلى إذ كانت نواة التفكير فيهم قد تكونت كما كانت بين أيديهم نظرية كونية شاملة أمدهم بها القرآن. فكانت بمثابة العمود الفقرى لكل تفكير عقلى وتحرك عملى وعلمى.

ولهذا أقبل المسلمون على حضارات الأمم يمتصون بسرعة فائقة ما خلفه الفرس من حكم وآداب. وخبرات سياسية مع مخالفة اليونان الاغريق من علوم فلسفية تتصادم مع الدين. وقاموا بتحرير هذه العلوم وتنقيتها من الشوائب. وتطويرها وتنميتها. وصقلها مسترشدين بالمنهج العلمى العام الذى رسمه للمسلمين من مصدر التشريع: القرآن والسنة.

(٣) الممتحنة. ٨-٩

إن الإسلام قادر على التعايش مع العقائد الأخرى. وهو مؤهل لأن يقدم إسهاماً متميزاً. لأن المنهج الإسلامى يدرك ويقدر أن الحكمة موزعة فى الأرض ومبثوثة بين مشارق الأرض ومغاربها. وأن تميز الإسلام وخصوصية ثقافته لا يعنيان كل مشابهة وتواصل بينه وبين ثقافات الشعوب. فالخلق كلهم كما يحدثنا صلى الله عليه وسلم عيال الله وهو سبحانه جعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا ويتواصلوا ويتبادلوا الحكمة والخبرة ويتبادلوا المنافع ويتعاونوا بها على البر والنماء.

وعلينا أن ندرك معنى ومغزى أن محمداً ﷺ جعل الحكمة ضالة المؤمنين وإن كانت خارج حدود الإسلام الجغرافى قائلاً: «اطلبوا العلم ولو فى الصين» وفى عهده لم يكن فى الصين مسلمون.

الإسلام ونبي الإسلام لا يرفض التعاون مع أهل الكتاب. وهجرة المسلمين من مكة طلبا للحماية عند النجاشى – وهو نصرانى. وفى قوله صلى الله عليه وسلم: «اذهبوا إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم أحد عنده». فإن العدل الذى افتقده المسلمون الأوائل فى مكة جعلهم يطلبونه عند النجاشى النصرانى هرباً من ظلم أهل مكة. فخرجوا منها سراً طلباً للعدل. وهربا من الظلم.

أن النبى ﷺ أخذ فى هجرته إلى المدينة (ابن أريقط) ولم يكن مسلماً. أنه قبل الهدية من المقوقس عظيم أقباط مصر. ومن الثابت تاريخياً أنه صلى الله عليه وسلم مات ودرعه مرهونة عند يهودى نظير دين. وليس لانعدام المال عند أصحابه. ولكن لكى يكون هناك حوار المعاملات بين المسلمين وغير المسلمين من بنى الإنسان.

ومن سمات قدرة الإسلام على التعايش مع الآخرين: أنه يقدر ظروف الحياة ومستجداتها. فنجد فقهاء الأمة يقدرون التحرك والتغير واحترام اختلاف الأماكن مثل عدم التسوية ما بين المدينة والعراق، فى الفتوى فى بعض المسائل، والشافعي كان له بالمشرق ما كان من فقه، يختلف عما أفتى به فى مصر وكل ذلك تقديراً لسير الحياة المتغيرة ووزناً لتدرجها المتطور.

وهناك تراث ضخم فى فقه المستجدات والمتغيرات فى حياة الناس.

كيف تكون لغة الحوار؟

عندما نتناول لغة الحوار علينا أن نؤكد على شقين. الأول كيف يكون الحوار بين المسلمين أنفسهم بعضهم مع بعض. ثم نتناول لغة الحوار مع الإنسان وأخيه الإنسان من العقائد الأخرى وأعنى بالذات الحوار الإسلامي المسيحى.

أولاً: أنه من الضرورى لنجاح حوارنا مع الآخر أن يسبق هذا الأخير ويواكبه ويرتبط به حوار إسلامي - إسلامي يتصل بمجمل قضايا واشكاليات الشأن الإسلامي. وتكون قضية الحوار الحضارى بالضرورة فى مقدمة هذه القضايا.

١- وعلى رأسها احترام الخلاف طالما فى مجال الاجتهاد، ومساحة الرأى والرأى الآخر وهو أمر له التقدير والاحترام فى منهج الإسلام، وإن كان فى بعض الأحيان بعيداً عن ممارسة المسلمين الفعلية فى ساحتنا الثقافية.

٢- البعد عن التكفير والتفسيق. وفرض السطوة باسم الدين.

٣- الالتزام بأدب الإسلام فى الحوار: رأينا صواب يحتمل الخطأ. ورأى غيرنا خطأ يحتمل الصواب.

٤- إننا بحاجة ملحة فى التركيز على إبراز الخاصة الإنسانية فى الإسلام على وجه ملائم بعد أن ظل طرحنا ضعيفا فى هذه الزاوية ومحدوداً. ومما يضاعف من هذه الحاجة ما نلاحظه على الصعيد الإسلامي من ضآلة الوعى بالقيم والمنطلقات الإنسانية المستمدة من شريعتنا. والتى يتعين أن تشكل نسيجاً للعلاقات والروابط الداخلية والخارجية للمسلمين فى إطارها الصحيح حتى نزيل الصور المشوهة التى تركها بعض هؤلاء من المنتمين إلى الإسلام ظلماً وعدواناً من الجهلاء وأصحاب الحمية الحمقاء باسم الدين وعرفوا بالجماعات الإسلامية.

٥- فلابد من إدراك أهمية الحوار الحضارى بدرجة كافية. وأرضية صحيحة وسليمة نستند إليها وتنطلق منها وتنمو فيها العلاقات الحوارية وتولد وتتأصل فيها التقاليد والأعراف الحوارية المتباينة والبحث عن فهم أو أرضية مشتركة وللأسف حقاً تراجع هذا المنهج الحضارى من على قائمة العلاقات بين التيارات والمدارس الفكرية على الساحة الإسلامية لحساب شيوع منهج خاطئ مما يشكل أخطر الإشكاليات فى مجتمعاتنا الراهنة.

إن منهج المواجهة والصراع والخصومة والعداء، والتجريح المستمر، وتبادل الاتهامات ومنهج الضيق بالمخالفين والمسارعة إلى اتهامهم فى أفكارهم ونياتهم وأخذهم بالشبهة وسوء الظن، أو النيل من دينهم وتقواهم وتفشى نتيجة لذلك: انقطاع سبل الاتصال والحوار .. وفقدان القدرة فى حالات كثيرة على الحوار والمناقشة والمناظرة والشورى

والتقويم والنقد الذاتي. وبروز ضروب من التخويف والإرهاب والتعصب الفكرى. دفعت بعض العلماء والمفكرين إلى العزوف عن الجهر بآرائهم والمشاركة فى إثراء وإنماء الفكر، ودفع مسيرته نحو تجاوز حالة الأزمنة التى نمر بها.

علينا أن نأخذ بمبدأ الحوار، وأن نجعله فى مقدمة اهتماماتنا فى علاقاتنا بين الأطراف المختلفة. والمدارس المتباينة. وأن نحرص على تأكيده وإشاعته فى العقل المسلم. وأن نضع له أكثر الصياغات سعة ومرونة والأسس والضوابط التى تضمن تحوله إلى ممارسة منظمة وواعية، لأنه بالحوار والثبات عليه نفتح الطريق رحباً فسيحاً لبناء علاقات صحيحة قوامها التكاتف والتفاهم والمشاركة البناءة من أجل صياغة المفاهيم والتصورات الملائمة التى تساعدنا على حل الكثير من مشاكلنا ومواجهة الكم المتراكم من قضايانا.

٦- من المؤسف حقاً أن تتهم الأديان بالإرهاب، وليس هذا الأمر خاص بالإسلام وحده، بل سبق أن اتهمت قديماً الكنيسة بما عرف بالإرهاب الكنسى حيث تم سحب الإرهاب على الدين. لا على رجال الدين، ولاشك أن أعمال رجال الدين المسيحى قد اتسمت بالتطرف والإرهاب، وتم نسبة ذلك إلى المسيحية الغراء وهى منه براء.

ويجرى اتهام الإسلام الآن بما اتهمت به المسيحية سابقاً. ونبي الإسلام يؤكد على حقائق لا تقبل الشك يقول صلى الله عليه وسلم: «ان اللّه رفيق يحب الرفق ويعطى على الرفق ما لا يعطى على سواه»

ويقول: «ان الرفق لا يكون فى شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شأنه».

٧- عرف الإنسان من القرآن الكريم ومن فعل النبي ﷺ ألواناً عديدة من الحوار مما يؤكد على سعة الشريعة الإسلامية فى تقبل وإقرار الحوار بأشكاله وألوانه. وليس بالضرورة أن من أحاوره أن يتفق معى. فهناك حوار الكفار والمشركين. وحوار مع أهل الجنة. حوار مع المنافقين. حوار مع أهل النار. حوار مع الملائكة. حوار مع العقلاء. حوار مع الأشرار. حوار الأنبياء مع أقوامهم. حوار الفلاسفة. حوار المسلمين والمسيحيين .. إلخ.

نخلص إلى أن الحوار الناجح الذى ينتهى إلى: أن كل إنسان يشرح رأيه بغير هجوم على الرأى الآخر. وبغير خصومة. وبغير اتهام فمن خالفك فى الرأى. لا تتخذه عدواً لك بل حاول أن تكسبه للتفاهم معه. قال «فولتير»: «قد أخالفك فى الرأى ولكن مستعد لأن أبذل حياتى لكى تكون لك الحرية فى توضيح رأيك».

٨- أرجو أن يأخذ رجال الدين من فقه الإسلام واحترامه لحوار الفرقاء بمنهج الإسلام فى محكم آياته: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[٤].

٩- الاهتمام بإبراز العناصر المشتركة بين الحضارات السائدة فى العالم وأن ندرك أن الاعتزاز بالهوية والخصوصية الحضارية لايعنى إهمال

---

(٤) آل عمران. ١٥٩.

الحضارات الأخرى. أو الإغلاق فى مواجهتها. وإدعاء التميز عليها ورفض نتاجها الإنسانى. فمثل هذا الموقف الانعزالى السلبى لا ينسجم مع مقتضيات الحوار ومتطلباته، وهو يصدر عن فهم غير موضوعى للتاريخ الحضارى الذى هو فى مجمله ثمرة الجهد الهائل والمتراكم للمسيرة الإنسانية على مدار التاريخ.

١٠- تفهم واقع التعدد الحضارى فى الجماعة الإنسانية المعاصرة. وأن نعلم على اليقين أن لكل أمه حضارتها وواقعها، ولكل من هذه الحضارات خصوصياته وسماته ومكوناته الذاتية، وعلينا أن نكرس مبدأ الحق فى الاختلاف الحضارى. سواء لنا أو للآخرين حتى يتحقق السلام والعدل للجميع لأن الجميع ينتمى إلى الأسرة الإنسانية وأسوق حديثاً صحيحاً عن النعمان ابن بشير: عن النبي ﷺ قال: «مثل القائم فى حدود اللّه والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها. وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً، ولم نؤذ من فوقنا فإذا تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً. وإذا أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً».

هذا هو مفهوم الإسلام لسلامة الأسرة الإنسانية من الدمار والغرق وأن على جميع أفرادها التكاتف للوصول إلى السلام لجميع سكان الأرض.

نتناول الآن الشق الثانى من لغة الحوار الغربى فيما يجب أن يتحلى به فى علاقته بالشرق الإسلامي:

من حقائق التاريخ أن اختلاف العقائد كانت نكبة على البشر. وكان هذا الاختلاف المسئول عن أبشع أنواع النزاع المسلح بين البشر. حتى أننا نجد فتيل حروب دامية بين المؤمنين بنفس الإله وبنفس الكتبى المقدس فى ظل تعدد المذاهب فى العقيدة الواحدة، وليس بأحداث ايرالندا الشمالية ولبنان إلا تذكرة لنا بأن هذه الظاهرة ليست أمراً من أمور الماضى فحسب. رغم أن الدين لا شك أنه قوة أخلاقية موحدة، وعامل إيجابى فى سبيل نشر التسامح والوئام مع الآخرين. إلا أن هذه الحقيقة لم تؤد على أرض الواقع إلى الوحدة والترابط بين الأمم. وبالرغم من المفارقة التى تتمثل فى استخدام الخلافات الدينية كذريعة لشن الحروب وأن الناس استغلوا ذلك فى التنفيس عن نوازع التطرف والعدوان لديهم. وتكريس مشاعرهم العنصرية. واستخدموا الدين وسيلة وذريعة لخدمة الحروب مثل الحروب الصليبية. وفى العصر الراهن استخدام الدين وسيلة للحروب مثال الجماعات الإسلامية فى بلداننا العربية.

وإننا لنظلم الشرائع السماوية إذا قلنا أن بينها عداء أو تناقضاً. البشر هم الذين أوجدوا هذا العداء. وذلك التناقض. فالنصرانية ما جاءت لكى تهدم اليهودية ففى قول المسيح عليه السلام: «ما جئت لأنقض الناموس. إنما جئت لأتممه». فالنصرانية جاءت متممة لليهودية والإسلام جاء متمماً للنصرانية. من غير معارضة أو مواجهة أو تصادم وإذا كنا نحن المسلمين نفهم الإسلام على أنه حلقة من حلقات التسلسل فى هذه الوحدة. فإننا نطمح إلى أن يفهم الآخرون أديانهم على أنها كذلك. وعندما نذكر الحروب الصليبية التى استمرت ردحاً من الزمان والتى أعلنتها المسيحية ضد مخالفها من جميع الأديان والملل والنحل والمذاهب باسم الصليب وتحت

رايته بغية حماية الديانة المسيحية من المخالفين والزنادتة والمنشقين من المسيحيين أنفسهم وهى بهذ المعنى قديمة جداً. وأول من استغل هذه التسمية وأعلنها حرباً صليبية ضد أعداء الدولة والكنيسة هو «هرقل» الامبراطور البيزنطى ما بين سنة ٦١٠ - ٦٤١م فمشروعه فى القضاء على أعداء الدين مدعوماً من الكنيسة جعل يلقب بأول الصليبيين فى انتصاره على الفرس واسترجاعه للصليب ونقله إلى بيت المقدس. ثم توالت الحروب الصليبية ضد مخالفى الكنيسة ومعتنقى الديانات الأخرى خاصة الإسلام.

أما عن الحروب الصليبية التى دارت بين المسلمين والنصارى فى ربوع الشام وعلى شواطئ مصر وافريقيا والأندلس وفى جزر البحر الأبيض المتوسط واستمرت طيلة الفترة الأموية والعباسية حتى التى أخذت الشهرة بهذا المصطلح لن أدخل فى تفاصيل هذه الحروب التى ما زال الغرب والشرق يعيش فى هاجسها القائم. وتركت هذه الحروب ثقافة عدم الثقة والتربص والتحليلات الفكرية المبالغ فيها من قبل بعض الكتاب سواء من الغرب أو الشرق، ونقول لأهل الغرب والشرق على السواء علينا جميعاً أن نؤمن بالتعددية لأنها سنة من سنن الله وسنظل نختلف وهذا الاختلاف جزء من المشيئة الإلهية الذى جعلنا مختلفين الألسن والعقائد والألوان. وجعل ذلك سبيلاً للتعارف. علينا أن نعى حقيقة هامة وهى أن نتعاون فيما اتفقنا عليه. ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه. أن نكتشف خصوصيتنا ونحددها، ونكتشف المشترك بيننا ونثبته ونتفق على أنه مشترك ونتعاون عليه ونستثمره وننميه.

- البعد عن إثارة النعرات وإثراء ما يعرف لدى كثير من الكتاب بـ «صراع الحضارات» مثل ما فعل الكاتب السياسى «صامويل هانتجين» الذى

يفترض الصراع هو القاعدة وأن القتال هو النظام وأن العنف هو اللغة فأحل صراعاً محل صراع. ورسم خريطة لحدود الصراع الجديد محل الخريطة القديمة لحدود الصراع القديم. وكتب مقالته المشهورة التى أقامت الدنيا ولن تقعدها.

وإن كان «صامويل هانتجين» صورة سلبية من الغرب فهناك وجوه أخرى إيجابية مثل «اسبوسيتو» وهو باحث مستشرق أمريكى يدرس فى جامعة «جورج تاون» يتحدث عن «الخطر الإسلامي وهم أم حقيقة وانتهى إلى أنه وهم. وأن غاية ما يمثل هذا التحدى الإسلامي أن يستخرج من ذات الحضارة الإسلامية. ومن ذات الحضارة الغربية خير ما فيهما تمهيداً للقاء عظيم على أمر قد قدر فى مسيرة التاريخ يلتقى فيه الناس جميعاً على ما فى حضارتهم من كل خير وبر وتعاون.

– على الشرق والغرب وجميع الأديان أن ينظر للإنسان على أنه مخلوق الله المختار، ولذلك جاء التكريم فى القرآن الكريم ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ﴾[٥] فالتكريم موجه لبنى آدم جميعاً دون تحديد لدين أو جنس أو لون.

– الرغبة الجادة فى تحقيق سلام عالمى يحمى مسيرة التنمية التى تتنافس لتحقيقها كل الأمم والشعوب. فدرس الحروب العالمية. وما أعقبها من حروب صغير وكبيرة. وتدمير هنا وهناك. الدرس الذى وعته الإنسانية وأن السلاح لم يعد يحمى أحداً فهو قد يهلك العدو. ولكن يهلك حامله أيضا. فحماية حضارة الإنسان لاتكون فى هذه الأسوار العالية ولا تكون فى

---

(٥) الإسراء. ٧٠

هذه السدود المنيعة ولا فى هذه الأسلحة الرهيبة، إنما تكون بتحسين العلاقة مع الآخرين.

ومن الجدير بالذكر أن أذكر ما ورد فى محاضرة الأمير «تشارلز» عن «الإسلام والغرب» التى ألقاها فى مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية. والتى تعتبر صفحة جيدة فى علاقة الإسلام بالغرب. والتى طالب فيها بمسائل كثيرة وجادة فى التقارب بين الشرق والغرب. تضيق فيها المساحة هنا بذكرها كلها ولكن أذكر على سبيل المثال: أنه يطالب تحسين العلاقة بين الإسلام والغرب. ويعيب على الغرب فى استمراره لسوء الفهم للإسلام.

– أن الإسلام يحيط بأوروبا من كل جانب إلا أن ما زال الشك والخوف مستمر بيننا.

– لقد اتسم حكمنا على الإسلام كثير من التحريف الجسيم .. أرجو أن تتذكروا أن دولاً كثيرة إسلامية مثل تركيا، مصر وسوريا منحت نساءها حق التصويت فى نفس الفترة التى منحت فيها أوروبا نساءها الحق نفسه، بل قبل فترة طويلة من اتخاذ سويسرا نفس الخطوة، وفى هذه البلاد تتمتع النساء منذ وقت طويل بالمساواة فى مجال الأجور. كما أن القرآن الكريم نص قبل أربعة عشر قرناً على حقوق المرأة المسلمة فى الأملاك فى الإرث وبعض الحماية فى حالة الطلاق وممارسة التجارة .. وفى بريطانيا على الأقل كانت بعض هذه الحقوق غريبة حتى على جيل جدتى.

– التطرف ليس حركاً على الإسلام. بل ينسحب على ديانات أخرى بما فيها الديانة المسيحية.

– إذا كان هناك قدر كبير من سوء الفهم فى الغرب لطبيعة الإسلام. فإن هناك قدراً مساوياً من الجهل بالفضل الذى تدين به ثقافتنا وحضارتنا للعالم الإسلامي.

– ينتقد الأمير تشارلز المقولة التي تذهب إلى أن الإسلام والغرب يتجهان نحو صدام فى عهد جديد من الخصومة والعداء. بل أنه على قناعة تامة بأن لدى العالمين الكثير لكى يقدماه إلى بعضهما البعض.

آلية الحوار بين الشرق والغرب:

بعد أن أدرك العقلاء من الغرب والشرق على أهمية الحوار. وأنه هو الفاعل الحقيقى فى التقدم للبشرية. بدأ البحث عن القنوات التى تدعم هذا الأمل العظيم للإنسان. نذكر منها لجنة الحوار بالفاتيكان ومجلس الكنائس العالمى. ومجلس كنائس الشرق.

إلى جانب هذه المؤسسات الدائمة. هناك المؤتمرات العديدة التى عقدت لهذا الهدف النبيل. وأذكر على سبيل المثال مؤتمرات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ودوره الفعال فى مؤتمراته لهذا الشأن.

وفى ختام الجولة السريعة حول مفهوم الحوار. وآدابه. وثماره وآلياته ننتهى إلى حقيقة هامة: «إذا كنا نؤمن أن المحافظة على الخصوصية هو فرض عين. فإن البحث عن المشترك قد صار على الأقل فرض كفاية حتى تستطيع البشرية فى التقارب وتندفع إلى التعاون» أقول بعبارات موجزة. ونحن فى خاطرنا الحضارتين الغربية والعربية الإسلامية. أقول نحن نعرف وتعرفون آثار الماضى الثقيلة التى سممت النفوس وزرعت الحواجز. نعرف الصراع والمنافسة التى كانت بين الدعاة المسلمين والمبشرين الكنسيين فى

عالم الغرب، نعرف الحروب الصليبية التى زج بها باسم السيد المسيح ظلماً وعدواناً. نعرف الاستعمار الذى أذل كثيراً من الشعوب العربية والإسلامية وآسيا وأفريقيا وفى أمريكا الجنوبية، نعرف الوقفة الظالمة التى وقفتها دول غربية إلى جانب إسرائيل وهى تأكل حقوق العرب والمسلمين، نعرف كل هذا كله. وأقول أن أكثره قد صار صوراً باهتة فى وجدان الأجيال الجديدة من العرب والمسلمين. فتعالوا على الطرفين ننفض عن كواهلنا يد الماضى الثقيل بكل ما فيه بما نعلم وتعلمون فدعونا نقول نحن نستهل عهداً جديداً يبشر بحسن النوايا والمودة والعدل بيننا والاحترام المتبادل. وأن نبحث عما يجمع، ونزيل ما يفرق حتى نصل إلى مستقبل أكثر اشراقاً وأمناً وعدلاً بين البشر.

لغة الحوار بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية

أ.د/ محمد السيد الجليند(*)

قراءة تاريخية تحليلية:

من المهم فى مثل هذه الدراسة الموجزة أن نحدد المعالم الأساسية التى كانت ـ ولا زالت ـ تحكم منهج الحوار مع الآخر. الحوار بين طرفين. مسلمين كانا أو أحدهما مسلماً والآخر غير مسلم ذلك أن تحديد هذه المعالم هو الذى يوضح لنا الفوارق الأساسية بين منهجنا فى الحوار مع الآخر ومنهج الآخر فى الحوار معنا. كما سيوضح لنا بطريقة عملية ركائز هذا المنهج من حيث أسلوبه وطريقته. ومن حيث الأهداف والمقاصد التى نسعى إليها من وراء هذا الحوار.

ومن الثابت تاريخياً أن الحضارة الإسلامية قد احتكت منذ فجر تاريخها بحضارات مختلفة ما بين حضارة يغلب عليها الطابع الروحى كالفارسية والهندية وأخرى يغلب عليها الطابع المادى كالحضارة اليونانية والرومانية والمصرية القديمة فأخذت من كل الحضارات ما رأته صالحاً ونافعاً وأضافت إليها وعدلت فى بعض مفاهيمها وتفاعلت مع كل هذه الحضارات أخذاً وعطاءاً تأثيراً وتأثراً. ولا ننسى أن الفلسفة الإسلامية

(*) مدير مركز الدراسات والبحوث الإسلامية جامعة القاهرة – أستاذ الفلسفة الإسلامية ـ دار العلوم

كانت أحد الروافد التى نقد خلالها عامل التأثير بالحضارات المختلفة ما بين هندية وفارسية ويونانية.

وكانت الفلسفة ـ الإسلامية ـ شأنها فى ذلك شأن فروع الثقافة الإسلامية الأخرى ومحكومة فى حوارها مع الفلسفات الأخرى بمجموعة من الضوابط العامة التى شكلت معالم هذا المنهج فى الأخذ عن الغير.

ماذا نأخذ؟ وكيف؟ ومتي؟ ولماذا؟ وهل الأخذ عن الآخر يقضى بالضرورة محو الشخصية الإسلامية والذوبان فى الآخر حتى لو دخلوا جحر ضب خرب لدخلناه، أم أن الأخذ عن الغير والتأثير به لا يلزم عنه بالضرورة إلغاء الأنا فى سبيل المحافظة على الآخر بل لا بد من المحافظة على الخصوصية والاحتفاظ بالهوية والذاتية ليظل الأنا هو الأنا بخصوصيته وهويته والآخر هو الآخر بمفاهيمه وملابساته وخصوصيته.

ضوابط عامة:

لقد تميز منهج الحوار الإسلامى مع الآخر خلال تاريخ الفكر الإسلامي بمجموعة من الضوابط التى جسدت الركائز الأساسية لهذا المنهج وحكمت أسلوبه ومقاصده وأهدافه ومن أهم هذه الضوابط:ـ

١ـ الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها كان أحق بها. فيجب عليه أن يبادر بالتقاطها وتحصيلها والإفادة منها وشكر صاحبها عليها.

٢ـ أن لا يعرف الحق بالرجال وإنما يعرف الحق ثم يعرف أهله .

وهاتان القاعدتان تلقيان الضوء على أسلوب الحوار مع الآخر وكيف نتعامل معه. فلا نهتم بصاحب الرأى بقدر ما نصرف اهتمامنا وتأملنا إلى النظر فى الرأى نفسه تمحيصاً وتدقيقاً وهل هو من قبيل الحكمة فيقبله

المسلم ويشكر صاحبها عليها أم من قبيل العبثيات فيردها على صاحبها؛ ولا عبرة فى هذا الموقف بالشخص القائل أياً كان دينه أو ثقافته، ولونه وجنسه، ما دام القول فى ذاته حقاً والرأى حكيماً، فمحور التعامل مع الآخر هو النظر فى الأقوال والتأمل فى الآراء المجردة بصرف النظر عن مكانة أصحابها وانتمائهم الثقافى والحضاري.

٣ـ القاعدة الثالثة فى هذا المنهج تتمثل فى قوله تعالي: {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}(الكهف: ٢٩) وهذه القاعدة ليست قاصرة على مجال الدعوة إلى اللّه بالأسلوب الدعوى المباشر فقط لأن كل دعوة إلى الحق فى أى مجال من مجالات المعرفة الإنسانية هى حلقة من حلقات الدعوة إلى اللّه. والمهم فى ذلك أن نقول الحق ولا نكتمه ما دام حقاً.

والساكت على الحق شيطان أخرس لأن السكوت عن قول الحق نوع من المهابة لأصحاب الباطل لأنه بذلك قد أفسح المجال أمام أصحاب القول بالباطل وفتح الباب لتعمية الناس وإضلالهم عن الحق قولاً وفعلاً وربما اعتقاداً.

٤ـ القاعدة الرابعة: أن يكون هذا الحوار تجسيداً للمبدأ القرآني: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥) وقد غاب الكثير عن أن هذا المبدأ ليس قاصراً على قضية الدعوة والدعاة حين قصروه على الدعوة بالمعنى الاصطلاحي؛ أنه مبدأ عام يشمل كل حوار ويرسم له حدوده ويبين ما يجوز وما لا يجوز. فإذا تخطى أسلوب الحوار هذا المبدأ القرآنى وتجاوزه فقد نقله

صاحبه من مجال الحوار المشروع إلى مجال آخر يرفضه الشرع شكلاً وموضوعاً. لأن من ضروريات هذا المنهج مراعاة ظروف الناس ومخاطبتهم حسب مستواهم الفكرى والثقافي. ومن الثابت تاريخياً أن بذر الحكمة فى غير موضعها إضرار بها ومنعها أهلها إضرار بهم فمراعاة هذه الفوارق بين الناس من لوازم هذا المنهج.

٥ـ أن وظيفة الحوار لا تتوقف بالضرورة على هداية الطرف الآخر وقبوله للرأى الذى نراه فإن ذلك ليس باستطاعة البشر لأن هداية القلوب لتقبل الحق والانتفاع به والإدغان له أمر بيد اللّه وحده ولذلك فقد تكرر فى القرآن الكريم أن الهداية القلبية ليست من وظيفة الرسل ولكن اللّه يهدى قلب من يشاء متى قدم بين يدى اللّه أسباب هذه الهداية وحتى يرفع عن الرسول الإحساس بالحرج فى هذه القضية نجد القرآن يخاطب الرسول كثيراً بما يرفع عنه هذا الحرج قال تعالى ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾ (الغاشية: ٢٢) ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلا الْبَلاغُ﴾ (الشورى: ٤٨) ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (القصص: ٥٦) ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (الغاشية: ٢١) وهذه الآيات الكريمة وإن كانت تتصل بقضايا العقيدة إلا أنها تعم كل أشكال الحوار بين المتحاورين فإن التعرف على الحق بعد بيانه ووضوحه هو المدخل الطبيعى للاعتقاد فيه لأن الحق كل لا يتجزأ وإن تعددت أطرافه وتنوعت أشكاله.

٦ـ تحرى موقع العدل وتحقيق العدالة مع الآخرين حتى ولو كانوا أعداء لنا لأن العدل مطلب إنساني. قال تعالي: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ (المائدة: ٨) فأمرت

الآيـة بوجـوب مـراعاة تقـوى اللّـه فـى الخصـوم وليس مراعاة هوى النفس وتحقيق الرغبات .

ولعل وضوح هذه الضوابط فى العقلية الإسلامية جعلهم متفتحين على كـل الحضـارات الـتى احـتكوا بهـا بدون حساسيات ولا افتعال ولا مواقف لـيس لهـا رصيد يؤيدها من مصادر الإسلام الأولى ـ الكتاب والسنة ـ ولذلك فقـد اعـتقدوا أن الأخـذ عـن الآخر والتأثر به قد يكون مطلباً شرعياً خاضعاً لأحكـام الشـرع وجوبـاً أو ندباً وبنفس الدرجة قد يكون رفض ما عند الآخر والتصـدى له بـل ومحاربـته أحـياناً مطلـباً شـرعياً خاضـعاً لأحكـام الشرع وجوبـاً أو ندبـاً. ومعـيار ذلـك كلـه خاضـع للضوابط العامة التى أشرنا إليه آنفـاً. ولعـل من نافلة القول أن نشير هنا إلى أن هذه الضوابط تتسع دائرتها لتشـمل كـل العلـوم الـنظرية والعلمـية معاً. فما كان منها حقاً ونافعاً وجب قبولـه وأصـبح ذلك مطلباً شرعياً حتى ولو كانت هذه العلوم قد وفدت إلينا من الأمم الكافرة التى لا تدين بديننا لأن نظرنا فى ذلك يتوجه إلى العلم فى نفسـه بصرف النظر عن صاحبه لأن الحكمة ضالة المؤمن ولذلك يجب عليه قبولها شرعاً سواء كان قائلها من أبناء ملتنا ويدين بديننا أم لا وقد أشار إلى هـذا المعـنى الفيلسـوف المسـلم ابـن رشـد فـى كـتابه (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) وفصل القول فيها المفكر المسلم ابن تيمية فى كـتابه (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) فليرجع إليهما من أراد مزيداً من التفصيل فى هذا الشأن.

فى عصر الرسالة

ومبدأ الحوار مع الآخر أمر قد قرره الشرع سلفاً وآمر به القرآن الكريم على سبيل الوجوب أحياناً إذا كان يتصل بواجب شرعى فيكون من باب مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب. وقد يكون على سبيل الندب أحياناً أخرى كوسيلة من وسائل التعرف على الغير ومدخل من مداخل الدعوة إلى الله.

وقد تحقق ذلك فعلاً وواقعاً فى حياة الرسول ﷺ على مستوى الأمر النظرى الوارد فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. كما تحقق على مستوى التطبيق العملى على يد الرسول ﷺ وبأمره لصحابته.

١ـ فعلى المستوى النظرى نجد القرآن الكريم يأمرنا بالحوار مع أهل الكتاب وفتح الجسور معهم خلال الحوار الهادف إلى بيان الحق وتوضيحه ودعوتهم إليه حرصاً على تحقيق الخير النافع للإنسان قال تعالي: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ.. ﴾ (آل عمران: ٦٤).

وفى مستوى تعليمى من مستويات الحوار يقول لهم ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِى إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلا مِنْ بَعْدِهِ.. ﴾ (آل عمران: ٦٥).

ومن المعلوم تاريخياً أن التوراة والإنجيل إنما نزلتا بعد إبراهيم عليه السلام فليس من المتصور عقلاً أن يكون عند اليهود علم يقينى عن إبراهيم فيعتقدون صحته أو خطأه فكيف يجادلون فى أمر ليس لهم به علم..؟

وقال تعالى ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ۞ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ۞ وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ۞ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ۞ وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ۞ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (سورة الكافرون)

ثم يأمرنا القرآن الكريم بمراعاة المستوى العقلى والحضارى لهذا الحوار مع الآخر فليس القصد منه مجرد إقناع الخصم أو التغلب عليه وإنما هو حوار بالحكمة ـ وبالموعظة الحسنة، وجدال بالتى هى أحسن وينهانا القرآن بأسلوب صريح وواضح لا يحتمل التأويل بألا نجادل أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن. وألا نحمل الإنسان كرهاً على اعتقاد أمر لا يقوم عنه دليل صحته ولا برهان صدقه فلا إكراه فى الدين وروح القرآن الكريم تسرى بين آياته على هذا النحو صريح فى توضيح معالم المنهج القرآنى فى أسلوب الحوار ومقاصده وأهدافه، ولا بد أن يكون ذلك مشمولاً ومحروساً بقلب لين هين ولسان رطب عذب الكلمات حتى يؤتى الحوار ثمرته ويصل إلى تحقيق مقاصده ويجسد القرآن الكريم هذا المعنى فى خطابه للرسول المعلم فى قوله تعالى ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فى الأَمْرِ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

وفى هذا المستوى النظرى التعليمى ينبهنا القرآن الكريم إلى قضية على جانب كبير من الأهمية فى ترقيق القلوب وترويض العقول. فلا نغمط أصحاب الحقوق حظهم حتى ولو كانوا يدينون بغير ملتنا ذلك أن الحق أحق أن يتبع وأولى الناس بذلك أصحاب الدعوات والمبادئ فالقرآن الكريم فى حديثه عن أهل الكتاب يفرق لنا بين نوعين منهم فإذا كان فيهم الظالم

والمكابر والمعاند فإن فيهم أيضاً المنصف والعادل وأصحاب المرؤة والحريص على الوفاء بالوعد فلا ينبغي ان نصدر حكماً عاماً يشمل الظالم والعادل والمنصف وصاحب الهوى قال تعالى ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ۞ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (آل عمران: ١١٣-١١٤) وقال في آية أخرى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا... ﴾ (آل عمران ٧٥) وقال سبحانه في حق النصارى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (المائدة: ٨٢) ـ هذه آيات ـ وفي القرآن غيرها كثير ـ نتعلم منها معالم المنهج القرآني في الحوار مع الآخر فلا نغمطهم حقهم إذا كان لهم حظ في ذلك كما قال سبحانه ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ (المائدة: ٨) هذه معالم عامة ومجملة ترشدنا إليها آيات القرآن الكريم لنتخذها مبادئ لحوارنا مع الآخر على مستوى الفكر والكلمة.

١ـ أما على المستوى التطبيقي العملي نجد أن حياة الرسول ﷺ كانت المثل والقدرة في رسم معالم هذا المنهج في التعامل مع الآخر نصرانياً كان أو يهودياً أو مجوسياً. حيث كان صلى الله عليه وسلم يوضح في أمره أو نهيه أو فعله المعنى المقصود لأصحابه والهدف المنشود من التعامل مع الآخر والحوار معه.

ومن الثابت تاريخياً أن أول هجرة للمسلمين من مكة طلباً للحماية وأملاً في الجوار الآمن. كانت إلى الحبشة. وكان ملكها النجاشي نصرانياً وأوضح الرسول ﷺ لصحابته هذا المعنى النبيل الذى اختار لأجله الهجرة إلى الحبشة دون غيرها فقال لصحابته اذهبوا إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم أحد عنده فإن العدل الذى افتقده المسلمون الأوائل فى مكة جعلهم يطلبونه عند النجاشي النصرانى هرباً من الظلم الذى حاق بهم فى بلدهم مكة فخرجوا منها سراً طلباً للعدل وهرباً من الظلم وكان النجاشي هو ذلك الملك العادل الذى كفل لهم الحماية من بطش طواغيت مكة ولم يجد الرسول فى ذلك شيئاً من الحساسية التى قد يظنها البعض من أصحاب النظرة القاصرة عائقاً تحول دون التعامل مع النجاشي بدعوى أنه غير مسلم فكيف نلجأ إليه ونطلب الحماية منه ولم يدر ذلك بخلد الرسول أبداً ولم يرفضه أحد من صحابته بدعوى أنه نصرانى والذى قرأ ذلك الحوار الرائع الذى أجراه النجاشي مع المهاجرين يدرك تماماً عظمة الرسول فى ذلك الاختيار للنجاشي ليكون هو النموذج للملك العادل الذى يحتمى عنده حملة لواء الدعوة الإسلامية فى أول عهدها فلقد أبان هذا الحوار الذى أجراه مع المهاجرين بزعامة جعفر بن أبى طالب فإن من يدرك طبيعة الأسئلة التى كان يطرحها النجاشي على الصحابى الجليل جعفر بن أبى طالب والإجابات التى كان يسمعها منه يعلم تماماً أن الحوار الذى دار بينهما كان نموذجاً رائعاً فكراً وثقافة وحضارة. لأن الإنصاف ونشدان الحق كان هدفاً للجميع حيث كان الحق مقصده وهدفه. وليس التعصب والمعاندة والمكابرة ولذلك فقد شرح الله صدر النجاشي للإسلام ومات مسلماً وقيل إن الرسول ﷺ لما علم بوفاته صلى عليه وأمر أصحابه بالصلاة عليه وقال لهم:

«صلوا على أخ لكم مات بأرض الحبشة أو كما قال صلى اللّه عليه وسلم»[1].

هذا الموقف يعد نموذجاً لكيفية التعامل مع الآخر لأن الطرفين كان الحق رائدهما والهدف النبيل غاية لهما. فكان حب النجاشى للعدل وكراهيته للظلم دافعاً لأن يأمر الرسول صحابته بالهجرة إليه دون غيره، وفى سبيل ذلك قد تحمل المهاجرون كثيراً من المصاعب والمشاق لينعموا بالعدل المفقود فى بلادهم ولم نسمع من واحد من المهاجرين أن تردد فى تنفيذ الأمر بالهجرة إلى النجاشى بدعوى أنه نصرانى أو أنه غير مسلم.

٢ـ ومن الثابت تاريخياً أن الرسول ﷺ قد اتخذ دليلاً له فى هجرته إلى المدينة «ابن أريقط» ولم يكن مسلماً.

٣ـ وأنه قبل الهدية من المقوقس عظيم الأقباط فى مصر وكانت هذه الهدية هى (مارية القبطية) التى بنى بها وأنجب منها ولده إبراهيم ولم يرفض الرسول هذه الهدية بدعوى أنها جاءته من غير المسلم بل تقبلها قبولاً حسناً وأوصى بأقباط مصر خيراً.

ومن الثابت تاريخياً أن الرسول ﷺ قد مات ودرعه مرهونة عند يهودى نظير دين له ومن يتتبع سيرة الرسول وصحابته سيجد كثيراً من المواقف النموذجية لأسلوب راق من التعامل اليومى مع غير المسلمين بلا حساسيات ولا تعصب ولا تحامق وكان هذا الأسلوب الرفيع فى التعامل

---

(١) راجع زاد المعاد فى هدى خير العباد لابن القيم ٤٥/١ ط الحلبى بمصر= =تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد.

وسيلة من وسائل الدعوة إلى الله وقدوة للغير لكى يتأسى بهم فى ذلك كما قال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢١).

فى العصرين الأموى والعباسي:

ولقد تطور أسلوب الحوار ومنهجه فى عصر بنى أمية من حيث المقاصد والغايات من جانب ومن حيث المنهج والأسلوب من جانب آخر.

وتشهد أسباب نشأة علم الكلام عهداً جديداً للحوار مع الآخر يختلف فى طبيعته وخصائصه عن عصر النبوة والخلافة الرائدة ذلك أن اعتناق شعوب كثيرة للإسلام مختلفة فى ثقافتها وحضارتها مختلفة فى الملل والأديان التى تركتها قد فتح مجالات كثيرة لنوع آخر من الحوار يختلف فى مقاصده ووسائله عن ذى قبل.

فالعقيدة الإسلامية بمسائلها وأركانها قد تطرقت إليها سهام التشكيك والنيل منها لأهداف معروفة ومدونة فى كتب علم الكلام وتاريخه، ونشأ فى ظل ذلك المناخ حركة جدلية عنيفة تعبر عن أزمة الخصومة بين مفكرى الإسلام وأهل الملل الأخرى أحياناً وأهل النحل الباطلة فى دائرة الحضارة الإسلامية أحياناً أخرى ولعل قراءة سريعة لعناوين المباحث المدونة فى كتب علم الكلام تقفنا على طبيعة هذا الحوار وعنف هذه الخصومة فلا يخلو كتاب من كتب علم الكلام من الرد على الثنوية والمجوس والقدرية والدهرية والنصارى واليهود والفلاسفة الملاحدة .. وهذه كلها تمثل جبهات أشبه بجبهات الحرب المعلنة ضد الإسلام فى عقيدته وشريعته والموضوعات التى مثلت هذه المعارك شملت مسائل العقيدة الإسلامية كلها

فجرى الجدال حول اللّه ذاته وصفاته. القدر. النبوة والوحي. اليوم الآخر ومسائل البعث. كما تناول قضية المعرفة وسائلها وحدودها.

ولقد أدرك مفكروا الإسلام الأوائل الهدف المقصود من هذه الحملة فحشدوا لها جهدهم الفكرى والعقلى وقصدوا لها تفنيداً وإبطالاً بالحجج والبراهين حفاظاً منهم على بقاء العقيدة الإسلامية نقية سليمة من التشويش والتلبيس. وهم فى سبيل ذلك لم يكتفوا فى حوارهم مع الآخر بالوقوف عند حدود النص كتاباً أو سنة وإنما استعاروا من خصومهم نفس الأسلحة التى بارزوهم بها فاستعملوا البرهان المنطقى وقياس الطرد والعكس وبرهان الخلف والإلزام. ولم يروا فى ذلك حرجاً ولا مذمة شرعية أو عقلية لأن ذلك حق فى نفسه بصرف النظر عمن قاله أو إلى من ينسب وما دام هو حقاً فى نفسه فلا ضرر عليهم فى ذلك من قبوله والتعامل به مع خصومهم ووضعت فى ذلك مؤلفات مستقلة تحمل عنوان «الرد على النصارى» «إفحام اليهود». «الجواب الصحيح». «هداية الحيارى» أو كانت رداً على المخالفين فى النحلة وإن وافقوا فى الملة. مثل الرد على الجهمية. الرد على المعطلة الخ. وكل هذه المؤلفات ما تأثر منها بالرافد الثقافى وما لم يتأثر كان هدفها واضحاً وصريحاً وتمثل ذلك فى أمرين:

١ـ الدفاع عن العقيدة الإسلامية والخوف عليها من التشويش والتشكيك.

٢ـ والحفاظ على الهوية الإسلامية والخصوصية العربية من الذوبان والتلاشى وكان إصرارهم على هذين الأمرين عاملاً مهماً فى الحفاظ على خصوصية الحضارة الإسلامية وهويتها.

وفى نطاق الفلسفة الإسلامية ـ خاصة المشائية ـ نجد أن كبار مفكريها قد تأثروا بالفلسفات السابقة عليهم فأخذوا من اليونانية والأفلوطينية الحديثة واستعاروا من الغتوص المسيحى وخاصة بعد عصر الترجمة من اليونانية والفارسية وأثنائها ومن الثابت تاريخياً أن الفارابى تعلم فى مدارس حران على يد إبراهيم قويرى. النصراني. وابن سينا لم يفهم أرسطو إلا من خلال الفارابى وابن رشد عرف بالشارح الأكبر لأرسطو ورغم هذا التأثر الواضح بالفلسفة اليونانية ومفاهيمها إلا أنهم جميعاً كانوا عرباً يعتزون بعروبتهم مسلمين يدينون بالولاء والاعتزاز بإسلامهم فابن سينا وهو من أكثر فلاسفة الإسلام تأثرا باليونانية يصرح بأن هذا الدين ـ الإسلام ـ قد اعترف بجلالته حكماء العالم قاطبة وكذلك من قبله الفارابى ومن بعده ابن رشد. فلم يتنكروا لعروبتهم ولا لدينهم وإنما كان ذلك مصدر اعتزاز لهم جميعاً ومصدر فخر يعتزون بانتمائهم إلى العروبة وإلى الإسلام ديناً.

ولقد شهدت هذه الفترة أكبر حركة فى النقل والترجمة من اليونانية والفارسية إلى اللغة العربية وأن هذه الحركة التى لم يشهد التاريخ مثلها قد تمت فى حراسة المبدأ الشرعى «الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها كان أحق بها» ولا شك أن ما تم ترجمته خلال هذه الحركة كان منه ما يخضع للمبدأ السابق وكان منه ما يشذ عنه ولذلك كانت استجابة العقلية الإسلامية للمترجمات مختلفة ومتنوعة فما كان منها خاضعاً لهذا المبدأ السابق قبلوه وانتفعوا به وحمدوا صاحبه، وما كان منها شاذاً عنه رفضوه ونبهوا إليه وحذروا منه ولذلك سرعان ما تميز عندهم الأعمال المترجمة التى تدخل تحت مفهوم الحكمة فقبلوها وتواصوا بها ونادوا بضرورة تعلمها وتعليمها كالطبيعات والرياضيات وعلوم الفلك والهندسة والطب والكيمياء

ونبغ فى هذه العلوم مجموعة من كبار العلماء العالميين الذين ما زالت البشرية تدين لهم بالفضل والسبق فى هذه العلوم إلى يومنا هذا واعتقد أن الموقف الذى نحن بصدده غنى عن الشرح وضرب الأمثلة وذكر الأسماء التى تذخر بها معاجم هذه العلوم موضحاً دور المسلمين فيها. فكلنا على علم به وبالعلماء الأجلاء الذين رادوا هذا الطريق كابن الهيثم وابن النفيس والرازى وأيضاً ابن سينا الطبيب وابن رشد الطبيب والخوارزمى وجابر بن حيان إلخ.

أما مجموعة العلوم الأخرى التى لم يجد فيها المسلمون مضموناً عقلياً مقنعاً ولا يندرج تحت مفهوم الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها كان أحق بها فكان للعقلية الإسلامية منها موقف مختلف عن سابقه ويتدرج تحت هذا النوع من العلوم ما تقل عن اليونان من المفاهيم والآراء حول الله. والكون. والإنسان. والميتافزيقا فقد كان الخطأ فيها أكثر من الصواب كما صرح بذلك الغزالى فى تهافت الفلاسفة والمنقذ من الضلال ولذلك تحفظ المسلمون فى قبولها وحذروا من الكثير منها وأرى أن التنبه إلى الفرق بين موقف المسلمين من مجموعة العلوم الثانية مهم جداً بل ضرورى . خاصة فى زماننا هذا الذى اختلطت فيه الأوراق. والتبست المفاهيم على العقول. فلم تفرق بين الأسود والأبيض عن قصد أو غير قصد. مما جعل المثقف المعاصر يعيش حياته العقلية فى دائرة مغلقة لا يدرى من أين يبدأ وإلى أين ينتهي. فإن الذى اهتم به المسلمون وتواصوا به هو مجموعة العلوم التى يمكن أن تسمى بلغة عصرنا علوم التكنولوجيا والتقنينات التى هى محور التقدم والتخلف الآن. والتى كان انتقالها إلى أوروبا بمثابة الشعلة التى أضاءت لها ظلمات عصرها وأخرجتها من كهف التخلف والخرافة إلى نور العلم والمدنية. كانت هذه العلوم بمثابة الكنز الثمين الذى اكتشفه المسلمون وقدموه للعالم

فأنار لها الطريق إلى ريادة عصر جديد لم يكن للبشرية عهد به وهو المسمى بعصر النهضة. وإذا كان دور المسلمين واضحاً فى حوارهم مع الآخر خلال هذه المجموعة من العلوم العلمية والتى تسمى بلغة عصرنا علوم التكنولوجيا والتقنيات فإن دورهم خلال مجموعة العلوم الأخرى ـ وأقصد بها العلوم الحكمية ـ الفلسفية ـ ليس أقل من ذلك. بل كان عطاؤهم فيها واضحاً وسأضرب لذلك مثلاً واحداً بفيلسوف قرطبة ابن رشد ودوره فى بعث النهضة الأوربية. وابن سينا وكتابه (القانون فى الطب) وابن النفيس والرازى والخوارزمى وابن الهيثم وابن حيان وغيرهم كثير فى مجالات شتي. مما لا يتسع المقام لذكره هنا.

ومن الجدير بالذكر أن ننبه هنا إلى أن الحوار الذى امتد عبر قرون طويلة بين الحضارة الإسلامية وغيرها من الحضارات الأخرى كان يتميز بالندية فى الأخذ والعطاء. ومن المعروف أن الحضارة الإسلامية فى هذه المرحلة كانت هى الأقوى وهى المنتصرة لكنها لم تسمح فى حوارها مع الغير أن تكون لغتها فوقية استعلائية بحيث تشعر الآخر بالدونية كما هو حاصل فى الحضارة الغربية الآن وكما هو شأن المتحدثين باسمها والداعين إلى تبنيها والنسج على منوالها.

كانت الحضارة الإسلامية أبان انتصاراتها تتلمس مواطن العلم النافع عند الغير فتفيد منه وتدعو إليه وتبحث عن الفكرة الصحيحة تتبناها وتتمثلها فى الحياة اليومية العلمية، وقد تعيد إخراجها إلى الناس فى ثوبها الإسلامى الجديد وفى لغتها العربية الواضحة، وفى روح قرآنية متسامحة تعم بتسامحها البلاد التى خضعت لسلطانها ثقافياً وحضارياً. ولعل فى

حضارة المسلمين في أسبانيا غرباً وفى تركيا شمالاً وفى بلاد فارس والهند شرقاً خير دليل على ذلك.

ولقد تجلت روح هذه الحضارة فى أمرين مهمين جداً يتصل كل منهما بالحوار مع الآخر فى منهجه وفى أهدافه ومقاصده.

الأمر الأول: الروح الإسلامية العامة التى تبناها الفكر الإسلامى ودعا إليها فى فلسفته للعلوم العلمية. التى نقلها العرب عن الغير وفى تحليلهم لهذه العلوم وتفسيرهم للعلاقات المتبادلة بين الأسباب والمسببات فالأسباب عندهم فاعلة كما أخبر بذلك القرآن الكريم فى أكثر من آية وأكد عليها.

قال تعالى ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ (النمل٦٠) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ.. ﴾ (الأنعام ٩٩)

وقال سبحانه: {يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ}(النحل: ١١) كل هذه الآيات وغيرها كثير فى القرآن الكريم يتحدث عن الأسباب الطبيعية فى الكون فالآيات هنا تتحدث عن العلاقات السببية. وهذه الباء (به) هى باء السببية كما هو معروف فى اللغة ونحوها. وكذلك يتحدث القرآن عن الأسباب الإنسانية فى أفعال الإنسان نفسه ليضع الإنسان فى مواجهة مباشرة مع مسئوليته عن فعله قال تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (المدثر: ٣٨). ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة: ٧-٨) وإيمانهم بارتباط الأسباب بمسبباتها فى الأفعال الطبيعية وثبات هذه العلاقة واطرادها لم يمنعهم من الإيمان بأن الأسباب ليست فاعلة بذاتها وإنما

بفعل اللّه فيها. وقد منح اللّه هذه الأسباب قوة التأثير وثبات هذه القوة واطرادها ليستقر نظام العالم وتكون له صفة الثبات والاطراد ولم ير المسلمون تناقضاً عقلياً بين الإيمان بفعل الأسباب والإيمان بأمر مصدر هذه القوة الفاعلة هو اللّه وليست الأسباب بذاتها.

لأن ذلك لا يحمل معنى التناقض العقلى كما يتوهم ذلك البعض ولا يدعو ذلك إلى التنكر للعلم بل يدعو إلى الإيمان والأخذ بنتائجه. وتفصيل القول فى ذلك له مقام آخر.

أما الأمر الثاني: الذى تميزت به لغة الحوار هو حسن توظيف المسلمين للعلم ونتائجه والإفادة من معطياته وتسخيرها لخدمة الإنسان وتأمين حاضره ومستقبله. وذلك أن قضية استخلاف الإنسان فى الأرض يرتبط بها مباشرة حسن تسخير الكون واكتشاف قوانينه والعمل على عمارته وتسخير ذلك كله فى النهاية لخدمة الإنسان، كما قال تعالي: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فى الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (البقرة: ٢٩). ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فى السَّمَوَاتِ وَمَا فى الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ (الجاثية: ١٣).

ولقد ترتب على سيادة هذه الروح العامة وسيطرتها على لغة الحوار مع الآخر فى فلسفة العلم وفى حسن توظيفه أن نعمت البلاد التى فتحها المسلمون شرقاً وغرباً بهذا الوافد الجديد، ولم يقف أمامهم إلا صاحب ملك يخاف على سلطانه أو صاحب هوى متسلط على الغير وهذا الأمران هما محور الخلاف ومحك الصراع بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية بين فلسفة الإسلام للعلم وحسن توظيفه وفلسفة الغرب للعلم وسوء توظيفه. وبالتالى فهما يفسران لنا جوهر الصراع بين الحضارتين، نعم هنا بؤرة

الصراع بين الحضارتين. فلسفة العلم وتحليله وحسن توظيفه. لقد ظلت الحضارة الإسلامية تظلل العالم بروحها المؤمنة قروناً طويلة حفرت خلالها خصائص هذه الحضارة بأحرف من نور فى شتى بقاع العالم الذى حلت فيها. فى فارس والهند شرقاً وفى بلاد الشام وأوروبا شمالاً وفى الأندلس وشمال أفريقيا غرباً ونشرت فى ربوع هذه البلاد قيماً ومعانى نعم بها أهلها فترة طويلة من الزمان. فعرفوا التسامح والعدل والإنصاف بعد أن شقوا أزماناً طويلة بالظلم والتعصب والطغيان.

التحول فى لغة الحوار

أُقُولُ هنا وازدهار هناك:

ثم دار الزمان دورته، وأخذ الغرب بعلمائه ومفكريه يتشرب روح هذه الحضارة ويتعلم منها، وأخذت مقاليد الأمور تنتقل رويداً رويداً من أيدى المسلمين إلى غيرهم، وأخذ نجم الحضارة الإسلامية فى الأفول ليحل محلها حضارة جديدة بروح جديدة تختلف فى فلسفتها للعلوم وتوظيفها للعلم عن الحضارة الإسلامية. وواكب ذلك التحول الحضارى ظهور أنماط جديدة من القيم الاجتماعية والثقافية فى أوروبا، فلقد تحولت المسيحية على يد مجموعة من ملوك أوروبا وعلمائها إلى روح صليبية لا تمت بأى سبب إلى النصرانية التى نزلت على عيسى عليه السلام ولا يربطها رابط بتعاليم المسيح عليه السلام. فالمسيحية التى بشر بها عيسى عليه السلام. حب. وتسامح. وتواضع. وسكينة نفس. أما الصليبية الجديدة فهى حقد وتعصب واستكبار وطغيان. ولقد تجسد هذا التحول الخطير الذى طرأ على المسيحية فى مجموعة من الحملات الصليبية التى بدأ بها الغرب حروبه الصليبية على العالم الإسلامى فى العصور الوسطى والتى ما زالت نيرانها لم تطفأ بعد مع تعدد الأشكال وتنوع الحملات. ولعل ما يجرى فى البوسنه والهرسك فى وقتنا الحاضر من حروب التصفية والإبادة الجماعية للمسلمين والتواطؤ العالمى مع الصرب وضد المسلمين وما يقوم به الروس فى الشيشان أقول لعل فى ذلك كله دليلاً على أن هذه الحروب الصليبية لم تخمد نارها بعد رغم اختلاف أشكالها وتنوع حملاتها وتعدد مواقعها.

استطاعت أوروبا أن تحتل معظم البلاد العربية والإسلامية خلال القرنين الماضيين وأن تفرض سلطانها الثقافى ومفاهيمها الحضارية على المؤسسات الثقافية فى البلاد التى احتلها. فأخذت المفاهيم الأوربية فى الفلسفة والاجتماع والتاريخ والاقتصاد والقانون والتربية وعلم النفس تحل محل المفاهيم الإسلامية التى كانت سائدة فى هذه البلاد. وأرادت أوروبا أن تجعل من هذه المفاهيم ـ وهى محلية إقليمية ذات صبغة خاصة ـ مفاهيم عالمية ينبغى أن تذعن لها عقول جميع المفكرين شرقاً وغربا وبمنطلق فوقى استعلائى استعمارى متكبر، ولجأت إلى أساليب رخيصة لفرض هيمنتها الثقافية على عقول البلاد التى استعمرتها لبسط نفوذها الثقافى ورفعت سلاح التشهير بكل من عارضها أو قاوم نفوذها الاستعمارى ومن حقنا أن نشير هنا إلى بعض المقارنات بين لغة المسلمين فى حوارهم مع الآخر يوم أن كان المسلمون أصحاب الكلمة الحضارية فى العالم ولغة الآخر فى حواره معنا الآن. بعد أن انتقلت لغة الحوار إلى أرضهم.

١ـ إن لغة الحوار الإسلامى كانت هى الكلمة الرشيدة ﴿ادْعُ إِلَى سبيل ربّكَ بالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بالّتي هِي أَحْسَنُ﴾ ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ ولِيَ دِينِ﴾ ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾. أما لغة الآخر مع المسلمين فكانت هى الرصاص. والصاروخ والمدافع.

٢ـ كانت لغة المسلمين حضارية فى الأسلوب والمنهج. تحرير العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد. أما لغة الآخر فكانت القتل والتنكيل والحرق والإبادة.

كانت لغة المسلمين تملأ الأرض عدلاً «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا» أما لغة الآخر فكانت تجسيداً للظلم والطغيان.

٣ـ كانت لغة المسلمين تشع بالرحمة والسكينة والود والإخاء «لكم مالنا وعليكم ما علينا» أما لغة الآخر فكانت مملوءة بالقسوة والعنف والاستكبار والاستعلاء.؟

ولا يتسع المقام هنا للتفصيل فى بيان ذلك. ولكن اكتفى هنا بأن أدعو دعاة التغريب فى بلادنا أن يراجعوا أنفسهم ليدركوا الفرق بين لغة الحضارتين فى الحوار ومن خلال النظرة المقارنة البسيطة بين ما فعلته أوروبا فى العالم أبان ما يسمى بعصر النهضة وحتى الآن. يتبين لنا مجموعة من الحقائق التى يؤكدها التاريخ.

١ـ فإذا كان ثوار أوروبا قد حرروا الفلاح هناك من رق العبودية فقد سلكوا عشرات الملايين فى أفريقيا والهند فى سلم العبودية والرق.

٢ـ إذا كانوا قد رفعوا شعار الحرية فى بلادهم فقد حكموا بالعبودية على الملونين فى قارات العالم.

٣ـ إذا كانوا قد رفعوا شعار الديمقراطية فى بلادهم فقد أحكموا قبضة الدكتاتورية الغاشمة على شعوب العالم الثالث. فاستغلوا شعوب ونهبوا ثرواته، وأصبح العالم فى ظل هذه الحضارة أشبه بالغابة التى لا تسمح بالعيش فيها إلا للأقوياء وترتب على ذلك أن سادت المفاهيم والفلسفات الغربية وأصبح العلم فى لغة الحضارة الأوربية يختلف فى فلسفته التحليلية وفى توظيفه عن فلسفته وتوظيفه فى لغة الحضارة الإسلامية فانقطع مسار العلم فى فلسفته هناك عن خالقه وتحولت وظيفته من خدمة الإنسان إلى خدمة طائفة معينة وقليلة على حساب بقية شعوب العالم كله ولما ازدهرت فى أوروبا عوامل نهظتها وتراجع زحفت الحضارة الإسلامية تبدلت لغة

الحوار بين الشرق والغرب فى الأسلوب والمنهج. وفى الأهداف والمقاصد. وفى مطلع القرن العشرين وبعد أن احكمت أوروبا قبضتها على العالم الإسلامى أعلن مفكروها ما كان يدور بينهم فى الخفاء وصرحوا بما كانوا يضمنونه للعالم الإسلامى ولن أذهب بعيداً فى توضيح هذه القضية التى لا تحتاج إلى اجتهاد أو أعمال ذهن وإنما سأقتبس بعض النصوص لكبار المفكرين فى أوروبا فى مطلع هذا القرن وسوف توضح لنا هذه النصوص لغة الغرب فى حواره معنا وأهدافه ومقاصده من محاورتنا. يقول المفكر الفرنسى هانوتو: بعد احتلال فرنسا للجزائر مباشرة: لقد أصبحنا اليوم أمام الإسلام والمسألة الإسلامية وجها لوجه. وكانت هذه العبارة عنواناً لمقال كبير نشر مترجما بالعربية فى جريدة المؤيد المصرية وتولى الرد عليه جمال الدين الأفغانى فى رسالته الرد على الدهريين ومما جاء فى هذا المقال: إنه لا يوجد مكان على ظهر الأرض إلا واجتاز الإسلام فيه حدوده منتشراً فى الآفاق فهو الدين الوحيد الذى أمكن انتحال الناس له رمزاً وأفواجاً وهو الدين الوحيد الذى يفوق شدة الميل إليه والتدين به كل ميل إلى اعتناق دين سواه إن هذا الدين قائم الدعائم ثابت الأركان فى أوروبا عينها.

ثم يقول: «لقد صارت فرنسا فى صلة مع الإسلام فى كل مكان بل صارت فى صدر الإسلام وكبده ليس الإسلام فى داخلنا فقط بل فى خارجنا أيضاً قريب منا فى مراكش قريب منا فى طرابلس الغرب قريب منا فى مصر.. ولا يزال الهلال الإسلامى ينتهى طرفاه من جهة مدينة القسطنطينية ومن جهة ببلدة فاس فى المغرب الأقصى معانقاً بذلك الغرب كله ..إن هذا الدين القائم فى الاستانة حيث عجزت المسيحية عن استئصاله من هذا الركن المنيع الذى يحكم منه على البحار الشرقية ويفصل [illegible] بعضها عن بعض شطرين أنه لا بد من العمل إلى تفكيك تلك

الرابطة التى تجمع بين المسلمين شرقاً وغرباً على سطح المعمورة فتجعل منهم أمة واحدة وهو رابطة الدين. لا بد من العمل على اضعاف تلك الروح التى تحرك المسلمين من سباتهم إن رابطة الإخاء الجامعة بين أفراد المسلمين شرقاً وغرباً كفيلة بأن تجعل المسلم فى شرق الأرض يهب لنصرة المسلم فى غربها فهى عامل مؤرق لفرنسا فى المستعمرات التى تخضع لها».

هذا النص يحمل فى كلماته ومقاصد الغرب كله من حواره معنا ليست فرنسا وحدها: وليس هانوتو إلا واحد من المشتغلين بحوار الغرب مع الشرق. قد تختلف العبارة والأسلوب أما الهدف والمقصد فكان ولا يزال محل اتفاق بينهم جميعاً ولقد أشار الإمام محمد عبده إلى هذا الخطر الاستعمارى المحدق بالمسلمين فى مطلع هذا القرن وحذر مما يبيت للمسمين فى الخفاء ويحاك لهم فى العلن حين قال:

إن الإفرنج تأكد لهم أن أقوى رابطة بين المسلمين إنما هى الرابطة الدينية. وأدركوا أن قوتهم لا تكون إلا بالعصبية الاعتقادية. ولأولئك الإفرنج مطامع فى ديار المسلمين وأوطانهم. فتوجهت عنايتهم إلى بث هذه الأفكار الساقطة بين أرباب الديانة الإسلامية، وزينوا لهم هجر هذه الصلة المقدسة وفصم حبالها. لينقضوا بذلك بناء الملة الإسلامية ويمزقونها شيعاً وأحزاباً. فإنهم علموا كما علمنا. وعلم العقلاء أجمعون أن المسلمين لا يعرفون لهم جنسية إلا فى دينهم واعتقادهم وتسنى للمفسدين نجاح فى بعض الأقطار الإسلامية. وتبعهم بعض الغفل من المسلمين جهلاً وتقليداً فساعدهم على التنفير من العصبية الدينية بعد ما نقدوها ولم يستبدلوا بها رابطة الجنس (الوطنية) التى يبالغون فى تغطيتها واحترامها حمقاً منهم

وسفاهة. فمثلهم كمثل من هدم بيته قبل أن يهيء لنفسه مسكناً سواه فنذر للإقامة بالعراء معرضاً لفواعل الجو وما تصول به.

هذا الأسلوب من السياسة الأوربية أجادت الدول اختياره، وجنت ثمارها فأخذت بين الشرقيين لتنال مطامعها فيهم. فكثير من تلك الدول نصبت الحبائل في البلاد العثمانية والمصرية وغيرها من الممالك الإسلامية. ولم تعدم صيدا من الأمراء والمنتسبين إلى العلم والمدنية الجديدة. واستعملتهم آلة في بلوغ مقاصدها من بلادهم. وليس عجباً من الدهريين والزنادقة ممن يتسترون بلباس الإسلام أن يميلوا مع هذه الأهواء الباطلة ولكنا نعجب من أن بعضاً من سذج المسلمين مع بقائهم على عقائدهم وثباتهم في إيمانهم يسفكون الكلام في ذم التعصب الديني. ويجهرون في رمي المتعصبين بالخشونة. والبعد عن معدات المدنية الحاضرة. ولا يعلم أولئك المسلمون أنهم بهذا يشقون عصاهم ويفسدون شأنهم. ويخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المارقين. يطلبون محو التعصب المعتدل، وفي محوه محو الملة ودفعها إلى أيدى الأجانب يستعبدونها ما دامت الأرض أرضاً والسماء سماءَ واللّه ما عجبنا من هؤلاء وهؤلاء بأشد من العجب لأحوال الغربيين من الأمم الإفرنجية الذين يفرغون وسعهم لنشر هذه الأفكار بين الشرقيين، ولا يخجلون من تبشيع التعصب الديني ورمي المتعصبين بالخشونة. والإفرنج أشد الناس في هذا النوع من التعصب وأحصرهم على القيام بدواعيه[1] ومن القواعد الأساسية في حكوماتهم السياسية الدفاع عن

(١) راجع في التعرف على موقف محمد عبده من الحضارة الأوربية الكتاب التذكاري الذى أعده المجلس الأعلى للثقافة. النصوص المختارة: النص [illegible] بالتعصب. فإنه يوضح للقارىء موقف الإمام محمد عبده بوضوح

دعـاة الديـن والقـائمين بنشره ومساعدتهم على نجاح أعمالهم . هذا الهدف المعلن صراحة من حوارهم معنا بلا خجل ولا التواء.

أن مـن حقـنا تاريخياً وحضارياً أن نطلب المقارنة بين أهداف ومقاصد حوارنـا مـع الغـرب يـوم أن كانـت الحضـارة الإسـلامية تظللّهـم بـروحها السمحة ومقاصدها النبيلة ومقاصدهم وأهدافهم من حوارهم معنا الآن. أليس من حقنا أن نقارن بين ما فعله عمر بن الخطاب يوم أن دخل بيت المقدس وكتـب معـاهدة الصـلح بيـنه وبـين الـروم وما تفعله الصليبية المعاصرة معنا الآن؟ ألم يطلب عمر من الجنود ألا يهدموا كنائسهم ولا معابدهم؟ أليس من حقـنا أن نقرأ آداب الجهاد فى الإسلام وكيف كان الرسـول يوصى صحابته ألا يقـتلوا شـيخاً هـرماً ولا إمـرأة ولا طفـلاً ولا يحـرقوا بيـتاً ولا زرعـاً ولا مسـتأمناً ونقـارن هـذا بمـا فعلـته فرنسا المتحضرة فى الجزائر يوم أن كتب هانوتوا هذا المقال مبيناً أهدافه من حواره مع المسلمين..؟

وإذا كـان هـذا هو موقف هانوتو وأهدافه من حواراته مع الإسلام فى مطلـع هـذا القـرن. فمـاذا كـان حـظ أصحاب الحوار بالكلمة فى المؤتمرات العديدة التى عقدت خصيصاً بقصد احتواء العالم الإسلامى شرقاً وغرباً؟ لقد عقد مؤتمر فى القدس سنة ١٩٣٥ تحت حماية بريطانيا وبرئاسة المستشرق زويمر الذى افتتح المؤتمر التبشيرى بخطبته التاريخية التى جاء فيها: أيها الأخوة الأبطال الذين كتب الله لهم الجهاد فى سبيل المسيحية واستعمارها

من هذه القضية. وهو موقف منصف ويتناقض تماماً مع رأى الذين يتمسحون بفكر محمد عبده ويجعلونه علمانياً ورائد للتنوير حسب مفهومهم الخاص.

لبلاد الإسلام فاحاطتهم عناية الرب... لقد أديتم الأمانة التى نيطت بكم أحسن أداء إننى أقركم أن الذين دخلوا المسيحية من المسلمين ليسوا مسلمين حقيقيين لقد كانوا كما قلتم أحد الثلاثة. إما صغير لم يجد من أهله من يعرفه الإسلام. أو رجل مستخف بالأديان لا يهتم إلا بقوته ولقمة العيش. أو ثالث يبغى الوصول إلى مصلحة شخصية وأن المهمة التى ندبتكم لها دول المسيحية فى البلاد المحمدية ليست هى إدخال المسلمين فى المسيحية فإن هذا هداية وتكريماً لهم وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من دينه ليصبح مخلوقاً لا صلة له باللّه وبالتالى لا صلة له تربطه بالأخلاق التى تعتمد عليها الأمم فى بناء حياتها وبهذا تكونون بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعمارى فى البلاد الإسلامية وهذا ما قمتم به فى المائة عام الماضية خير قيام وهذا ما أهنئكم وتهنئكم عليه المسيحية لقد قبضنا أيها الأخوان خلال هذه الحقبة من الدهر على جميع برامج التعليم فى المماليك الإسلامية ونشرنا فى ربوع تلك البلاد الكنائس والمدارس المسيحية التى تهيمن عليها دول أوروبا وأمريكا. أيها الزملاء لقد أعددتم فى بلاد المسلمين شباباً لا يعرفون الصلة باللّه ولا يريدون أن يعرفوا وأخرجتم بعضهم من الإسلام ولم تدخلوه فى المسيحية وبالتالى جاء النشىء طبقاً لما رسمه له الإستعمار لا يهتم بالعظائم من الأمور ويحب الراحة والكسل ولا هم له فى دنياه إلا الحصول على الشهوات .. باركتكم المسيحية ورضى عنكم الاستعمار فاستمروا فى أداء رسالتكم.. لقد أصبحتم موضع بركات الرب.

هذه نماذج قليلة مما كان يقصده الآخر من حواره معنا فى مطلع هذا القرن، أما فى وقتنا هذا.

فمن المفيد أن ننبه هنا إلى أن أحداث عصرنا السياسية محكومة إلى حد كبير بمذاهب فلسفية ومنطلقات فكرية تنير لها طريقها نحو تحقيق أهدافها وبلوغ غايتها، والذى يتأمل خريطة العالم السياسية الآن لا يجد قوة عسكرية شرقاً أو غرباً، إلا وهى محكومة فى رسم سياستها بمذهب فكرى ومنطلق فلسفى يبرر لها سياستها فى شرق الكرة الأرضية طيلة هذا القرن وهى محكومة بمنطقها الفلسفى الذى جسدته الشيوعية على أرض الواقع التى احتلتها وجعلتها حقول تجارب للفلسفة الماركسية حتى خربتها وجعلتها أثراً بعد عين. ونفس السياسة قد انتهجتها أوروبا وأمريكا. وفى المستعمرات الخاصة لهما. أما الصهيونية العالمية وما فعلته على مستوى النظر والتطبيق فكان أخطر من هذا وذاك. ذلك أن أقطاب الفكر الصهيونى استطاعوا أن يتسللوا إلى مواقع التأثير فى اتخاذ القرار السياسى فى بلاد كثيرة من أقطار العالم وجعلوا من أصحاب القرارات أدوات ينفذون بها إدارة الصهيونية السياسية فى بلادهم حيناً بوسائل الترغيب وأحياناً كثيرة بوسائل القهر والترهيب.

ومن تصاريف الأقدار الغربية ـ وأنا أعد هذه الدراسة طالعتنا صحيفة الأهرام فى ١٩٩٦/٣/٢٧ فى المقال اليومى للأستاذ أحمد بهجت بعنوان «التاريخ المسافر» حيث كتب معلقاً على كتاب المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل للأستاذ محمد حسين هيكل استهله ببيت من الشعر لأحمد شوقى ينعى فيه سقوط الأندلس بقوله:

يا أخت أندلسى عليك سلام ∴ هوت الخلافة عنك والإسلام

ثم قال معلقاً على قول أمير الشعراء:

أدرك أحمد شوقى بحس الفنان العلاقة بين سقوط الخلافة العثمانية وسقوط الأندلس. وأن سقوط الخلافة العثمانية وسقوط الأندلس حين سقطت وأباد الغرب كل من كان فيها من المسلمين واليهود على سواء ثم أخذ يتساءل الأستاذ أحمد بهجت عن العلاقة بين كتاب المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل الذى كتبه الأستاذ محمد حسنين هيكل وسقوط الخلافة العثمانية وسقوط الأندلس فيما مضى من التاريخ وسقوط القدس حالياً ليكتشف فى الإجابة عن سؤاله أن السبب فى هذه الكوارث الثلاثة واحد ويجسده فى قوله هو الابتعاد عن روح الإسلام ومحاولة الاحتفاظ بشكله ومظهره والابتعاد عن روحه وجوهره. وهذا إنما تم وأصبح واقعاً بسبب هجرة العقول من منطق الحكمة إلى فوضى الحماقة ومن التوحيد والتجمع إلى التمزق والتشرذم. وتفريط الملوك والحكام. وقهر الشعوب وحجب المعلومات الصحيحة عنها. والكذب عليها. والاتصال بالعدو بل والتحالف معه أحياناً. كل هذه الأسباب يعتبرها الأستاذ محمد حسنين هيكل فى كتابه كأسباب للكوارث الثلاثة التى حاقت بالأمة الإسلامية. سقوط الأندلس. سقوط الخلافة. سقوط القدس وكل هذه الكوارث إنما وقعت بناء على منهج مرسوم يتحاور الغرب من خلاله معنا لأنه عرف كيف يتعامل معنا وكيف فهمنا. وكيف فهمناه. كيف عاملنا. وكيف عاملناه على مستوى النظر والكلمة أولاً ثم على مستوى الاحتكاك والواقع العملى ثانياً. كيف تعامل معنا ومن أى مذهب فكرى وعقيدى كان ينطلق فى تعامله معنا؟ وكيف تعاملنا معه وما هو المنطق الفكرى والعقائدى فى تعاملنا معه؟ ولعل من المفيد أن نضع تحت يد القارىء الوثيقة التاريخية التالية لنابليون بونابرت التى كتبها فى شكل نداء موجه إلى يهود العالم حاثاً لهم على

إنتزاع أرض فلسطين من أيدى العرب تنفيذاً لفكر معين يؤمن به وفلسفة عنصرية يدين بها فى تعامله مع الشرق بدأها نابليون بقوله:

«من نابليون بونابرت القائد الأعلى للقوات المسلحة للجمهورية الفرنسية فى أفريقيا وآسيا إلى ورثة فلسطين الشرعيين».

أيها الإسرائيليون. أيها الشعب الفريد. التى لم تستطيع قوى الفتح والطغيان أن تسلبه نسبه ووجوده القومي. وإن كانت قد سلبته أرض الأجداد فقط.

إن مراقى مصائر الشعوب الواعين المحايدين ـ وإن لم تكن لهم مقدرة الأنبياء مثل أشعياء ويوئيل ـ قد أدركوا ما تنبأ به هؤلاء بإيمانهم الرفيع أن عبيد اللّه (كلمة إسرائيل فى اللغة العبرية تعنى أسير اللّه أو عبد اللّه) سيعودون إلى صهيون وهم ينشدون. وسوف تعمهم السعادة حين يستعيدون مملكتهم دون خوف.

أنهضوا بقوة أيها المشردون فى التيه. إن أمامكم حرباً مهولة يخوضها شعبكم بعد أن اعتبر أعداؤه أن أرضه التى ورثها من الأجداد غنيمه تقسم بينهم حسب أهوائهم.. لا بد من نسيان ذلك العار الذى أوقعكم تحت نير العبودية. وذلك الخزى الذى شل إرادتكم لألفى سنة. إن الظروف لم تكن تسمح بإعلان مطالبكم أو التعبير عنها. بل إن هذه الظروف أرغمتكم بالقسر على التخلى عن حقكم. ولهذا فإن فرنسا تقدم لكم يدها الآن حاملة إرث إسرائيل. وهى تفعل ذلك فى هذا الوقت بالذات. وبالرغم من شواهد اليأس والعجز.

إن الجيش الذى أرسلتنى العناية الإلهية به. ويمشى بالنصر أمامه وبالعدل وراءه. قد اختار القدس مقراً لقيادته. وخلال بضعة أيام سينتقل إلى دمشق المجاورة التى استهانت طويلاً بمدينة داود وأذلتها .

يا ورثة فلسطين الشرعيين

إن الأمة الفرنسية التى لا تتاجر بالرجال والأوطان كما فعل غيرها. تدعوكم إلى أرثكم بضمانها وتأييدها ضد كل الدخلاء.

أنهضوا وأظهروا أن قوة الطغاة القاهرة لم تخمد شجاعة أحفاد هؤلاء الأبطال الذين كان تحالفهم الأخوى شرفاً لأسبرطة وروما. وأن معاملة العبيد التى طالت ألفى سنة لم تفلح فى قتل هذه الشجاعة.

بارعوا إن هذه هى اللحظة المناسبة ـ التى قد لا تتكرر لألاف السنين ـ للمطالبة باستعادة حقوقكم ومكانتكم بين شعوب العالم. تلك الحقوق التى سلبت منكم لآلاف السنين وهى وجودكم السياسى كأمة بين الأمم. وحقكم الطبيعى المطلق فى عبادة إلهكم يهواه. طبقاً لعقيدتكم. وافعلوا ذلك فى العلن وافعلوه إلى الأبد.

التوقيع بونابرت

هذا ما صرح به نابليون فى توضيح أهدافه من حملته على مصر والشرق عموماً وعليك أن تضع أمامك النصوص الثلاثة السابقة التى صرح بها هانوتو. وزويمر. ونابليون لنضع النقاط على الحروف بصدق وأمانة ونعرف أنفسنا بأنفسنا ماذا يريد الغرب منا. ونتعرف على وسائله فى تنفيذ سياسته فى بلادنا.

أن لغة الآخر فى الحوار معنا أصبحت مفروضة علينا ولا اختيار لنا فيها، لأننا قد وقعنا فريسة لمجموعة من المفاهيم والقيم التى نجح الآخر فى حملنا عليها وفرضها علينا خلال كثير من المؤسسات الثقافية والإعلامية التى وظفها أصلاً لهذا الغرض.

لقد ركز الآخر فى حواره معنا على قطع السياق التاريخى لأمتنا بين ماضيها وحاضرها وذلك حين أخذت سيطرة الغرب على البلاد الإسلامية أبعاداً أخرى تتجاوز فى أهدافها ومقاصدها مجرد السيطرة العسكرية والسياسية والاقتصادية، لقد حاولت أوروبا أن تحمل شعوب البلاد التى احتلتها على أنماط اجتماعية ورؤى حضارية وثقافية تختلف فى أسلوبها وأهدافها على الأنماط الاجتماعية والحضارية التى كانت سائدة فى هذه البلاد مما جعل كثيراً من هذه البلاد تسير فى فلك النمط الأوروبى فكراً وثقافة مما حكم على هذه البلاد بالتبعية المطلقة فى توجهاتها الثقافية والحضارية وهذا بالتالى قد أفقدها هويتها وانتمائها وقتل فى نفسية شعوبها الاحساس بالخصوصية الإسلامية والذاتية العربية وجعلت من أوروبا القبلة التى ينبغى أن تحج إليها طلال الحضارة والمدنية وأصبح النموذج الأوربى هو المثل الذى يتطلع الكل إلى تقليده بدعوى التنوير والتقدم ونشأ فى عالمنا العربى حركة ثقافية تدعوا إلى التغريب فكراً وثقافة وحضارة حتى تنهض كما نهضوا أسوة بالغرب فى سيرتها الحضارية ولكى تستقيم سيرتنا إلى الأمام ـ حسب زعمهم ـ لا بد من قطع الصلة بالماضى وتاريخه وقيمه وأدبياته.

ومن الجدير بالإشارة هنا أن عصر النهضة فى أوروبا بدأ بثورته على الكنيسة وتفسيراتها الخرافية للظواهر الطبيعية ولقد أفرزت هذه الثورة

العلمية على الكنيسة نزعة الحادية عامة شملت معظم دول أوروبا ووجدت هذه النزعة الإلحادية من يتبنى الدعوة إليها وأصبح مناهضة التدين ومحاربة المقدسات الدينية التى تجسدت فى مواقع الكنيسة إحدى مظاهر التنوير والتقدمية فى أوروبا ولقد صاحبت هذه النزعة الإلحادية حركات الاستعمار الأوربى للبلاد الإسلامية وأعلت هذه النزعة الإلحادية عن نفسها احيانا بالأسلوب الصريح وأحياناً بالإشارة والتلميح وجندت لذلك بعض الأقلام فى البلاد العربية التى خلطت الأوراق ولم تفرق بين ماهو إسلامى وما هو كنسي.

ولا بين ما هو عربى وما هو أوروبى فى كل شيء حتى فى العادات والتقاليد والمفاهيم الاجتماعية وربما كان حرصهم على محو هذه الخصوصية الإسلامية أكثر الحاحا لأنها هى التى تشكل البنية الإنسانية وترسم لها ميولها ورغباتها وتشحذ وجدانها نحو الأهداف والمقاصد التى تريدها وكان من أبرز هذه المقاصد المطلوبة هو قطع النسق التاريخى للأمة الإسلامية ومحاولة قطع الصلة بين الحاضر والماضى فصوروا الماضى على أنه كله تخلف ورجعية ينبغى التخلص منه وصوروا نهضة أوروبا على أنها الخلاص والملاذ الذى ينبغى أن نسارع باللحاق به وأنها الكعبة التى ينبغى أن نحج إليها.

وهذه المحاولات ربما كانت أخطر المحاولات التى جرت فى مطلع هذا القرن ولا زالت إلى الآن بقصد قطع النسق التاريخى لهذه الأمة ومحاولة فصل حاضرها عن ماضيها وسخرت لهذه القضية أجهزة إعلامية ومؤسسات ثقافية استخدمت فى سبيل الدعوة لهذه القضية كل وسائل الإرهاب الفكرى بل والأمنى فى كثير من الأحوال.

لقد نجح الغرب إلى حد كبير فى نقل المعركة التى قامت بين الكنيسة والعلم فى أوروبا إلى بلاد المسلمين. ونجحوا فى تصوير الدين بأنه يناهض العقل ويحارب العلم وأنه لا يمكن لهما أن يلتقيا أبداً فأما العلم والأخذ بمنطقه ومنهجه للتقدم وإما الأخذ بمنطق الدين وحينئذ فلا أمل فى النهوض والتقدم وهذا المنطق المعكوس إذ كان له ما يبرره فى أوروبا فليس له ما يبرره أبداً فى منطق الإسلام. ذلك أن الإسلام ليس هو الكنيسة فى عصرها المظلم. وليس الذين يتبنون هذه الفربة الظالمة فى بلادنا هم بالعلماء العلميين وهذه المعركة الزائفة والمفتعلة بين المتحاورين فى جانب الفكر الإسلامى من جانب ودعاة التنوير والتقدمية من جانب آخر ليس لها ما يبررها فى أرض الواقع إسلامياً ولا تاريخياً، فلم يكن الإسلام يوماً ما رافضاً للعلم ولا للتنوير ولا للتقدم. ولم يكن مفكروا الإسلام والمسلمون كذلك أبداً. لأن العلم الصحيح فى نظر الإسلام عبادة دينية. ولكن السؤال الموجه إلى هؤلاء السادة. ما هو التنوير المطلوب لتقدم الشعوب ونهضتها وما هو التقدم المنشود، من الذى يجرؤ على القول بأن الإسلام يرفض العلم ويحارب العقلانية والعلم الصحيح فى نظر الإسلام دين وعقيدة طلبه عبادة وفريضة والأخذ بمنهجه دين وشريعة ومن الذى يجرؤ على القول بأن مفكرى الإسلام يحاربون العقل ويرفضون العقلانية والإسلام إنما نزل ليخاطب العقلاء ويجعل التفكير العقلى الصحيح فريضة إسلامية، لقد استطاع الغرب فى مرحلة تاريخية معينة أن يطرح مفاهيمه التى خرج بها من معركته مع الكنيسة على بلاد المسلمين وهى كلها مفاهيم رافضة للتسلط الكنسى باسم الدين وسحبوا هذا الرفض للكنيسة على الدين بمفهومه العام ونقلوا هذا المفهوم بملابساته إلى بلادنا وجندو فى بلاد المسلمين من تبنى

هذه الدعوى ودعا إليها وأصبح كل مفكر إسلامى فى نظر هؤلاء رمزاً للرجعية والظلام والتخلف ولا أدرى كيف غاب عن هؤلاء أن الإسلام ليس هو الكنيسة. وأنهم هم أنفسهم ليسوا نيوتن. ولا جاليليو. ولا بيكون. وإنما ينتمون بفكرهم ونشاطهم وتخصصهم إلى مجالات أخرى لا علاقة لها بحقل العلوم التى حمل لواءها علماء المسلمين منذ عدة قرون فنوروا بها أوروبا نفسها وأخرجوها من كهف التخلف إلى عصر النهضة التى نعيشها الآن:

إننا فى حاجة ماسة أيها السادة إلى توضيح هذه المفاهيم التى لاكتها الألسن وسودت بها الصحائف فى عصرنا هذا فنعرف الشباب ما هو التنوير الذى ننشده لأمتنا. وهل هذا التنوير يتناقض مع منطلق الإسلام حتى يصورهما البعض على أنهما متناقضتين لا يجتمعان أبدا. وما هو التقدم الذى نأمله وما هى النهضة التى نفتقدها هل هى كامنة فى علاقتنا بالله أم أنها تركز أساسا فى علاقتنا بالأشياء وظواهر الكون ولغة العلم المفقود. أن أصحاب النظرية العلمية التى غيرت وجه التاريخ لم يكتشفوها من منطلق كفرهم بالخالق. ولا لأنهم ينكرون الغيبيات ويكفرون بها ولم يقولوا أبداً أن هذه الاكتشافات كان سببها رفضهم للإيمان وإنكارهم الاعتقاد فى الله وإنما كان ذلك نتيجة طبيعية لأخذهم بالأسباب العلمية التى حث عليها الإسلام وأهملها المسلمون/ فأخذوا بها وتركناها. فتقدموا وتأخرنا. ونهضوا. وتخلفنا وهذه سنة من سنن الله فى كونه لا علاقة لها بدين الظالم ولا انتمائه الثقافى ولا جنسه ولا لونه فمن اكتشفها وأخذ بها حصل على نتائجها من التقدم والسبق الحضارى حتى ولو كان مكتشفها كافراً ولا يؤمن بالله ومن تقاعس عنها تأخر حتى ولو كان من أتقى عباد الله.

هى سنة الله فى كونه ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، لقد دأبت بعض الأقلام تصوير علاقة العلم بالإسلام والمسلمين على أنها علاقة تناقض وأن العقلانية تتناقض مع الإسلام متأثرين فى ذلك بموقف العلماء فى أوروبا من الكنيسة وخرافاتها ومتأثرين فى ذلك أيضاً بموقف بعض المستشرقين من الإسلام الذين لم يفرقوا فى كتاباتهم بين الإسلام وغيره من الأديان الأخري. وأظهر ما يكون ذلك وضوحاً فى صفوف المشتغلين بالدراسات الفلسفية والأدبية فى العصر الحديث.

وبالله التوفيق

الحوار الإسلامي – المسيحي
نحـــو فهـم أفضـل

الأستاذ الدكتور/ محمد محمد أبوليلة(*)

مقدمـة

الحمـد للّـه رب العـالمين والصـلاة والسـلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمدٍ النبي الأمي الكريم وسَلِّم تسليما كثيراً؛ وبعد فإن تجمعنا اليوم في هذه الندوة العالمية لإجراء حوار بيننا حول « **الفلسفة الإسلامية كمدخل لـلحوار بـين الإسـلام والغـرب** » نحـن أسـاتذة جامعات الأزهر. والقاهرة ورابطـة الجامعـات الإسـلامية. ومركـز صـالح كـامل للاقتصـاد الإسلامي. وجامعـة بـريجهام يـانج الأمريكية – له أهميته الكبرى. كما أنه يجيء في وقته المناسب.

هـذه الـندوة تعتـبر مؤشـرا واضـحًا عـلى رغبة المشاركين فيها، لإيجاد سـبلٍ للـتفاهم المتـبادل لصالح شعوب العالم بأسره. ذلك العالمُ المتأزم الذي يعـاني مـن وطـأةِ كـثيرٍ مـن المشـكلات المعقـدة والمتراكمة. مشكلة البطالة. ومشكلة الجريمة بأنواعها. تجارة المخدرات، والعنف، والإرهاب. والتفكك الأسـري. والفقـر. والمرض. والأمية؛ وفوق ذلك كله ضعف الوازع الديني.

**) أستاذ مقارنة الأديان وأستاذ الدراسات الإسلامية باللغة الإنجليزية جامعة الأزهر

وتخلخل منظومة القيم الدينية. يضاف إلى ذلك تلك الكوارث الطبيعية التي لا دخل للإنسان فيها كالقحط والجفاف والفيضانات والزلازل والبراكين. والتي يقف الإنسان حيالها عاجزًا.

لقد شُطِر عالَمُنا الواحدُ إلى شطرين: غربٌ غنيٌ متقدمٌ صناعيًا وتكنولوجيًا. يملك المال والسلاح والبرامج والخطط وآليات التنفيذ. وشرقٌ فقيرٌ مكبَّلٌ بالمشكلات. محاصرٌ بالأزمات والنكبات. فكيف إذن يستطيع هذا العالم أن ينعم بالأمن والسلام والاستقرار. أو يَمْضي قُدُمًا في سبيل تقدُّمه ورخائه. وكيف يمكنه أن يتغلب على مشكلاته. وعلى الصعاب التي تواجهه. وتُثْقِل كاهلَه. وتصيبه بالإحباط المعنوي؟..

إن من واجبنا نحن أساتذة الجامعات وعلماء الدين أن نعمل على التقريب بين الشعوب وعلى مد جسور الثقة بينهم. وإضاءة مشاعل الأمل على طريقهم. لأننا جميعًا ننتمي إلى أصل واحد. آدم وحواء عليهما السلام. وأما الاختلاف الكائن بيننا سواء في اللغة أو الجنس أو اللون أو في طريقة التفكير إنما هو اختلاف تنوع ينتج عنه التعارف والتآلف. وليس هو اختلافُ تضاد يُولِّد العداوة والبغضاء والتعالي والأنانية.

يقول اللّه تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ (الحجرات: ١٣) وفي قراءة لابن عباس: "**لتعرفوا أن** ..." ومعناها: أي "لتعرفوا الحق" فكأنه تعالى يقول: "يا أيها الناس أنتم سواء.

من حيث أنتم مخلوقون. وإنما جعلتم قبائل وشعوباً لتتعارفوا ولتعرفوا الحق. وأما الشرف والكرم فهو بتقوى الله تعالى وسلامة القلوب، وفي قراءة تفسيرية لابن مسعود (**لتعارفوا بينكم وخيركم عند الله أتقاكم**)[1].

عَنْ أَبِي نَضْرَةَ ﷺ حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي وَسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ فَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ أَلاَ لاَ فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلاَ لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ ولا لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلا بِالتَّقْوَى"[2].

إن الاختلاف بين البشر آية من آيات الله في الكون وهو من صميم منهج الله تعالى في الخلق. يقول الله تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ**﴾ (الروم: ٢٢).

﴿**وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ البقرة: ١٤٨.

﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾ هود: ١١٨-١١٩

(١) ابن كثير. مختصر التفسير ٣ /٣٦٧ وابن عطية – المحرر الوجيز ١٣ /٥١٥-٥١٦.
(٢) تفرد به أحمد بن حنبل في مسنده في كتاب مسند الأنصار . رقم: ٢٢٣٩١

إن الله تعالى قد نَوَّع في الخلق لحكمةٍ سامية ومصلحة ظاهرة. نَوَّع في خلق الإنسان والحيوان. وبين سائر أفراد الممالك الموجودة في هذا الكون وأعيانه. بل ونوَّع بين أعضاء الجسم الواحد. وبين أبناء الأسرة الواحدة. تمييزًا لكل شخص عن الآخر. وتكثيرًا للصفات والمؤهلات والاستعدادات والأفكار والمفاهيم والخبرات الإنسانية. وذلك كله لمصلحة الإنسان. وتحقيقًا لمنهج الله تعالى في التعارف بين البشر. وإظهارًا لعمل الله تعالى في الخلق وسلطانه على المخلوقين.

ويُعلمنا القرآن أن الله تعالى لا يحابي جنسًا على حساب جنس آخر. ولا يظلم شعبًا وينصف شعبًا آخر. بل إنه قد كرّم الناس جميعًا بحُكم الخلق. وطبقًا لقاعدة العدل الإلهي.

يقول تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾ (الإسراء: ٧٠).

وعلى الإنسان أن يحافظ على هذه الأفضلية التي منحه الله إياها. وذلك بالسير على منهج الله تعالى. والعمل وفق ما جاء به رسله صلوات الله عليهم أجمعين. ومن فضل الله أن جميع الأنبياء قد دَعَوا إلى منهج واحدٍ. في الأساس وفي الهدف. فقد دَعوا إلى التوحيد المجرد. وإلى عبادة الله وحده لا شريك له. وإلى فعل الخيرات وتجنب الشرور. وإلى الإحسان في العمل والإخلاص في النية. وإلى التعاون على البر والتقوى. لا على الإثم

والعدوان، ودعوا كذلك إلى التمسك بسائر القيم التي من شأنها أن تحافظ على حيوات الناس وأعراضهم وأنسابهم وممتلكاتهم وعلى حريتهم وكرامتهم الإنسانية.

إن الإنسان لا يمكن أن يشعر بالسعادة أو يحيا آمنًا مطمئنًا في هذه الدنيا بلا دين يقويه ويهديه، ولو أن الناس أمكنهم أن يعيشوا حياتهم اعتمادًا على عقولهم وحدها لاقتضت الحكمة الإلهية ألا يرسل الله إليهم رسلا أو ينزل عليهم كتبًا، ولما ألزمنا الله بالعمل بتعاليم الدين، ولما رتب الحساب والعقاب على ذلك. ولما خلق الله الإنسان أصلا ميالا بطبيعته وفطرته إلى الدين.

إننا قد يمكننا أن نعيش بلا آداب أو فنون أو تكنولوجيا؛ ولكننا لا يمكننا البتة أن نحيا بلا دين أو نعيش بلا قيم روحية.

منهج الإسلام في المحافظة على نظام العالم وأمنه وسلامته

قدم الإسلام عدة أحكامٍ أوجب على أتباعه العمل بها لضمان تحقيق السعادة في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة. منها:

١- أن الناس جميعًا متساوون من حيث مبدأ الخلق. مختلفون فقط في أشكالهم وألوانهم ولغاتهم. وفي مؤهلاتهم وخصائصهم الوراثية. وأنهم جميعًا مُلزمون بالتمسك بمنهج الله. وبتحقيق القيم الدينية في واقع حياتهم؛ والإسلام كما ذكرنا. لا يقر التمييز العنصري أو الطبقي. ولا يبنى الأفضلية بين البشر إلا على أساس التقوى والعمل الصالح. وذلك حتى تستقر الحقوق. وتوزع المصالح على أساسٍ من العدل والأهلية. لا بدوافع الأنانية والمحاباة والاستعلاء العنصري والقهر والتسلط.

٢- أن حياة الإنسان يجب أن تُصان ضد أي عدوان فلا يُقْتل الإنسان ظلمًا. ولا تُمْتهن كرامته. أو تُسلب حريتُه أو يُعتدي على عرضه أو أرضه أو على أي حق له بأي شكل من الأشكال. ولذلك فقد حَرَّم الإسلامُ أن يَقتل الإنسانُ نفسَه أو ولدَه أو يقتل غيرَه. وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿**لا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلا بالْحَقِّ**﴾ (الأنعام: ١٥١). (الإسراء: ٣٣) ﴿**ولا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وإيَّاكُمْ إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خطْئاً كَبيراً**﴾(الإسراء: ٣١). ﴿**مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إسْرَائِيلَ**

أَنَّـهُ مَـن قَـتَلَ نَفْسـاً بِغَـيْرِ نَفْـسٍ أَوْ فَسَـادٍ فِـي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾ (المائدة: ٣٢).

وعـن عـدم الإكـراه في الديـن يقول تعالى: **﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ... ﴾** البقرة: ٢٥٦

ويكفـي لإبـراز أهمـية هـذا المبدأ القرآني في احترام الحرية الإنسانية أن هذه الآية قد ذُكِرت مباشرةً بعد أعظمِ آيةٍ في القرآن. وهي آية الكرسي.

جـاء في تعلـيق الإمـام الرازي على قوله تعالى: **﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾** أن الله تعـالى لم يَـبْنِ مسـألةَ العقـيدة على الإكراه أو الجبر والإلزام. وإنما على الإرادة الحرة والقدرة على الاختيار. فإنه ليس من الشرع أن يُجْبر من يـرفض الدين، ويعاند الحق في هذا العالم على اعتناق الدين؛ على أن هذا العـالم يجري الأمر فيه على الابتلاء والفتنة، وفَرْض الدين على شخصٍ ما يعـني حِـرمانه مـن حـرية الاختـيار الـذي يترتب عليه الحساب والثواب والعقاب.

وهـنا ينـبغي أن نعـرف أن الجهـاد الـذي جعله الإسلام فريضةً ملزمةً على المسلمين. إنما شُرِع للدفاع عن الأمة والملة، ولإزالة العقبات من طريق الدعـوة الـتي هـي واجـب أيضـاً عـلى المسلمين. فالإسلام ليس دينًا فقط. وإنمـا هـو ديـنٌ ودولـة. والإسـلام لم يُنْشـر بالسـيف، وإنمـا نُشـر بالقرآن وبأخلاق المسلمين في أغلب الأحوال. وإذا كان المسلمون قد رفعوا السيف.

فقد رفعوا سيفَ الرحمة لا سيف العنف والانتقام؛ وإلا فكيف يُتصور أن يفرضَ محمدٌ ﷺ دين الله على الناس تحت تهديد السيف. وأين كانت يا تُرى تلك القوة المادية والروحية التي تحمل هذا السيف؟.. وكيف انتشر الإسلام في القارات المختلفة بعد وفاة صاحب الدعوة بقليل. وبسرعة لم تحدث في تاريخ الأديان ولا في التاريخ الإنساني العام. ولا يزال الإسلام ينتشر إلى اليوم في العالم كله دون جيش أو سلاح.

٣- ينبغي علينا أيضًا عندما نتناول عقيدة الجهاد في الإسلام أو نُقَوِّمها على أساسٍ سليم أن نستحضر في أذهاننا أن الجهاد يبدأ أولاً من جهاد النفس. ثم جهاد العدو بطرق أخرى كثيرة قبل اللجوء إلى القوة. يقول تعالى: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضلَّ عَن سَبِيلِهِ وهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ (النحل: ١٢٥). ويقول تعالى: ﴿**ولا تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾...العنكبوت: ٤٦) ويقول تعالى: ﴿**إِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاغُ وعَلَيْنَا الحِسَابُ**﴾ (الرعد: ٤٠) ويقول تعالى: ﴿**وجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً**﴾ (الفرقان: ٥٢) ويقول تعالى: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ**﴾إبراهيم: ١).

ومعنى ذلك أن الكتاب المُنَزَّل وليس السيف المُصلَّت هو الذي يُخرج الناس من الظلمات إلى النور. وإلى الحياة الأفضل. وإذن فالسلام هو الأصل في قاعدة التشريع الإسلامي. أما الحرب فهي عرضٌ طارئ. ينبغي

مواجهتُه بحكمة: نعم إن الحرب مشروعةٌ في الإسلام؛ لكن لسببٍ مشروعٍ، ولهدفٍ مشروعٍ، وبطريقة أيضاً مشروعة؛ وسيرة النبي ﷺ تؤكد على ذلك. فقد تجنب النبي الصدام بأهل مكة بعد بعثته، ولم يرفع في وجههم سيفًا، ولم يَعنُف بهم. ولم يَستَعِن عليهم بالأشرار، ولا استَحَل في يومٍ دماءَهم أو أموالَهم أو أعراضَهم. بل كان ﷺمثالاً للصدق والأمانة بينهم. وهم الذين سَموه "**الصادق الوعد الأمين**."

لجأ النبي ﷺ إلى الطائف تجنبًا للصدام مع قريش وتَحمل هو وأصحابُه. وزوجُه خديجة. وعمُه أبو طالب الحصارَ الاقتصادي والاجتماعي الظالِمَ. الذي فرضَتْه عليه قريش. قُرابة الثلاث سنوات؛ ولم يأمر النبيُّ ﷺ أحدًا باللجوء إلى القوة لحماية نفسه؛ بل وجَّه بعضَ أصحابه إلى الحبشة. ليعيشوا كمهاجرين في كنفِ ملِكٍ نصراني عادل، شهد له رسول الله ﷺ بالفضل والعدل؛ ثم هاجر النبيﷺ إلى المدينة سرًا تجنبًا للصدام أيضًا. فابتدأ هناك عهدَه بالمؤاخاة. والتمكين للأمن والسلام، فآخى بين المهاجرين والأنصار، وكتب معاهدةَ سلامٍ بينه وبين اليهود تقرَّرَت لهم فيها حقوقُ المواطنة كاملة؛ وبهذا تأسست أولُ دولة في الإسلام على العدل والتسامح والتعايش السلمي.

ولا يفوتنا أن نلفت إلى أن النبيﷺ كان بطبعه وبمقتضى اختيار الله تعالى له رحيمًا عادلاً. محبًا للناس. رفيقًا بهم، يُفَضِّل الأيسرَ والأصلحَ للناس من الأمور عند كل اختيار. ولم يُعرف عنه البتة قَبلَ البعثة. ولا

بعدها أنه كان يميل إلى العدوان والانتقام. عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: مَا خُيِّرَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إلا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَأْثَمْ فَإِذَا كَانَ الإِثْمُ كَانَ أَبْعَدَهُمَا مِنْهُ وَاللَّهِ مَا انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ يُؤْتَى إِلَيْهِ قَطُّ حَتَّى تُنْتَهَكَ حُرُمَاتُ اللَّهِ فَيَنْتَقِمُ لِلَّهِ[1].

٤- شرع الإسلامُ المباهلةَ. والمباهلةُ هي الدعاء إلى الله والتضرع إليه من أجل إظهار الحق. وهي مشتقة من أبهلت فلانًا أي تركته وإرادته يختار ما يريده[2].

يقول تعالى: ﴿**الحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِّنَ المُمْتَرِينَ* فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وأَبْنَاءَكُمْ ونِسَاءَنَا ونِسَاءَكُمْ وأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الكَاذِبِينَ**﴾ (آل عمران: ٦٠، ٦١).

ودعاء النبي ﷺ للنساء والأبناء للملاعنة أشدُّ تحريكاً للنفوس. وتطويعاً للقلوب. للنزول على الحق. وترك العناد الذي يؤدي إلى الهلاك والفساد. كما أنه أدْعى لتنزل رحمة الله على الصالحين. أو حلول غضبه على المبطلين[3].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه في كتاب الحدود رقم ٦٢٨٨،

(٢) الراغب الأصفهاني. مفردات ألفاظ القرآن - ص١٤٩

(٣) ابن عطية. المحرر الوجيز. ج٣ ص١٤٩-١٥٣

وقد دعا النبيُّ ﷺ وفدَ نصارى نجران إلى المباهلة في العام العاشر من الهجرة، فامتنعوا؛ وهكذا فإن المباهلةَ إحدى طرق الدعوة لعرض الإسلام على الآخرين.

٥- وفي حالة ما إذا تعذر الوصولُ إلى الحق عن طريق المباهلة، فإن الإسلام يلجأ عندئذ إلى دعوة أهل الكتاب إلى التمسك بالثوابت المشتركة بين أهل الديانتين تَجنباً للصدام أيضًا، يقول تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إلا اللَّهَ ولا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ولا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾ (آل عمران: ٦٤).

و"**الكلمةُ السواءُ**" معناها كلمة العدل والحق، الذي يتساوى فيه الناس جميعًا؛ ويفسرها ابن عطية بمعنى "قصد استواء الحال"[1].

أظهر رسولنا الكريم ﷺ وكذلك أصحابه وخلفاؤه تعاطفًا كبيرًا نحو أهل الكتاب؛ ونحو النصارى بصفة خاصة، فقد سَمّى القرآنُ اليهودَ والنصارى بـ "**أهل الكتاب**". يعني أهل العلم والوحي السابق باعتبار الأصل، وسَمّى اليهودَ بـ "**أهل التوراة**"، وبـ "**أمة موسى**". والنصارى بـ "**أهل الإنجيل**" (المائدة: ٤٧).

(١) المصدر السابق. ج٣ ص٥٥-٥٦

وأثنى الله تعالى على بعض قساوستهم ورهبانهم وكذلك على القائمين بالحق منهم (المائدة: ٨٢؛ الحديد: ٢٧. آل عمران: ١١٣). وأطْلق الرسول ﷺ على اليهود والنصارى معًا عبارة "**أهل الذمة**" أي مَن لهم العهد والأمان من الله تعالى ورسوله. ومعنى "أذَمّه" أي "أجاره". ويلحق المجوسُ (أهل فارس) باليهود والنصارى في المعاملات. قال ﷺ عن المجوس: "**سُنُّوا بهم سنةَ أهلِ الكتاب**"[1].

وقد عامل الفاتحون المسلمون في الهند البوذيين معاملةَ أهل الكتاب قياسًا على حديث النبيﷺ في إلحاق المجوس بهم.

كما أعطى الإسلامُ لأهل الذمة حقَّ المواطنة كاملا. وأدخلهم ضمن التشريعات الإسلامية العامة. مع إعطائهم كذلك الحق في أن تكون لهم مَحاكمُهم الخاصة؛ ولم يعامِلهم كأقليةٍ تعيشُ على هامش المجتمع، وتُصارع من أجل البقاء على الكيان. والهوية والخصوصية؛ ومن المُهم أن نَعرف أن لفظة "**أقلية**" لم تعرفها القواميس العربية. إلا بعد احتكاك الشعوب العربية بالغرب في العصر الحديث.

(١) الشوكاني. نيل الأوطار. ج٨ ص٥٦؛ وابن منظور – لسان العرب ج٢ ص٢٢٢، رئزوان رفعت– دراسات في مقارنة الأديان.

وسائل تعزيز العلاقات بين المسلمين وأهل الكتاب

ولـتعزيز العلاقات بين المسلمين وأهل الذمة، أباح الإسلامُ للمسلم نكاحَ الكتابية (اليهودية والنصرانية) مع إعطائها الحق في البقاء على دينها. كما أبـاح للمسـلمين أكـلَ أطعمة أهل الكتاب. لا ما حرَّم الله عليهم منها. وفي ذلك تأسيسٌ للعَلاقات الاجتماعية وتعزيز لها.

يقول تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وطَعَامُ الَذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حِلٌّ لَّكُم**﴾...المائدة: ٥

ولقـد ضـرب الـنبيُّ ﷺ المـثلَ في ذلـك. فـأكَل مـن طعامِ أهل الكتاب: واشترط عمرُ بن الخطاب على نصارى سوريا أن يقدموا المأوى للمسلمين إذا مَـرُّوا بديـارهم؛ ولمـا كان ﷺ في سورية، أعدَّ بعضُ النصارى طعامًا، ودعوه هـو ومَـن معـه لتناوله داخل الكنيسة، فأرسل عمرُ عَليًّا ﷺ ما ومعه جماعة مـن المسـلمين إلى الكنيسة لتناول الطعام. ولم يشأ هو أن يَدخلها لأمرٍ رآه؛ ولما دخل عَليُّ بن أبي طالب ﷺ الكنيسةَ جعل ينظر إلى الصور والأيقونات المبـثوثة فـيها، ويقـول: "**مـا عَـلى أمـيرِ المؤمـنين من بأس، لو جاء فأكل معنا**" أو نحو ذلك.

وعندما كان عُمر ﷺ في الجابية استعار ثيابًا من نصراني فلبسها حتى غسلوا له ملابسه ،وتوضأ ﷺ من إناءٍ تملكه سيدةٌ نصرانية ، وكذلك صلّى سلمانُ الفارسي وأبو الدرداء في بيت لسيدة نصرانية[1].

وقد أوصى عمر بن الخطاب وهو يجود بحياته على إثر طعنةِ رجل من أهل الذمة هو أبو لؤلؤة المجوسي قائلاً: "أوصي الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيراً. أن يوفي بعهدهم. وأن يقاتل من ورائهم. وألا يكلفهم فوق طاقتهم"[2].

وأباح الإسلام أن يخالط المسلمون أهل الكتاب. وأن يُهنئوهم ويُواسوهم ويتهادوا فيما بينهم. وألا يتعصبوا عليهم أو يزدروا بهم أو يعتزلوهم. ما لم يكونوا محاربين. يقول الله تعالى: ﴿**لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ الممتحنة: ٨

(١) ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ورسالة في أمراض القلوب والرياض دار طيبة ١٤٠٣ ص ١٥٧

(٢) أخرجه البخاري والبيهقي في السنن ٢٠٦/٩، باب الوصايا بأهل الكتاب، ويحيى بن آدم في كتاب الخراج ص٧٤

وضع أهل الذمة في التشريع الإسلامي

الناس جميعًا أمام شرع الله سواء، فلم تُفرق الشريعة الإسلامية بين مسلم وغير مسلم في مجال المعاملات؛ وبالذات فيما يختص بالجريمة والعقوبات المترتبة عليها. والقاعدة الذهبية قررها الإسلام في التعامل مع غير المجتمع الإسلامي هي "**لهم ما لنا وعليهم ما علينا.**"

ويقول تعالى في شأن المعاملات التجارية ﴿ **ولا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وتُدْلُوا بِهَا إِلَى الحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ البقرة: ١٨٨

فهذا النهي عن أكل أموال الناس بالباطل عام يشمل المسلمين وغير المسلمين؛ وكذلك حرَّم الإسلام دمَ اليهودي والمسيحي على المسلم ما لم يكن محاربًا أو معتديًا؛ فإذا قتلَ مسلمٌ ذميًّا، قُتِل به قصاصًا، أو أُلزم بالدية. إلا إذا عفا عنه أهلُ القتيل، كما هو الحال بالنسبة للقاتل المسلم تمامًا. وإذا كَسَرَ مسلمٌ عظمَ ذميٍّ مَيِّتٍ كُسِر عظمُه؛ وإذا نَبَشَ قبرَه، عُوقب على ذلك. وحرَّم الإسلام كذلك الخوضَ في عِرض أهل الذمة. فلا يسب المسلمُ ذميًا أو يُقبحه أو يغتابه أو يلمزه، أو يقلل من شأنه. كما حَرَّم ذلك عليه بالنسبة لأخيه المسلم تمامًا. فالمسلم كما يُعَرِّفه النبي ﷺ هو "**من سلم**

المسلمون من لسانه ويده"[1] وفي رواية **"من سلم الناس من لسانه ويده"**[2].

وأخرج البيهقي من حديث عبد الرحمن بن اليماني أن رسول الله ﷺ قتل مسلمًا بمعاهد (أي ذمي) وقال: **"أنا أكرم من وفى بذمته"**. وجاء في حديث لرسول الله ﷺ بشأن القصاص **"والنفس بالنفس"** هكذا بلفظ العموم. ومعنى ذلك أن المسلم يُقتل إذا قَتل الكافرَ تعديًا[3].

وقد ورد أن عَلِيًّا ﷺ همّ بقتل مسلمٍ قَتَل ذميًا. ولكنَّ أهلَ القتيل عَفوا عن القاتل على اتفاق بينهم. ولما تأكد علي أن أهل القتيل لم يفعلوا ذلك تحت وطأة التهديد. قال علي ﷺ لأخي القتيل: **"لعلك تعرف أن مَن أعطيناه عهدنا، فَدَمُه كدمنا وديته كديتنا"**[4]، وقد فعل عمرُ ﷺ مثلَ ذلك في قضية أخرى مماثلة[5].

هذا هو الموقف العام للإسلام من أهل الذمة. موقف ثابت بثبات القرآن. وباق ببقاء سنة النبي ﷺ فهو موقف تعبدي وليس موقفاً مدنياً فحسب. لا تزعزعه الأهواء. ولا تتهدده النظمُ المتغيرةُ. ولذلك فإن وضع الذميين ظل هكذا منذ عهد الرسول ﷺ وإلى اليوم. لم يطرأ عليه أي تغييرٌ

(١) رواه البخاري ومسلم في كتاب الإيمان
(٢) رواية النسائي في كتاب الإيمان وشرائعه /٤٩٠٩
(٣) الشوكاني: نيل الأوطار. ج٧ ص ٦-١٠.
(٤) البيهقي في السنن الكبرى
(٥) نيل الأوطار ج٧ ص١١-١٢ والجصاص. أحكام القرآن ج١ ص١٤١

يُذكر، مهما كان شكلُ الحكم في الدولة المسلمة؛ والأمر الذي يلاحظ من دراسة تاريخ أهل الذمة في المجتمع الإسلامي أنهم ظلوا محتفظين بالامتيازات التي منحها لهم الإسلام في كل العصور. لم يختلف وضعهم من عصر إلى عصر إلا اختلافًا يسيرًا. اختلافًا في الدرجة وليس في النوع.

وإذا كان الذميون قد اعترضَتْهم أو اعترضَتْ بعضَهم بعضُ المشكلات في مرحلةٍ ما من مراحل التاريخ الإسلامي. فإن هذا ينبغي أن يُحمل على فعل السياسة لا على فعل الدين، وكذلك على موقف أهل الذمة أنفسهم؛ فقد جاء أن الخليفة العباسي المتوكلُ (قُتِل ٢٤٧ هـ) أمرَ بتخصيص أجزاء من الكنائس الكبرى لصلاة المسلمين لأسبابٍ عملية.

ولقد كانت أيام المتوكل كما يصفها المسعودي: "في حسها ونضارتها ورفاهية العيش بها. وحمد الخاص والعام لها. ورضاهم عنها. أيام سراء، لا ضرّاء؛ وكانت خلافتُه أحسنَ من أمن السبيل ورخص السعر، وأماني الحب وأيام الشباب"[1].

ولظروف تخص أمن الخلافة. وللقضاء على الفتن أمر المتوكلُ العلماءَ بترك النظر والمباحثة والجدال. وأمر الناسَ بالتسليم والتقليد، كما أمر شيوخَ المحدثين بتدريس الحديث وإظهار السنة والجماعة.

(١) مروج الذهب ج٤ ص ١٢٢

وقد وُصِف المتوكلُ بأنه كان رفيقًا بالناس ويعاقب من يضطهدهم[1].

ويوجب الإسلام على رأس الدولة المسلمة أن يمد أهل الذمة باحتياجاتهم. ويوفر لهم ضرورات العيش. وأن يتفقد أحوالهم[2].

ويباح للمسلم شرعًا أن يوصي لأهل الذمة من ماله الخاص. وأن يُوقف عليهم. وقد أوصى صلاح الدين الأيوبي بأن يوزَّعَ مالُه بعد وفاته على فقراء المسلمين وفقراء النصارى.

وكان بعض التابعين يعطون جزءًا من صدقة الفطر لرهبان النصارى. ولا يرون في ذلك حرجاً شرعياً. وذهب بعضهم كعكرمة وابن سيرين والزهري إلى جواز إعطائهم من الزكاة. وروى ابن أبي شيبة عن جابر بن زيد أنه سئل عن الصدقة فيمن توضع؟.. فقال: "في أهل ملتكم من المسلمين. وفي أهل ذمتكم"[3].

ولقد أفاض ولترسكوت في قصة الطلسم في ذكر فضائل صلاح الدين ودماثة خلقه مع الصليبيين الذين اتسموا بالفظاظة وقلة الثقافة. كما وصفهم الفارس المسلم أسامة بن منقذ[4].

---

(١) المصدر نفسه ص ٨٨

(٢) ابن حزم الأندلسي – المحلي ج٨ ص٧٥

(٣) المصدر السابق ١١٧/٥

(٤) كتاب الاعتبار – ص ٢٣٢ وقد ترجم فيليب حتى هذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزية ونشره في برانستون ١٩٣٠م

وقد لاحظ غليوم الصوري مستشار ليودوين الرابع، وهو فرنسي من مواليد فلسطين إعجابه الشديد بأخلاق المسلمين في التعامل مع غير المسلمين.

ووصف الرحالةُ الغربيون المسلمين بأنهم "كرام وظرفاء، وروحيين قنوعين. ويؤثرون حياة الآخرة على الحياة الدنيا"[1]. وعلى الرغم من إنصاف هؤلاء الرحالة فإن المسلمين يؤثرون الحياتين معاً، ويعملون للدنيا كما يعملون للآخرة .

ولقد كان المسلمون والنصارى يحاربون معًا وفي خندق واحد ضد الصليبيين إخوانهم في الدين: لأنهم رأوا فيهم مستعمرين لوطنهم تحت ستار الدين.

وكان الصليبيون لا يحترمون نصارى العرب، بل كانوا يعتبرونهم جواسيس لصالح المسلمين، ولم يندمجوا البتة معهم أو يشركوهم في احتفالات دينية.

وبالنسبة لواجب الدولة الإسلامية تجاه أهل الذمة فنضيف أن الإمام أبا بكر الكاساني من فقهاء الأحناف (ت ٥٨٧ هـ –١١٩١م) يقول: "إن الذميَّ مواطنٌ في المجتمع المسلم". ويذهب فقيه مصر الليث بن سعد (ت

(١) غليوم – حوادث ما وراء البحار ١١٨٤

١٩٥ هـ -٨١٠م) إلى أنه من واجب الدولة الإسلامية أن تفتدي الأسير الذمي من بيت مال المسلمين.

ويذهب أبو بكر محمد السرَخسي (٤٩٠هـ/ ١١٩٥م) إلى أبعد من ذلك فيقول: "إذا جاء أحد من غير المسلمين لاجئًا إلى ديار الإسلام، وطلب الأمان لا يُسَلَّم إلى بلده. حتى ولو هُدِّدَت البلدُ التي أعطته الأمانَ بالحرب. كما لا ينبغي تسليمه في عملية تبادل أسرى (إذا كان في هذا تهديد لحياته). وإذا أحضر هذا اللاجئُ معه مالاً من بلده، لا ينبغي إرهاقه بالضرائب. حتى لا ينفد ما معه من مال"[1].

لقد طُبقت تعاليمُ الإسلام الخاصة بأهل الذمة عليهم في المجتمع الإسلامي في جميع العصور. باختلاف يسير بين عصر وعصر تبعًا للظروف والأحوال المختلفة التي شملت جميع أبناء الوطن الواحد كما أشرنا إليه آنفا.

استطاع الذميون في ظل الإسلام أن يحافظوا على هويتهم الدينية. وأن يمارسوا شعائرَهم وطقوسَهم في حرية. ولم يعمل الإسلام على تذويبهم في المجتمع الإسلامي البتة. وكان لغير المسلمين الحق في أن يدافعوا عن دينهم ويجادلوا المسلمين عنه. بل لقد ألف بعضُهم كتبًا ورسائل في الهجوم على الإسلام. لا يزال بعضها موجودًا إلى اليوم. على سبيل المثال "كتابات

---

(١) كتاب المبسوط ج٣ ص٣٠٠

يوحنا الدمشقي"، و"محاورة البطريارك السرياني تيموثي" و"ابن النغزيلة اليهودي" الذي رد عليه ابن حزم الأندلسي[1].

(١) انظر:
N.A Newman, & the early Christian Muslim dialogue – interdisciplinary political research institute, halfiel, Pennsylvania, 1993.

الجـزية

الجـزية هي قدر من المال يؤخذ من أهل الذمة مقابل حمايتهم وتمتعهم بحق المواطنة. وقد جاء ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَن يَدٍ وهُمْ صَاغِرُونَ**﴾ التوبة: ٢٩

ومعنى: "**يعطونها عن يد**" يعني أن يكونوا قادرين على أدائها مالكين لهـا. وإلا سـقطت عـنهم. ومعـنى "**هـم صـاغرون**" أي طـائعون راضـون بأدائها. وكلمة "**صاغرون**" هنا تعطي معنى الإلزام لهم لأنها فريضة فُرضت علـيهم مـن ديـنٍ غـيرِ الدِّيـن الذي يعتقدونه؛ مما قد تثير في النفوس بعض الأنفـة فـلا يؤدونهـا طواعـية ولا يقـدِّرون الحكمـة الـتي من ورائها. وكلمة "**صاغرون**" لا تعني التحقير من أهل الذمة أو التقليل من شأنهم. وقد فرض الله تعـالى الجـزية عـلى أهـل الذمـة. كمـا فرض الزكاة على أهل الإسلام لمصـلحة الفقـراء وأصـحاب الحاجات ولإحياء الموات (أي الأرض المجدبة) ولإدارة شئون البلاد وللدفاع عن الوطن وحماية الأمة .

أمـا إذا لم توفـر الدولةُ الإسلامية الحمايةَ لأهل الذمة فإنه لا جزية لها علـيهم. وفي حالـةِ إذا مـا حُصِّـلت الجـزيةُ مـنهم. وعجـزت الدولـة عـن حمايتهم. وجب ردُّها إليهم. ومَن انْخَرط من أهل الذمة في سلك الجندية. وشارك في الدفاع عن الوطن فلا جزية عليه؛ ولا جزية على فقير أهل الذمة أو مُقعدهم أو عاطلهم. ولا على نسائهم وأطفالهم. ولا على رجال الدين ولا

على المنقطعين للعبادة منهم؛ بل إنه من حق المحتاج من أهل الذمة، أن يأخذ من بيت مال المسلمين ما يكفيه ويغنيه عن السؤال.

ومن الجدير بالذكر أن نعرف أن قيمة الجزية على كل فرد قادر كانت تتراوح ما بين دينار إلى أربعة دنانير بحسب الحالة المادية للذمي؛ على أن من عجز منهم عن أدائها في وقتها، لا يُطالب بها بعد ذلك. وليس من حق الحاكم المسلم أن يَشقَّ على أهل الذمة فيعاقبهم بالحبس أو بالضرب، بسبب العجز عن أداء الجزية أو حتى التهرب منها.

إن الجزية وكذلك سائر النظام المالي الذي فرضه الإسلام على أهل الذمة كان عملا إداريًا تنظيميًا مُقَنناً في إطار القيم الإسلامية الثابتة وهو نظام يُحسَبُ للإسلام لا عَليه[1].

(١) الشوكاني – نيل الأوطار ج٨ ص ٥٨ وما بعدها، وأبو الحسن البلاذري فتوح البلدان ص ١٤٣، وأبو يوسف كتاب الخراج ص ٢٤٥ وما بعدها

الإسلام ودُورُ العبادة غير الإسلامية

أعطت الشريعة الإسلامية لغير المسلمين حريةَ العبادة. كما حافظت على دور العبادة الخاصة بهم على الرغم مما قد احتوى عليه بعضها من صورٍ وأيقونات وتماثيلَ لا يُقرّها الإسلامُ. فلم يتعرض لها المسلمون بهدمٍ أو تشويهٍ أو مصادرةٍ. ولم تُحَوَّل كنيسةٌ أو معبدٌ في تاريخ الإسلام إلى أي صفةٍ مخالفةٍ كمتحف أو إسطبل أو ملهى. أو غير ذلك. كما حدث بالنسبة لديانات أخرى. بل كانت الكنائس والمعابد تُفتح بالليل والنهار للعبادة وللاحتفالات الدينية. وللقيام بواجب الرعاية المادية والروحية لرعاياها. وكانت الكنائس تدُق الأجراس بأمرٍ من الولاة ولا تُمْنع إلا في أوقات صلوات المسلمين. وبالذات أثناء صلاة الجمعة[1].

وعندما دخل عمرو بن العاص مصرَ أحضر بنيامين بطريارك الإسكندرية. وأجلسه على كرسي الكرازة المرقسية بعد غيابٍ دام ثلاث عشرة سنة. ومن قبلُ رفض عمرُ بن الخطاب ﷺ أن يُصلي في كنيسة القيامة عندما زار فلسطين مخافةَ أن يدَّعي جهلةُ المسلمين أنها لهم بحجة أن الخليفة عمرﷺ صلَّى فيها.

وعندما دخل المنصور بن أبي عامر (في أواخر القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي) مدينة سنتيجو الأسبانية. ووصل إلى مقبرة القديس جيمس

---

[1] راجع ج ٣ ص ٣٠٠، حقوق أهل الذمة، ص ٧٤

أقام حرسًا خاصًا عليها لحمايتها من أي اعتداء[1].

وفي هذه القرينة نشير إلى ما قاله ميخائيل الأكبر بطريارك الكنيسة اليعقوبية بأنطاكية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر بشأن الاعتداء الروماني على نصارى الشرق يقول: "..وهذا هو السبب في أن إله الانتقام الذي تفرد بالقوة والجبروت، والذي يُبدل دولةَ البشر كما يشاء، فيؤتيها من يشاء، أرسل أبناءَ إسماعيل (العرب) من بلاد الجنوب ليخلصُنا على أيديهم من قبضة الروم الذين لجأوا إلى القوة. فنهبوا كنائسنا، وسلبوا ديارنا في سائر البلاد. وأنزلوا بنا العقاب من غير شفقة ولا رحمة؛ ولم يكن كسبًا هينًا أن نتخلص من قوة الروم وأذاهم وحنقهم وتحمسهم العنيف ضدنا. وأن نجد أنفسنا في أمن وسلام."

أما ما سجله التاريخ من أن الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله كان قد أمر بهدم دير كنيسة القدس (٤١١ هـ / ١٠٢٠م) وكذلك جميع الكنائس المصرية، كما أوجب على اليهود والنصارى أن يلتزموا بزي معين تمييزًا لهم عن المسلمين. فإن التاريخ قد سجل أيضًا أنه قد عاد فأصدر أمرًا ببناء الكنائس التي هدمت. وترميم الكنائس الآيلة للسقوط على أنه ينبغي أن نعرف أن الحاكم بأمر الله كان غريب الأطوار اتسم حكمه بالقسوة على المسلمين وأهل الذمة سواءً بسواء. وأن تصرفه ذاك لم يكن من منطلق إسلامي.

(١) ابن عذاري المراكسي – البيان ليدن مريل ١٩٥١ ص ٣٩٤

مظاهر الوحدة الوطنية

ذكرنا فيما سبق أن النبيَّ ﷺ قد زار أهل الكتاب. وأنه لما رأى جنازة لأحد موتى اليهود قد مرت به. وقف لها. فقيل له: هذا يهوديٌّ يا رسول الله. فقال: "**أليست نفسًا**"[1].ولما ماتت أم الحارث بن أبي ربيعة وهي نصرانية فشيعها الصحابة رضوان الله عليهم[2]. وهكذا اقتدى الصحابة رضي الله عنهم بأخلاق الرسول ﷺ وساروا على نهجه في معاملة أهل الكتاب.

وفي البلاد الإسلامية التي يوجد بها يهود أو نصارى كان كل فريق يتعبد في كنيسته أو معبده دون خوف أو توجس. وقد لفت نظر ليندو تجاورُ المساجد والمعابد والكنائس في الأندلس. وممارسة أهلها لشعائرهم دون أدنى اضطهاد. وذلك عكس ما كانت الكاثوليكية تفعله في أسبانيا بأهل الديانات الأخرى، بل وبأهل الطوائف النصرانية الكاثوليكية [3].

كان المسلمون ولا يزالون يختلطون بأهل الذمة ويتزاورون. بل كانوا يتحاورون في المساجد. وبعض دور العبادة الأخرى. حول مسائل دينية

---

(١) رواه البخاري ونصه "حدثنا شعبة حدثنا عمرو بن مرة قال سمعت عبد الرحمن بن أبي ليلى قال كان سهل بن حنيف وقيس بن سعد قاعدين بالقادسية فمروا عليهما بجنازة فقاما فقيل لهما إنها من أهل الأرض أي من أهل الذمة فقالا إن النبيﷺ مرت به جنازة فقام فقيل له إنها جنازة يهودي فقال أليست نفسا"

(٢) القرضاوي. غير المسلمين في المجتمع الإسلامي. ص٥٠ دار وهبة /١٩٨٤

(3) E.H Lindo. The History of the Jews of Spain and Portu... (London. J. wertheimer and co.n.d.) p40

وغير دينية. فقد كان النصارى يترددون على مجالس الفقهاء والعلماء المسلمين يتعلمون منهم ويناقشونهم. فعلى سبيل المثال تحاور قاضي قرطبة نبيل بن أصبغ مع ابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦ هـ -١٠٦٤م) أثناء درسه بأحد مساجد قرطبة حول مسألة النعيم والعذاب الحِسِّيين في الآخرة؛ وقد ألزمه ابن حزمٍ الحجةَ في أنه يوجد في الأناجيل. وفي كتب اليهود كذلك ما يدل على الأكل والشرب. وسائر أنواع النعيم في الجنة. وكذلك بالنسبة لأهل النار[1].

وقد عرَّفنا أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم أن ابن عمه الفقيه الكبير ورائد علم مقارنة الأديان "ابن حزم الأندلسي" كان يتردد على بيت الْحَزَّان في قرطبة. وأنه كان يُكثر من قراءة كتب اليهود. وابن حزم يُعتبر من أعلم علماء المسلمين بل والعالَم بأسره، بكتب اليهود. وهو أول مَن قَدم لنا دراسة نصية فاحصة لكتب التوراة وكتب العهد القديم، قد أفاد منها من جاءوا بعده من علماء المسلمين وغير المسلمين؛ وقد بين ابن حزم في دراسته لكتب اليهود الخلل التاريخي والأخطاء الكثيرة التي دخلت عليها. وأحدثت فيها التحريف والتبديل. وقد بنى النقاد الأوربيون في العصر الحديث آراءهم في نقد التوراة على ما قاله ابن حزم في الأساس.

(١) ابن حزم في الملل والنحل (القاهرة طبعة صبيح ١٩٦٤ ج٢ ص ١٠٣/ وابن بسام الذخيرة – قسم١ ج١ ص ١٣٧.

لقد أعطى المسلمون لليهود في الأندلس. وفي غيرها من الممالك الإسلامية. الحريةَ التي حُرِمُوا منها. وأنقذوهم من الإبادة على أيدي الكاثوليك المتعصبين. وفَتَحوا لهم مدارسهم وجامعاتهم. يتعلمون فيها. حتى استطاع اليهود أن يطوروا لغتهم العبرية وآدابها. وأن تكون لهم فلسفةٌ خاصة بهم على هامش الفلسفة الإسلامية. كما فَتحت لهم دور الخلافة أبوابَها. فعملوا بها وتَرَقّوا في الوظائف حتى وصل بعضُهم إلى الوزارة. هذا في الوقت الذي لم يكن اليهود يشكلون قوة. لا اقتصادية ولا سياسية. ولم يكن لهم كذلك قوة خارجية تَحميهم. فقد كانوا مضطهدين خارج العالم الإسلامي. فعلى سبيل المثال وصل حسداي بن شبروط اليهودي إلى أعلى المناصب في بلاط الخليفة عبد الرحمن الناصر في قرطبة. كما وصل إبراهيم بن هلال إلى مكانة عالية في ظل الخلافة العباسية. وكان إبراهيم هذا حافظا للقرآن الكريم"[1].

وفي أثناء مرض أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية بمصر كان أتباع الديانات الثلاث يتجمعون للدعاء له بالشفاء[2].

وعندما ضَرب الطاعونُ مدينةَ دمشق في عام ٣٤٨ هـ ٩٥٩ م أمر الوالي اليهود والنصارى أن ينضموا إلى المسلمين في أقرب المساجد إليهم ويشتركوا معهم في الدعاء إلى الله أن يزيل خطر الطاعون عنهم[3].

---

(١) ابن أبي أصيبعة. الطبقات

2) Baron A. Social and Religious History of the Jews (New York, Columbia university press, 1960) vol. 3. P. 140

ولدينا وثيقة مهمة كتبت بخط عربي جميل،ويرجع تاريخها إلى العصر الأيوبي، في هذه الوثيقة يوصي الوالي أحد قواده قائلا: "ينبغي عليك أن تحافظ على قساوستهم، ورهبانهم، وللمنقطعين في الأديرة للعبادة منهم، وعلى زُهَّادهم ونُسَّاكهم، فلا يمسهم أي أذى، بل افعل الخير لهم ولكل من سلك سبيلهم، تجاوز عن أخطائهم، وفرج كربهم، وأزل همهم وضاعف احترامك وحمايتك لبطاركتهم ورهبانهم"[1].

وحتى اليوم يعيش النصارى جنبًا إلى جنب مع المسلمين، ينعمون جميعًا بخيرات الوطن الواحد. ويدافعون عنه معًا إذا داهمه خطر أو تعرض لهجوم خارجي.

(1) Stern, ed. Oriental, Baron, vol. 3. P.116-140, studies III, documents from Islamic chanceries (oxford (1965) p.209.
دكتورة نورشيف عبد الرحيم رفعت. ابن حزم وآراؤه في اليهود واليهودية. رسالة دكتوراه بالإنجليزية ١٩٨٦ جامعة اكستر إنجلترا.

العقائد والقيم المشتركة بين المسلمين والنصارى

ذكرنا فيما سبق أن دعوة الأنبياء جميعًا واحدة، وأنهم جميعًا جاءوا بدين التوحيد، ودَعَوْا إلى الإيمان بالله وبعبادته وحده لا شريك له، وإلى الإيمان بوجود الملائكة وبالأنبياء السابقين، وبالبعث وبالحساب والعقاب، والجنة والنار، وحَثُّوا الناس على فعل الخيرات واجتناب الشرور، والبعد عن وساوس الشيطان، وعلى التمسك بالقيم الفاضلة. يستوي الإسلام في ذلك مع المسيحية واليهودية، بغض النظر عن بعض التفاصيل التي طرأت فيما بعد على الديانة الأصلية. وهذا كله هو ما تضمنته "**كلمة سواء**" التي دعا إليها القرآن﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاء** ﴾...الآية (آل عمران: ٦٤).

يعتقد المسلمون أن عيسى بن مريم عليه السلام نبي الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، خلقه الله تعالى من أم عذراء، دون أب، وخلقه بقوة الكلمة "**كن فيكون**"، وليس هو الكلمة نفسها، كما يقول تعالى﴿ :**إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ . الحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِّنَ المُمْتَرِينَ**﴾ (آل عمران: ٥٩-٦٠).

يقول تعالى﴿ :**إِذْ قَالَتِ المَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وجِيهاً فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ ومِنَ المُقَرَّبِينَ .**

ويُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهْدِ وكَهْلاً ومِنَ الصَّالِحِينَ . قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي ولَدٌ ولَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ . ويُعَلِّمُهُ الكِتَابَ والْحِكْمَةَ والتَّوْرَاةَ والإنجِيلَ . ورَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُم﴾...آل عمران: ٤٥-٤٩).

نلاحظ أن الآيات السابقة الخاصة بكيفية خلق عيسى عليه السلام جاءت في سورة واحدة هي سورة آل عمران، وأن الله تعالى جعلَ خَلْق عيسى عليه السلام مثل خلق آدم عليه السلام في الإعجاز، وفي التدليل على قدرته تعالى على التنويع في الخلق، وعلى إلزام الخلق بالإيمان بطلاقة القدرة الإلهية "**يخلق كيف يشاء**"؛ والله تعالى لا يَخْلُق مثلَه ﷻ لأنه لا مثيل له ولا شبيه له، وهو فوق الخلق أصلا، وفوق الزمان والمكان؛ ولذلك جعل الله مَثَلَ عيسى كمَثَل آدم؛ وفي هذا مطلق نفي الألوهية عن المسيح.عليه السلام

ونلاحظ كذلك أنه تعالى قال في الآية (٥٩) من سورة آل عمران عن مادة خلق آدم﴿ **خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ**﴾ ولم يقل تعالى (من طين) كما جاء في مواضع أخرى في القرآن (الأنعام ٢، الأعراف: ١٢، المؤمنون: ١٢، الصافات: ١١)، وذلك لأن التراب هو أبسط العناصر في المادة التي خُلق منها آدم عليه السلام وأخفها وألطفها، فهو لذلك يناسب خفة الروح التي خُلق منها عيسى عليه السلام ونظافتها وتفردها في عملية الخلق.

ونلاحظ أخيرًا أن الله تعالى يقول: "**بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ**" بعود الضمير على عيسى، ولم يقل "**اسمها**" بعَوْد الضمير على الكلمة. وهذا يؤكد ما قلناه من أن عيسى خُلق بالكلمة. وليس بتَجَسُّد الكلمة وصيرورتها بشرًا. كما يعتقد النصارى. وإلا لقال تعالى: "**بكلمة منه اسمها المسيح عيسى بن مريم.**"

وإذا ما قرأنا ما قاله لوقا في أول إنجيله (١:٣٠-٣٥) بخصوص خلق عيسى عليه السلام. ولوقا كتب إنجيله بعد رفع المسيح بعشرات السنين، نلاحظ أن الملاك جبريل قال لمريم "لا تخافي يا مريم. قد وجدت نعمة عند الله. وها أنت ستحبلين وتلدين ابنا. وتسمينه يسوع. هذا يكون عظيمًا. وابنُ العَليِّ يُدْعَى. قالت مريم للملاك كيف يكون هذا. وأنا لست أعرف رجلاً؟ فأجاب الملاك: وقال لها الروحُ القدُسُ يَحِلُّ عليك. وقُوَّة العَليِّ تُظِلُّك. فلذلك أيضا القدوسُ المولودُ منك يُدعَى ابنُ الله"

نلاحظ أن عبارتي "**وابنُ العَلِي يُدْعَى**". و"**يُدْعَى ابن الله**" جاءتا بصيغة المبني للمجهول، لتشير إلى أنَّ بعض الناس هم الذين سيَدْعُونه ابنُ الله أو ابنُ العلي. وليس هو الله تعالى؛ وإلا أخبرها الملاك بأنَّ ولدَها هو ابنُ الله. وأن الله يدعوه "ابن الله" هكذا مباشرة. ومن لطف الله بعباده أنَّه أعطى إشاراتٍ على أن المقصود بالخلق على هذا النحو، هو إثبات القدرة الربانية. ولفت الأنظار والقلوب المتحجرة إلى عالم الروح ليدخلوا من

خلالها على الله تعالى. وليؤمنوا برسله، وليرجعوا إلى شرعه الذي حَرَّفُوا بعضَه، وتَنَاسَوا أحكامَ البعض الآخر وتجاهلوها.

وفي الإصحاح نفسه يخبرنا لوقا أن الملاكَ قد أخبر مريم على سبيل تسليتها وتهدئة روعها "أن اليَصَابَات حُبْلى بابنٍ في شيخوختها؛ وهذا هو الشهر السادس لتلك المدْعُوَّة عاقر. لأنه ليس شيء غير ممكن لدى الله، فقالت مريم هو ذا أنا أَمَةُ الربِّ، ليكن لي كقولك" (لوقا: ٢٦-٣٧).

فها هو آدم عليه السلام قد خُلِق من تُراب؛ وها هي حواءُ قد خُلِقَت من جِسم آدم، أنثى من ذكر دون اتصال بأنثى؛ وها هو عيسى عليه السلام يُخْلَق من أُنثى دون اتصال بذكر. وها هو يحيى يُخلق من أبوين شيخين عقيمين. لا يُرْجى منهما الولدُ؛ لأنه بعبارة القرآن﴿ :**إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ (آل عمران: ٤٧).

وبعبارة إنجيل لوقا: "**لأنه ليس شيء غير ممكن لدى الله**"(لوقا: ٢٦-٣٧).

لقد أَعطى القرآنُ لعيسى عليه السلام أسماءً وألقاباً كثيرة. منها على سبيل المثال: عبد الله، نبي، رسول، المسيح، وجيهًا. مقربًا، مبشرًا. كلمته (أي كلمة الله الصادرة إلى مريم منه تعالى)، وروح منه... إلى آخره .

كما أثبت القرآن للمسيح المعجزات الدالة على نبوته كسائر الأنبياء؛ والمعجزة دلالة على النبوة لا دلالة على الألوهية. أعني أنها عمل الله تعالى

لتثبيت رسله، وإثبات صدقهم؛ فهي بمثابة قوله: "**صدق عبدي فيما يبلغ عني.**"

وإذا ما تصفحنا الأناجيل المتداولة نجد أن عيسى بن مريم عليه السلام سُمِّي فيها أيضا "بعبد الله، وبالنبي، وبالرسول، وبابن الإنسان، وبابن داوُد". فعلى سبيل المثال، جاء في الإنجيل المنسوب إلى مَتَّى "مَن يقبَلْكم يقبلني، ومن يقبلني يقبل الذي أرسلني، من يقبل نبيا باسم نبي، فأجرُ نبي يأخذ " ... فهو هنا قد حدد طبيعته وعلاقته بالله تعالى بأنه رسولٌ ونبيٌّ. وفي الإنجيل المنسوب إلى لوقا: "أن اثنين من الرجال كانا في طريقهما إلى قرية عُمْوَاس، وكان يتكلمان حول غياب المسيح، وفيما هما يتكلمان ويتحاوران اقترب إليهما يسوع نفسه، وكان يمشي معهما، ولكن أُمْسِكَت أعينُهما عن معرفته، قال لهما: ما هذا الكلام الذي تتطارحان به، وأنتما ماشيان عابسين، فأجاب أحدهما الذي اسمه كليوباس، وقال له: هل أنت متغرب وحدك في أورشليم، ولم تعلم الأمور التي حدثت فيها في هذه الأيام، فقال لهما وما هي؟ فقالا: المختصة بيسوع الناصري، الذي كان إنسانًا نبيًا مقتدرًا في الفعل والقول، أمام الله، وجميع الشعب" (٢٤: ١٣-١٩).

فهذان الشخصان كانا يتكلمان عن عيسى كنبي وليس كإله، وفي النص أن أعينَهما قد عُقِدَت فلم يريا المسيح، وهو يمشي معهما على الطريق، وفي هذا ما يفيد في تأكيد خبر القرآن الخاص بنفي الصلب عن المسيح عليه السلام ﴿**وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ**﴾ (النساء: ١٥٧).

فلماذا يقبلُ المسيحيون العقدَ على الأعينِ هنا، ويرفضون العقدَ على الأعين بالنسبة لمن خططوا للصلب؟

إن المسيح لم يصرح البتة بألوهيته أو ببنوتِه لله تعالى، بل إنه، على العكس من ذلك، صرح بأنه نبي ورسول، كما نص على عبوديته لله تعالى وحده.

ثم إن عقيدة التثليث التي لم ترد أية إشارة إليها في الأناجيل أو في كتب اليهود والنصارى بشكل عام، لم تستقر على ما هي عليه الآن حتى عام ٤٨١م، وحتى مؤتمر القسطنطينية، أما قبلَ ذلك فقد كان المسيحيون منقسمون حول تحديد طبيعة عيسى عليه السلام بحسب خلفياتهم الثقافية، وميولهم السياسية. وبحسب تأويل بعضهم لعبارات الأناجيل، ونصوص الكتاب المقدس بوجه عام؛ ولم تغب عقيدة التوحيد المطلق الذي نادى به المسيح عليه السلام أبدًا من بين النصارى حتى قررت الكنيسة أخيراً عن طريق المجامع المختلفة عقيدة التثليث كأصل للإيمان المسيحي الرسمي للنصرانية.

هذا ما أخبرنا به أرينياس وأريستكس الأثيني وأرتمون أريتماس أحد أعضاء المدرسة الملكانية في روما[1].

(١) النصرانية من وجهة نظر إسلامية وهي رسالة دكتوراه باللغة الإنجليزية جامعة اكستر – انجلترا ١٩٨٨ الباب الخاص بالتثليث

ومن الباحثين الْمُحْدَثِين يقول **فان ارسل**: "إن المسيح لم يُشِر البتة إلى نفسه بأنه ابن الله"، ويصرح بادت "إن عقيدة بنوة المسيح لله لم تؤد أي دور في عمل المسيح بين الجماهير"، ويضيف كوندلمان بأن هذا اللقب لم يرد البتة في رواية مباشرة عن المسيح نفسه، بل دائما ما يَرِد في شكل "اعتراف". وبدراسة النصوص الخاصة بعقيدة البنوة دراسة فاحصة نتبين أنها كلها لا أساس لها من الصحة. ولا يؤيدها التاريخ وبالتالي فإن عيسى عليه السلام لم يستخدم هذا التعبير (يعني ابن الله).

هذا الكلام سُقناه لسببين:

الأول: أن المسيحيين وأهلَ الذمة يعرفون أن هناك اختلافاً بينَ الأديانِ الثلاثة. أعني. الإسلام واليهودية والمسيحية. فالمسلمون لا يؤمنون بالصلب، ولا بعقيدة التثليث، ولا بالفداء، والكفارة، ويقولون بتحريف الكتب الخاصة بالديانتين. مع التسليم بصحة أصولها. وبأنها من عند الله تعالى.

وأن اليهود والنصارى لا يؤمنون البتة بمحمد. ولا يدينون بدين الإسلام الذي جاء به. ولا يُسَلِّمون بأن القرآنَ وحيٌ من عند الله، كالتوراة والإنجيل. وعلى الرغم من ذلك. فإنهم يعيشون معا يحكمهم نظام واحد ويأويهم وطن واحد. في وحدة منسجمة عنوانها﴿ **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** ﴾ [الكافرون: ٦]،﴿ **لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ** ﴾[الحج: ٦٧].

وأما **ثانيًا**: فلإظهار أن المسلمين يملكون رصيداً ضخمًا، حيًا وفاعلا، من التسامح الديني والتعايش السلمي، في مجتمع واحد مع أهل الذمة؛ وأنهم بالتالي قادرون على التحاور العقلاني مع الغرب، وعلى التعاون معه، على الرغم من الخلافات القائمة، والتي هي من صحيح منهج الله تعالى، ووفق إرادته.

﴿ولَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً ولا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ۞ إلا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ولِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود: ١١٨-١١٩)

نظرة الغربيين إلى الأديان الأخرى

كان نصارى الغرب يدركون أن في العالم شعوبًا أخرى لها دياناتٌ مختلفةٌ عن ديانتهم، فقد عرفوا اليهودية، والأمة اليهودية منذ بداية دعوة المسيح عليه السلام. فقد أُرسِلَ المسيحُ إليهم، واقتصر عمله عليهم.

وقد عرف الغربيون الإسلامَ كذلك على إثر انتشاره في الجزيرة العربية، فلقد استقبل الرسول الكريم ﷺ وفدًا من نصارى نجران، ودخل معهم في حوارٍ. كما أرسل ببعوثه ورسائله إلى قادة العالم وملوكهم آنذاك، يُعَرِّفهم فيها بالإسلام، وبأنه رسولُ ربِّ العالمين. وكذلك من خلال غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة.

وعَرَف نصارى الغربِ الدياناتِ الهنديةَ- الهندوسية والبوذية – ولكنه على مدار التاريخ ظلت معرفةُ الغرب بالديانات الأخرى ضيقةً ومحدودةً، كما أنها كانت وليدة العزلة التي يعيشها الغرب[1].

كانت معارف الغربيين عن الإسلام يسودها الجهل والعداء، وكانت الترجمات القرآنية وكذلك الكتب والرسائل التي ظهرت في المراحل الأولى للاتصال بين الإسلام والغرب، والتي قد تحدثت عن الإسلام، كانت مليئةً بأخطاء وأضاليل وافتراءات لا حصر لها، فإبان القرون الوسطى، وفي الفترة الأولى من عصر التنوير في أوروبا قد سيطر على عقول الناس هناك، الاعتقادُ بأن الإسلام بدعةٌ شيطانية، وبأن محمدا كذاب، عدو للإنسانية، يحب

١- تركيهد الواجب الحواري أو المطلب الحواري بالإنجليزية ص ٥ وما بعدها

الانتقام، ويفرض دينه على الناس بالسيف، وبأنه رجلٌ شهوانيٌ، وأنه مصابٌ بالصرع، وأنه لفق القرآنَ من كتب اليهود والنصارى، وبأنه كان عميلا للشيطان، إلى غير ذلك من افتراءات؛ هذه الأفكار وغيرها، والتي ركزت على الإسلام كدينٍ، كانت مصبوغة أيضاً بموقف سياسي من الإسلام، وقد استفحل هذا الموقف السياسي الأيدلوجي بمرور الزمن حتى سيطر على العقلية الغربية، وربما قَوَّى من هذا الموقف العدائي شدة الجوار الجغرافي، والتَّماس المباشر بين العالم الإسلامي والعالم الغربي.

وحتى بعد أن توسع الغرب في الاستعمار وعاش بين شعوب ذات ديانات خاصة، وثقافات متعددة، وحتى بعد أن أصبحت المجتمعات الغربية متعددة الجنسيات والديانات، لم يزل الشعورُ بالعزلة يسيطر على عقول الغربيين بدرجاتٍ متفاوتة. ولا تزال نظرة الغربي إلى الغير مصبوغةً بالتعالي والتميز، وأنه حتى عام ١٨٦٠م، حيث عُقِد أول وأكبر مؤتمر في مدينة ليفربول ببريطانيا للمنصرين في العصر الحديث، والذي مَثَّلت فيه جميعُ الطوائف والكنائس المسيحية تقريبًا؛ وفي هذا المؤتمر لم ترد أية إشارة أساسًا حول الديانات المحلية للشعوب التي كان المنَصِّرون يعملون في أوساطهم[1].

(1) Stephen Neil. Christian fiallxs ad other faiths: the Christian dialogue with other religions. London oxford 1961 p1

وفي العام نفسه ١٨٦٠م نَشر أحدُ رجال الدين المسيحي بانجلترا كتابًا بعنوان(The Faith Of The World) ، وفيه قَسَّم الكاتبُ الأديانَ إلى أربعة أنواع:

١- ديانات وثنية، وتشمل الديانات القديمة كديانات الإغريق والرومان.

٢- ديانات معاصرة، وتشمل الهندوسية والبوذية واليهودية، وهنا يعلق الكاتب بقوله: "إن كثيرًا من التغييرات أو التعديلات، والتي كثيرًا ما تكون غريبة، قد لَقّح أو هَجّن بها الأحبارُ النسخة الأصلية لكتب العهد القديم".

٣- الديانة المحمدية (يعني الإسلام) وهي أكبر ديانة شرقية زائفة قائمة على الإفك...انتحلها محمدٌ من اليهودية الحاخامية أو التلمودية، ومن النصرانية المشوهة البعيدة عن صحيح الاعتقاد. لقد نقح محمدٌ هذه الأقوال المنتحلة بذكاء بحيث تبدو وكأنها مكونٌ واحدٌ ونسيجٌ متصلٌ.

٤- والمسيحية، ويعتبرها الكاتب، وحدها، الديانةَ المستمدة من الله. وهي لسُمُوِّها لا تُصنف مع أي ديانة أخرى، بل تبقى منفردة، لأنها دون سائر الديانات هي التي صدرت عن الإلهام الإلهي .

ويستطرد فيقول "إن دين الله واحد، ولكن الأديان التي اخترعها الإنسان كثيرة".

وبناء على هذا التصور فإن النصارى هم الذين يمتلكون الحقيقة وحدهم، وإن سائر الأمم إنما ينتظرون بجهل أن يسمعوا كلمة الحق، وأن يعرفوا المسيح الإله المتجسد الذي لا يمكن لأحدٍ أن يصل إلى الحقيقة إلا من خلاله فقط.

ومن الأدلة الصارخة على العنصرية الدينية والانكفاء الديني على الذات، ما ساقه المكتشف البرتغالي مارتن دي إنسيسكو وهو كاثوليكي روماني؛ كتب هذا الرجل إعلانًا سماه "زيجر ريجنر يمنتو"،وكان هذا المكتشف يقرأ هذا الإعلان على الهنود الحمر السكان الأصليين لأمريكا، والذي كان يرغب في تنصيرهم، وقد احتوى هذا المنفستو (الإعلان. أو البيان) باللغة الأسبانية أو اللاتينية. على تعريفٍ مختصر لتاريخ العالم منذ بدء الخليقة إلى وقت ظهور المسيح، كما احتوى على بعض المعلومات عن البابوية، وعن تعاليم الإنجيل مشفوعًا بتخويل من البابا ألكسندر السادس موجهًا إلى ملك أسبانيا يأمره فيه بتسليمه جُذُر وتُخُوم معينة، وقد طلب أيضاً إلى الهنود الحمر الاعتراف بالكنيسة، وبسلطة البابا على العالم، وأن ملك أسبانيا يحل محل البابا؛ وكانت نتيجة رفض الهنود للإنجيل أنَّهُم ضُرِب عليهم الرِّق فصاروا عبيدًا. واعْتبِرُوا وثنيين بالإرادة[1].

وفي رواية هنري فبلدنج توم جوتز أعلن الكاهنُ البروتستاني تواكم قائلاً: "عندما أذكرُ الدِّين فإنني أعني الديانة المسيحية فقط، وعندما أقول

(1) Gravin D'dosta: Faith Meats Faith, London Bfss Re cetr 1988pp1,8 ff

المسيحية فإنني أعني المسيحية البروتستانتينية فقط. وعندما أقول البروتستانتينية فإنني أعني الكنيسة الإنجليزية فقط وعلى وجه التحديد."

هذا الكلام لا يعني تعصب المسيحيين لدينهم فقط، وإنما يعكس أيضًا النزعة الطائفية الحادة داخل المجتمعات النصرانية تلك النزعة التي تحولت إلى نزاعات مسلحة وعصبيات مدمرة بين الطوائف المسيحية.

ولا يفوتنا أن نسلط الضوء على نقطتين مهمتين، وهما:

١- أن المفهوم التنصيري، بالبعد الذي طرحناه. كان دائمًا مُدعمًا بعقيدة أيديولوجية صَوَّرت الديانات غير المسيحية، والمجتمعات غير الغربية بأنها أقل ثقافيًا وحضارياً من المجتمعات الغربية.

وبعد أن فَصَلت أوروبا الدِّينَ عن الدولة، وقلَّصت دورَ الكنيسة، وقويت شوكة العلمانية بظهور الدولة المدنية في الغرب، تعرض الدينُ للهجوم العنيف، وصَوَّب العلمانيون ضرباتِهم الْمُحْكَمَةَ ضد المعتقدات الدينية، وضد القيم الروحية، فَرَوَّجُوا أن الدين لا شأن له بالأمور الدنيوية، وإنما هو عَلاقة خاصة بين الإنسان وربه، هذا ولم تترك العلمانية أية مساحة خارج حياة الفرد الخاصة للدين، أن يقوم به في الحياة العامة.

لقد صُوِّر الدينُ على أنه من وضع البشر، وعلى أنه أفيون الشعوب، وأنه علامةٌ على الجهل والانحطاط والتأخر، واعتبره بعضُهم بأنه مرضٌ خطير يهدد سلامة البشرية وأمنها، وأنه لذلك يجب التخلص منه، [illegible] الانسان من سيطرته عليه.

وجاءت العلمانية بقيمٍ ماديةٍ جديدةٍ أُلبستها ثوب العلم، وجعلتها من ضرورات العصر؛ ومن مُسَلَّمات شروط النهضة والتقدم، وفي سبيل الترويج لذلك استغلت المنجزات العلمية والتكنولوجية الهائلة التي وصلت إليها البشرية في تدعيم حملتها ضد القيم الدينية؛ لا سيما القيم الأسرية، هذا – ولم يكن شعور الغربيين بالتفوق الثقافي والأخلاقي والديني على سائر البشر في عصر العلمانية، بأقل منه في عصر ما يمكن أن أسميه بـ"**اللاهو-أيديولوجي**" (أي اللاهوت والأيديولوجية معًا).

إلا أن هذا الشعور بالتفوق لم يلبث أن تآكل بسبب الحربيين العالميتين، وانتهاء عصر الإمبراطوريات الاستعمارية في أوروبا؛ وبالتالي فقد ظهر تهافتُ المزاعمِ الغربية. وتَخَلخَلَ مصداقية ما كان الغرب يعتقده، من أن سائر الديانات والثقافات والعادات غير الغربية تعتبر عوالم للجهل أو بؤر للتخلف. وربما كان كارل بارث هو أولُ من لاحظ ذلك، أعني عدم صحة المزاعم الغربية في التفوق الديني واللاهوتي والأخلاقي والثقافي على سائر الشعوب الأخرى؛ والذي هزت الثقةَ فيه ما مُنِي به الغربُ على أثر الحرب العالمية؛ وعلى الرغم من ذلك فإن بارث لم يعط اهتمامًا ذا بال للأديان غير المسيحية وهو يكتب عن الحالة الدينية لأوروبا.

غير أن هذا الشعور بالتفوق عاد يظهر من جديد تبعًا للتقدم العلمي، الذي أحرزه الغرب للثروة الكثيرة التي يمتلكها، في مقابل الفقر الشديد، والتخلف الذي باء به العالم الثالث؛ ولقد تطور هذا الشعور بالتفوق في

شكل العولمة التي يريد الغرب، بزعامة الولايات المتحدة، فَرضَها على سائر الشعوب الموجودة في العالم؛ وللترويج لأفكارٍ مثل نهاية التاريخ، وصراع الحضارات .

وإنه حتى اليوم مازال الإسلام يُهَاجَمُ من الغربيين من مختلف المواقع والاتجاهات، ولا زال هذا الدينُ يُعْرَض عَرْضًا أقربَ إلى السلبية والتنقيص في الدراسات الاستشراقية، ولا يزال الإسلام يُصَوَّر في أجهزة الإعلام الغربية وفي الأشكال الأدبية المختلفة على أنه خطرٌ مدمرٌ ينبغي التصدي له، ففي ١٨ أغسطس ١٩٨٠م نَشَر ينبول حديثا في مجلة نيوزويك انترناشونال بمناسبة كتابٍ يقوم بإعداده للنشر. ومما جاء في حديثه : "إن المبادئ الأساسية في الإسلام تفتقر إلى المضمون الفكري. ولذلك فلابد أن ينهار"[1].

وعلى الجانب الآخر فإن المسلمين يرون أن الإسلام هو الأصلح لتنظيم شئون العالم، وأن الحضارة الغربية هي التي تعاني بسبب فقر الجانب الروحي فيها، وفقدان الأيديولوجية التي يمكن أن تحافظ على بقائها واستمرارها. وهذا ما يعلن به كثير من المصلحين في الغرب.

وعلى الرغم من هذا التيار العام المناهض للإسلام في الغرب فإن هناك بعض علماء الغرب ومؤرخيهم وفلاسفتهم قد اطلعوا على حياة محمد ﷺ فأنصفوه، وأبدَوا إعجابهم الشديد به كنَبيٍّ وكإنسان؛ وإذا كنا لا نستطيع

---

[1] [illegible] الإسلام الأصولي ص ٣٧

أن نُسهب في نقل أقوال هؤلاء المنصفين، فإننا هنا نكتفي بتقديم بعض الأمثلة من أقواهم التي يمكن أن يستدل من خلالها على البعض الآخر.

فعلى سبيل المثال فإن الكاتب الإنجليزي المشهور برنارد شو رأى في رسول الله ﷺ كلَّ مؤهلات الزعامة حيث يقول: "إنني أعتقد أن رجلا كمحمد لو تَسلَّم زمام الحكم المطلق في العالم بأجمعه اليوم لتم له النجاح في حكمه، ولَقَاد العالم إلى الخير، وحَلّ مشكلاته على وجهٍ يحقق للعالم كله السلام والسعادة المنشودة"، ويستطرد قائلا: "إن أوروبا الآن بدأت تعشق دينه، كما أنها ساعية إلى تبرئة دينه مما اتهمته به من أراجيف رجال أوروبا في العصور الوسطى؛ وسيكون دين محمد هو النظام الذي يؤسس عليه دعائم السلام والسعادة. ويستند في حل المعضلات وفك المشكلات والعقد... إن كثيرين من مواطنيَّ (يعني الإنجليز) ومن الأوروبيين الآخرين يقدسون تعاليم الإسلام، ولذلك يمكنني أن أؤكد نبوءتي فأقول **إن بوادر العصر الإسلامي الأوروبي قريبة لا محالة.**"

وقد صدَّق على نبوءة برناردشو هذه الكاتبُ الألماني صاحبُ كتاب "**الإسلام قوة الغد العالمية**"، وكذلك غيره من علماء أوروبا وفلاسفتها.

وبالفعل فإنه قد دخل الإسلام عدد من كبار الشخصيات العلمية والقيادات الفكرية في الغرب؛ إلا أنه نظراً لاعتبارات نَعْرِفها عاد بعض الغربيين يبدون تخوفهم من الإسلام. وعاد بعض المغرضين يصورون الإسلام

بأنه الخطر الذي يستهدف إزالة شأفة الغرب؛ وهذه مجرد ترهات وافتراءات لا أساس لها من الصحة.

ويرى الأديب الفرنسي وولتر أن الإسلام هو دين السماحة؛ وأن الإسلام قد بلغ أقواماً لم يكن له أدنى سلطة عليهم. فأثر فيهم واستولى على حياتهم؛ ويقول كذلك "إن خطباء الغرب وكتابه الذين ملؤا عقول شعوبهم بالأكاذيب حول الإسلام وصوروه بأبشع صور القسوة."

كما أُعجب السير فلكد الأمريكي بحكمة رسول الله ﷺ وبمساواته بين البشر، حيث يقول: "كان عقل محمد النبي من العقول الكبيرة التي قلما يجود بها الزمان؛ فقد كان يدرك الأمر ويدرك كنهه من مجرد النظرة البسيطة. وإن انتصارات محمد الباهرة لم تثر في نفسه أي شعورٍ بالعظمة. بل ظل متواضعاً طول حياته، ولم يخرج البتة عن إطار القيم التي كان يدعو إليها". وأُعجب السير فلكد أيضاً بتواضع رسول الله ﷺ وإيثاره للعدل، وإيثاره كذلك لصالح العباد، وبتضحياته العظيمة، وتجرده التام لمبادئ دعوته السامية، فإنه لم يكن يسعى إلى منفعة دنيوية من وراء الدعوة التي جاء بها. وضحى في سبيلها بكل ما يملك من جهدٍ ومن مال.

وأعجب بعضُهم كما روى توماس أرنولد في كتاب "**الدعوة الإسلامية**" بموقف الإسلام من الخمر. إذ حرمها تحريماً قاطعاً لمصلحة الإنسان، حيث قال "إنه في مؤتمر عقد في بلجيكا في القرن التاسع عشر أثبتت دراسة بأن نسبة الوَفَيَات قد زادت في البلاد الباردة، نظراً لأنهم كانوا يتعاطو

الخمور، للتغلب على الشعور بالبرد؛ فكانوا يستنفذون حرارة أجسامهم بما يتعاطون من الخمر مما كان يُعَجِّل بوفاتهم."

وقال بعضهم: "إن محمداً ﷺ كان أول من وحَّد بين القبائل العربية بالجزيرة ... وجمع كلمتها تحت رايةٍ واحدة؛ وقد كان ظهور محمد في الوقت الذي كان العالم في أشد الحاجة إليه، فجاء فجمع الكلمة لا بالقوة والشدة؛ بل بكلامٍ عَذْب أخذ منهم كلَّ مَأْخذ، فاتَّبعوه، وصَدَّقوه؛ وقد فاق فتىَ مكةَ غيرَه من الرسل والقادة من الرجال بصفات لم تكن معروفة لديهم، فكان يجمع بين القلوب المتفرقة، فتشعر كلها بشعور قلب واحد."

ويقول بارتلمي سنت هيلر عن الدين الذي جاء به محمد" :ﷺ إننا نعد دينه الذي دعا الناس إلى اعتقاده جزيل النعم على جميع الشعوب التي اعتنقته."

وقد أعرب الكاتبان توراندیه وجورج مارسيه في كتابهما "العالم الشرقي" عن إعجابهما الشديد برسول الله ﷺ الذي يقولان عنه "إنه قد جمع إلى الشجاعةِ الفائقةِ، الرحمةَ البالغة ، والعطف الشديد على الضعاف والأيتام. والتبسط معهم، مع الاحتفاظ في الوقت نفسه بالهيبة الكاملة ... مما جعله يصنع من العرب قوةً. قُدِّر لها فيما بعد أن تَهُزّ أركانَ العالم القديم ... تلك القوة التي بُنِيَت على الأخلاق والْمُثُل الرفيعة، والمبادئ الصافية."

ويقول جان جاك روسو: "إنّ مَنْ تعلم العربية، ثم قرأ القرآن، ولو أنه سمع من محمد وهو يمليه على الناس ... لَخَرّ ساجداً على الأرض، ونـاداه "أيها النبي رسول الله! خذ بيدنا إلى مواقف الشرف والافتخار، أو إلى مواقع التهلكة والأخطار. فنحن من أجلك نود الموت أو الانتصار."

هذه رؤية شعرية لرسول الله ﷺ أملتها الحماسة لتقدير شخصية العظمة، وإلا فرسول الله ﷺ لا يقود إلى التهلكة، بل إلى النجاة، وإلى الفوز بنعيم الحاضر، ونعيم الأبد .

وقال أحدهم: "لو لم يكن لمحمد معجزة إلا أنه صنع أمةً من البدو، فجعلها أمة كبرى في التاريخ، لكنه معجزة في العالمين."

وقد ألقى الفيلسوف الإنجليزي توماس كارلايل محاضرة عن محمد ﷺ في كبرى قاعات إنجلترا، وقد ضَمّنها فيما بعد كتابه "**الأبطال وعبادة البطولة**". فقد أثنى كارلايل فى تلك المحاضرة على رسول الله ﷺ أيّما ثناء، وكان صوته آنذاك أشبه بصوت صارخٍ في البرية: "لقد أصبح من أكبر العار على كل فرد متمدن من أبناء هذا العصر أن يصغي إلى ما يدّعيه الْمُدَّعُون من أن دين الإسلام كذب، وأن محمداً خدّاعٌ مزور، وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة، فإن الرسالة التي أدّاها ذلك الرسول، ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرناً لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا خلقهم الله الذي خلقنا ... أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر

والإحصاء، أُكذوبة وخدعة؟ .. هل رأيتم قط معشر الناس، أنّ رجلا كاذباً يستطيع أن يوجد ديناً وينشره؟ .. عجبٌ والله! إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبني بيتاً من الطوب .. وعلى ذلك فلسنا نعد محمداً قط رجلا كاذباً متصنعاً يتذرع بالحيل والوسائل إلى بغيته، أو يطمح إلى درجة ملِك، أو غير ذلك من الحقائر والصغائر؛ وما كانت الرسالة التي أداها إلا حقاً صريحاً، وما كانت كلمته إلا صوتاً صادقاً صادراً من العالم المجهول (يعني الغيب)؛ كلا ما محمدٌ بالكاذب، ولا الملفق؛ وإنما هو قطعة من الحياة قد تَفطَّر عنها قلب الطبيعة، فإذا هو شهابٌ قد أضاء العالم أجمع. ذلك أمر الله."

كما أبدى كارلايل إعجابه كذلك بحكمة رسول اللهﷺ، وبرسوخه في المبدأ، وبهمته العالية وبره وتقواه، وقال لبني قومه: "إن محمداً لم يكن عنده طمع في الحياة، ولم يكن يتطلع إلى تاجٍ قيصر، أو صولجان كسرى، وجميع ما في الأرض من تيجان أو صوالج، فإنه أكبر من ذلك. إن محمدا لم ينشر دينه بالسيف، كما يزعم الغربيون الذين اتخذوا من ذلك دليلا على كذبه، ولا شَدّ ما أخطأوا وجاروا؛ إنهم يقولون ما كان الدين ينتشر لولا السيف، ولكن ماذا أوجد السيف؟ .. هو قوة هذا الدين فإنه حق .. أولم يروا أن المسيحية لا تأنف أن تستخدم السيف أحياناً! وحسبكم ما فعل شارلمان بقبائل الساكسون .. .. فحبّذا محمد مِن نَبيٍّ خَشِن اللباس، خشن الطعام، مجتهد في الليل، قائم النهار، ساهر الليل، دائب في نشر

دين الله. غير طامح إلى ما يطمح إليه أصاغر الرجال من رتبة، أو دولة، أو سلطان؛ وهو بحقٍ النبيُّ ذو الخلق العظيم."

وقال أدمونت بيرك: "إن التشريعات التي جاء بها محمد لم يكن لها مثيل في العالم". كما رأى فِنلي في رسول الله ﷺ رجلاً خارقاً قد كُوِّن من مزيج من كفايات ممتازة."

ودخل اللورد هيدلي الإسلام من باب الإعجاب بمحمد ﷺ الداعية إلى الرحمة والعدل، وسائر مكارم الأخلاق، وقدم اللورد هيدلي، وهو إنجليزي، خدماتٍ جليلة للإسلام، وله أقوالٌ عظيمةٌ في وصف شخصية النبي ﷺ.

وقد أثنت الكاتبة الأمريكية هيلين ستنسبري على المجتمع المسلم القائم على القيم الإسلامية العظيمة التي جاء بها محمدٌ ﷺ.

كما وضع مايكل هارت رسول الله ﷺ على رأس مائة شخصية عظيمة اختارها من بين عظماء العالم.

وبهذا يتضح أن نظرة الغرب للإسلام ليست سلبية دائما، وأن الغربيين ليسوا على رأي واحد بالنسبة للإسلام. فقد كان منهم من قدر الرسول ﷺ وأثنى على الإسلام. ورأى فيه التشريعات السامية. و القيم الفاضلة. وذلك بخلاف ما كان يروج ضده في الغرب.

ومن ثم فإنه يمكننا أن نفيد من تلك الآراء التي تتسم بالإنصاف في جملتها في بناء جسورٍ من الثقة. ومجالات للتفاهم والتعاون بين المسلمين والغربيين.

الخـاتمة

في هـذا البحـث استعرضنا موقف الإسلام من أهل الذمة، والمبادئَ التي قـررها في الـتعامل مـع غـير المسـلمين، والـتي تقوم على التسامح والتعايش السلمي، وقبول الآخر، في الإطار العام للمجتمع المسلم؛ وبيَّنَّا كذلك أن غير المسلمين قد تمتعوا بالحرية الدينية، وشاركوا مشاركةَ كاملةَ وفعالة في إدارة شـئون المجـتمع؛ وأوضـحنا كذلـك أن الإسـلام قـد قـررَ لهـم حقوقاً كاملة صـائنتها بقـوة تعالـيم القـرآن والسـنة؛ وفي سبيل ذلك حَرَّم الإسلامُ تحريماً قاطعـاَ عـدمَ الْمَسـاسِ بِحُـرِّياتهم أو التعدي عليهم بأي شكل من الأشكال، كمـا أوصى بضرورة التعامل معهم ومودتهم ما لم يكونوا محاربين، وأنه مما تمـيز بـه الإسلامُ أن شرَع لغير المسلمين تشريعاتٍ خاصةً للحفاظ عليهم مع إعطـائهم الحـق في اللجوء إلى مجامعهم وكنائسهم ومحاكمهم الخاصة، فيما يتصل بشئونهم الدينية البحتة، دون تدخلٍ من قبل المسلمين .

وفي هـذا البحـث قـد بينا أيضا موقفَ الإسلامِ من الأقلياتِ، ومن جـهةٍ أخـرى بَيَّـنَّا نظـرةَ الغربـيين إلى أهـل الأديان، والثقافات الأخرى، ومدى الاضـطهاد الـذي عانـاه غـيرُ المسـلمين في المجـتمع المسيحي؛ وعلينا نحن كعـلماءِ ديـنٍ، وأسـاتذة جامعـات أن نعمـل عـلى الوفاق بين أهل الأديان، وإعـادة بـناء الـثقة بيـنهم، وفـتح سبلٍ جديدةٍ للتفاهم والتعاون على أساس احـترام الحـريات والخصوصيات والهويات، وأن ننمي ما بدأنا فيه بالفعل مـن لقـاءات ومؤتمـرات الحـوار الديـني والـثقافي، حـتى نساعد على تنقية

الأجواء، وإزالة التوتر الذي ينتاب العالَم، أو على الأقل التخفيف من حدته. وعلينا قبل كل شيء أن نحافظ على القيم الدينية والمعطيات الروحية التي عاش الإنسان بفضلها آمناً مطمئنا، وألا نترك الزمامَ للعلم المادي، والفكر الإلحادي أن يَطغى على ما أنتجه الإنسان من حضارةٍ عبر القرون.

إن حضارتنا اليوم ليست مقدسةً، ولا هي إيجابية في كل جوانبها، وعلينا أن نختار منها ما يوافقنا ويصلح لنا ماديًا وروحيًا.

والله سبحانه وتعالى هو الموفق للصواب والهادي إلى الرشاد!

طبع بمطبعة مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامي
جامعة الأزهر بمدينة نصر - ت: ٢٦١٠٣٠٨
رقم الإيداع: ٢٠٠٢/١٦٥١٣
الترقيم الدولي: I.S.B.N.: 977-355-005-2